

تأليف : د. يورجن تودينهوفر

ترجمة : د. حارس فهمي سليم محمد

لماذا تقتل يا زَيْد؟

قصة حقيقية للمقاومة العراقية

الدار المصرية اللبنانية

د. يورجن تودينهوفر

لماذا تقتل يا زَيْد؟

الدار المصرية اللبنانية

لماذا تقتل يا زيد؟

قصة حقيقية للمقاومة العراقية

Original title: Warum tötest Du, Zaid?
By : Jürgen Todenhöfer

تودينهوفر ، يورجن .

لماذا تقتل يا زيد / تأليف يورجن تودينهوفر ؛

ترجمة : حارس فهمي سليم محمد .ـ ط1.ـ القاهرة :

الدار المصرية اللبنانية ، 2009.

376 ص ؛ 22 سم .

تدمك : 9 ـ 484 ـ 427 ـ 977

1 ـ تودينهوفر ، يورجن ، 1940 .

2 ـ السياسيون الألمان .

3 ـ التراجم الذاتية.

أ ـ محمد ، حارس فهمي سليم (مترجم)

ب ـ العنوان 920

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23909618 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 7947 / 2009

الطبعة الأولى : جماد الأول 1430 هـ – مايو 2009 م

د. يورجن تودينهوفر

لماذا تقتل يا زيد؟

قصة حقيقية للمقاومة العراقية

ترجمة د. حارس فهمي سليم محمد

الدار المصرية اللبنانية

المحتويات

تمهيد

هذا الكتاب هو الأكثر جرأة وموضوعية وإنصافًا مما نشر في السنين الأخيرة حول علاقة الغرب بالعالم الإسلامي ، وهذا يفسر انتشاره الواسع وبقاءه على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في ألمانيا منذ صدوره في مارس/آذار 2008.

إن رسالة الكاتب تودنهوفر الأساسية التي أراد إيصالها من خلال هذا الكتاب ، هي أن حروب الغرب الاستعمارية والاستباقية ضد الدول الإسلامية جلبت الدمار للإنسانية وعرقلت الاندماج الثقافي والحضاري بين الغرب والشرق ، وأعطت المبرر لظهور العنف والإرهاب في البلدان التي تتعرض لعدوان الغرب ، وأن على الغرب أن يحترم ثقافة الشعوب الإسلامية ، وأن يتخلص من نزعة التفوق العنصري ، وينبذ الحرب ووسائل قسر الشعوب الأخرى كالعقوبات الاقتصادية والهيمنة الثقافية، وأن يحترم حق الشعوب في تقرير المصير ويبدأ بحوار وتفاعل جدي مع العالم الإسلامي لخلق عالم مبني على قيم العدل والمساواة .

ولكي يعطي تودنهوفر المصداقية لطروحاته ، ابتدأ بمعالجة القضية الأكثر سخونة في علاقة الغرب بالعالمين العربي والإسلامي وهي الاحتلال الأمريكي للعراق . ولم يستند في معالجة هذه القضية إلى ما ينشره الإعلام الغربي عن الوضع في العراق المحتل ، بل ذهب إلى معاقل المقاومة في العراق ورأى الحقيقة بأم عينيه ، فقد سافر إلى مدينة الرمادي في غربي العراق دون علم القوات الأمريكية أو مخبريها، وهناك

قضى خمسة أيام مع المقاومين وتحاور معهم ، ووثّق حقيقة أن هناك مقاومة عراقية للاحتلال ، وأن هذه المقاومة لا علاقة لها بالإرهاب ، بل هي تحارب الإرهاب وتحرّم استهداف المدنيين، وأن المقاومين العراقيين هم من كل مكونات شعب العراق : مسلمين ومسيحيين ، عربًا وكردًا ، سنة وشيعة ، وأن المرأة العراقية تلعب دورًا فاعلاً في المقاومة ، وأن هذه المقاومة تعمل وفق برنامج عسكري وسياسي محدد لتحقيق أهداف وطنية، يأتي في مقدمتها : إيقاع الهزيمة المطلقة بالمحتل ، وتحرير العراق ، وإقامة حكومة وطنية عراقية ديمقراطية تحفظ وحدة العراق - أرضًا وشعبًا - وتحفظ هويته العربية والإسلامية . وقدّم الكاتب تودنهوفر عرضًا مفصلاً لحالة شاب عراقي اسمه زيد ، دفعته جرائم أمريكا بحق وطنه وأسرته إلى الانضمام للمقاومة ، وجعل قضية زيد عنوانًا لكتابه (لماذا تقتل يا زيد؟) ليصل بالقارئ في آخر المطاف الى السؤال الحقيقي وهو (لماذا تقتل يا بوش؟).

ثم انتقل الكاتب تودنهوفر إلى دراسة وتحليل العلاقة التاريخية بين الغرب والعالم الإسلامي ، وبالذات خلال القرنين الماضيين ، وخَلصَ إلى أن عنف الغرب وليس عنف المسلمين هو مشكلة عصرنا الحالي ، فخلال المائتي سنة الأخيرة ، لم يقمْ بلد إسلامي بالهجوم على الغرب ولو لمرة واحدة ؛ بل إن القوى من أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية كانت دائمًا هي المعتدية ، وأكّد أن الغرب لم يكترث يومًا بحقوق الإنسان ولا بالديمقراطية في الشرق الأوسط .. وأنه كان وما زال يحارب

من أجل النفط ، وتساءل : كيف يمكن للعالم الإسلامي أن يؤمن بقيمنا حول كرامة الإنسان ودولة القانون والديمقراطية، بينما لا يرى منا إلا الاضطهاد والإذلال والاستغلال؟

وبشأن ظاهرة الإرهاب ، يؤكد الكاتب بالوقائع والأرقام بأن سببه الرئيسي هو الطريقة غير الإنسانية التي يتعامل بها الغرب مع العالم الإسلامي ، بدءًا من العنصرية الخفية التي تجعل الساسة الغربيين يعتقدون أن المسلم هو من طبقة أدنى من البشر ، مرورًا بحروب الغرب الاستعمارية ونهبه ثروات البلدان الإسلامية ، ويخلص في النهاية إلى القول : لن نتغلب على الإرهاب إلا إذا تعاملنا مع الدول الإسلامية بعدل وإنصاف ، مثلما نريد ونحب أن يُعاملنا الآخر تمامًا.

إن كتاب تودنهوفر هو صرخة ضمير يطلقها مواطن غربي يؤمن بالإنسانية ، ويدعو فيها ساسة الغرب ومنظّريه إلى نبذ أوهام التفوق والعنصرية والانفتاح والتفاعل الإيجابي مع شعوب العالم .

الناشر



مقدمة المترجم[1]

أستهل تقديمي لكتاب «لماذا تقتل يا زيد؟» للدكتور «يورجين تودينهوفر» بالآية القرآنية :

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾
(سورة «الإسراء، آية 84)

وشاكلة ومنهاج «تودينهوفر» يختلف كثيرًا عن أقرانه وأضرابه من ساسة الغرب وكُتَّابه، فقد أظهر المؤلف في هذا الكتاب حقائق كثيرة عن الحقبة الاستعمارية الغربية القديمة والجديدة منها، كما يصفها المؤلف نفسه في ثنايا كتابه، نادرًا ما يُقِرُّ بها كاتب أوروبي نشأ وترعرع في أحضان الثقافة الغربية، تلك التي

(1)د. حارس فهمي سليم محمد، من مواليد محافظة سوهاج بجمهورية مصر العربية، ويعمل حاليًا مدرسًا بقسم اللغة الألمانية وآدابها، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر بالقاهرة، حصل على الدكتوراه عام 2006 م في علوم الترجمة من جامعة الروم بمدينة بوخوم بألمانيا، وشارك في عديد من الترجمات، وأشهرها كتاب «أحلام الخليفة» للمستشرقة الألمانية «آني ماريا شمل»، وصدرت الترجمة عن دار الجَمل بمدينة كولونيا - ألمانيا عام 2005 م، شارك في عديد من المؤتمرات الدولية والمحلية عن الترجمة وتواصل الثقافات وحوار الحضارات، له بحث منشور في مجلة «جمعية الدراسات الجرمانية الألمانية» بألمانيا تحت عنوان «حول إشكالية ترجمة الصور الاستعارية في ثلاث ترجمات لرواية «الطبل الصفيح» للكاتب الألماني «غونتر غراس»، وصدرت هذه المجلة في مدينة ميونيخ الألمانية عام 2008 م عن أعمال مؤتمر جمعية الدراسات الجرمانية؛ الذي انعقد في جامعة بوخوم بألمانيا، وتم نشر أبحاثه تحت إشراف الأستاذة الدكتورة كارين بتنر (ناشر)؛ فضلًا عن مقال له بمجلة «الدراسات الجرمانية بالقاهرة»،التي تصدر عن قسم اللغة الألمانية وآدابها، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد السابع عشر لعام 2007 م، من 777 إلى 801؛ تحت عنوان «ترجمة العبارات الاصطلاحية بين الألمانية العربية»، وهناك بعض الأبحاث قيد النشر. ولمعرفة المزيد، يمكن الاطلاع على صفحة المترجم على شبكة الإنترنت تحت:
http://www.harisshumann.globtra.com/de

تعرض عادةً صورة غير صادقة عن الإسلام والمسلمين، حيث وقف المؤلف في هذا الكتاب، بالاستناد إلى وثائق تاريخية، على حقيقة الحرب الدائرة الآن في العراق بين القوات الأمريكية والمقاومة العراقية بوجه خاص، كما غاص تودينهوفر بعمق عبر صفحات الماضي وبمنهاج عادل ومنصف للبحث عن حقيقة وأسباب النزاع والصراع الدائر حاليًا بين الغرب والعالم الإسلامي.

لقد عهد إليّ الأستاذ خالد الزايد بترجمة كتاب «لماذا تقتل يا زيد؟»، فور ظهور الكتاب في الأسواق، - صدر في مارس 2008 م عن دار «برتلسمان» الألمانية للنشر بمدينة ميونيخ بألمانيا ، وأتناول في التقديم للترجمة النقاط التالية :

نبذة عن الكاتب

ولد يورجن تودينهوفر JURGEN TODENHOFER في12نوفمبر 1940م بمدينة أوفنبرج بولاية بادن فرتنبرج بألمانيا. وكان والده يعمل قاضيًا في محكمة، ثم رُقِي بعد ذلك إلى رئيس لمجلس القضاء بمحكمة كارلسروه. درس يورجن تودينهوفر علوم القانون في جامعات ميونيخ وبون وفرايبرج بألمانيا وفي جامعة باريس بفرنسا، ثم حصل على الدكتوراه في القانون الدولي من جامعة فرايبرج عام 1969 م، واشتغل تودينهوفر في الإعلام عبر دار نشر «بوردا» الكبرى منذ عام 1987 م، وهو يشغل حاليًا منصب نائب المدير العام فيها، وقبل أن يشغل تودينهوفر هذه الوظيفة،

كان عضوًا في البرلمان الألماني الاتحادي، وناطقًا باسم الحزب الديمقراطي المسيحي لشئون التنمية ومراقبة التسلح على مدار 18 عامًا.

يعد يورجن تودينهوفر من الكُتَّاب الغربيين المنصفين، فلم يتحدث عن القضايا الدولية الكبرى في كتبه وهو بعيد أو بمنأى عن مسرح الأحداث، كما يفعل جل ساسة وكتاب الغرب الذين تقتصر رؤاهم السياسية على مواقعهم وتبني سياسات بلادهم، إنما تحمّل مشقة السفر ومخاطر الانتقال إلى بؤر النزاع وزيارة المناطق التي يكتب عنها، بل وفَضَّلَ الاحتكاك المباشر بمن يتحدث عنهم، لاسيما ممن يمثلون «الطرف الآخر»، الذي شارك الإعلام الغربي مشاركة فاعلة في تشويه صورته أمام الرأي العام الغربي.

من أشهر مؤلفات د. يورجن تودينهوفر: كتاب «من يبكي على عبدول وتانيا»[3] وكتاب «ضلالات ضد الإرهاب»، وكتاب «آندي ومروة.. طفلان جمعتهما الحرب»، تناول الكاتب في هذه الكتب الثلاثة الحروب الأمريكية وويلاتها في المنطقة العربية والإسلامية، وأثبت أن ما صنعته الحرب الأمريكية على أفغانستان لم يكن إلا قتل ضحايا أبرياء وزَرْع بذور مزيد من الإرهاب والكراهية، ويتحدث الكتاب الأخير على سبيل المثال عن جندي أمريكي شاب يُدعى «آندي»، قُتل في العراق، أما

(3) كلمة عبدول تعني «عبدالله» أو «عبدالرحمن» وغيرهما مما يبدأ في اللغة العربية بكلمة «عبد»، وقد اعتاد كثير من الألمان طرح الاسم على هذا النحو. راجع: نبيل شبيب، عن الجزيرة نت (المترجم).

«مروة»، فهي فتاة عراقية قُطعت ساقها اليمنى وقُتلت أختها في الحرب الأمريكية الدائرة حاليًا على أرض العراق، وتلك الشخصيات التي يستعرضها تودينهوفر في كتابه، لم يلتقوا قط في حياتهم، غير أن الحرب جمعت بينهم، فَهُم من ضحاياها.

وتتصدر كتب المؤلف عن حرب أفغانستان والعراق لائحة أكثر الكتب مبيعًا، ولقد شيد تودينهوفر مما تدر عليه تلك الكتب دارًا للأطفال في أفغانستان، وهناك مستشفى للأطفال في الكونغو تحت الإنشاء، كما يمول تودينهوفر من مبيعات كتاب «لماذا تقتل يا زيد؟» مساعدات طبية لأطفال عراقيين لاجئين، وكذلك مشروعًا في القدس للمصالحة بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

كتاب غير مسبوق في منهجه

فور صدور كتاب «لماذا تقتل يا زيد؟» في مارس 2008 م، احتل الكتاب المرتبة 13 و 14 من بين أكثر الكتب المباعة، وفق القائمتين الأشهر في ألمانيا لمجلتي دير شبيجل وشتيرن، ولازال الكتاب يحتل مراكز متقدمة؛ خاصة وأن موضوع الكتاب يُعد حديث الساعة على الساحة الإعلامية الألمانية، فمن أجله استضافت، ولا تزال تستضيف محطات تليفزيونية عديدة الكاتب للحديث معه عن نظرياته وفرضياته التي تتعلق بعلاقة الغرب بالعالم الإسلامي، وليدلي تودينهوفر بدلوه في الحديث عن الحقائق الواردة في ثنايا هذا الكتاب التي يعرضها لنا من موقع الأحداث.

يتعرض تودينهوفر في ثلث الكتاب تقريبًا للمقاومة في العراق ويتناولها تناولًا مباشرًا، والكتاب بذلك لا يتناول موضوعًا واحدًا، وإنما يتطرق إلى موضوعات عديدة، تدور في مجملها حول مطلب واحد، ألا وهو رفض الحروب الأمريكية، ورفض جميع الأشكال المستعارة لها، ويؤكد الكاتب في مُجمل كتابه على الواقع المأساوي وعلى الضحايا التي خلفتها ما سميت بـ (الحرب علي الإرهاب)، وما يحسب لتودينهوفر هنا، أنه يرفض كثيرًا ممَّا يقال عن الإسلام والمسلمين، وخصوصًا الحملة الإعلامية الشرسة المرافقة لتلك الحرب.

يستهل تودينهوفر كتابه بمقدمة عنوانها «بحثًا عن الحقيقة»، يتناول فيها المقاومة الحالية على أرض العراق، التي يطرح من خلالها صورة موجزة للعامل التاريخي العربي والإسلامي، وخصوصًا ما شهدته الحقبة الاستعمارية الغربية في بلاد الإسلام والمسلمين، ويتحدث تودينهوفر في هذه المقدمة عن رحلاته إلى عدد من البلدان ؛ وخاصة رحلته الأخيرة إلى مدينة الرمادي العراقية التي يعتبر الكتاب حصيلة ونتاج هذه الرحلة التي حفتها كثير من المخاطر الجسام، كادت أن تودي بحياته هو شخصيًّا ؛ وهنا أخذ الكاتب يسرد لنا بأسلوب روائي أدبي بليغ عديدًا من الأطروحات والأقوال التي تُقال عن الإسلام والمسلمين في الغرب، وتوصل من خلالها إلى حقيقة مفادها أن الجهل بالإسلام والمسلمين منتشر انتشارًا واسعًا للغاية بين غالبية أهل الغرب وساسته، مقابل انتشار المعرفة بالغرب وبسياساته العدوانية، حتى على أدنى المستويات الشعبية بين العرب والمسلمين.

وعبّر الكاتب في مقدمته صراحةً عن عدالة القرآن الكريم، الذي يخترق بإبداعه البلاغي ذلك الحاجز الذي تصنعه الترجمات الضعيفة للنص العربي المعجز، ووصف كذلك العهد القديم (التوارة) بقدرته الفائقة على استخدام الكلمات، وبيّن أن العهد الجديد (الإنجيل) ينشر إحساس المحبة بين أوراقه مثل العهد القديم تمامًا.

يثبت الفصل المحوري من الكتاب «لماذا تقتل يا زيد؟» مشروعية المقاومة العراقية للاحتلال الأمريكي، مع تبرئتها من الخلط بينها وبين العمليات الإرهابية، إضافة إلى نقد التعتيم الإعلامي لحقائق ما يشهده العراق ؛ وقد حاول المؤلف بأسلوبه الروائي أن يكون كتابه مؤثرًا على العامة من القراء، الذين تقتصر معارفهم على ما تبثه وسائل الإعلام، حيث يطرح تودينهوفر على القارئ روايات عديدة من مشاهداته المباشرة للمقاومة في العراق، ومن أحاديث أجراها مع أفراد منها ومع من يقوم بدعمها من السكان أو من المتعاطفين معها، وأضاف إلى لقاءاته مع بعض شباب المقاومة العراقية بعض الشروح والتعليل - إذا اقتضت الضرورة -، لتجعل القارئ مقتنعًا بصدق ما كتبه وصوّره المؤلف، حتى إن اللقاءات التليفزيونية مع الكاتب، التي تلت صدور الكتاب مباشرة كانت تجد - لصدق ما يعرض - تصفيقًا حادًّا وتأييدًا واضحًا من جمهور الحضور.

عرض الكاتب، بشكل روائي بارع، الخوف الذي صنعته الاعتداءات والممارسات الأمريكية في مواقف ومواطن عديدة في صفحات هذا الكتاب ؛ ولقد تَجسَّد هذا الخوف بصورة

واضحة في رهبة وخشية المقاوم الشاب زيد من الحديث مع الصحفي الألماني الزائر «تودينهوفر»، قبل أن تتوطّد بينهما أسباب الثقة، وتقوى أركانها، فكان زيد يخشى أن يُزج به في معتقل «غوانتانامو» أو تُحمل أسرته إلى سجن «أبو غريب» ؛ وبما أن المقاوم الشاب زيد يمثل الشخصية المحورية في هذا الكتاب، يحكي لنا الكاتب على لسانه، كيف كانت المروحيات الأمريكية - ولاتزال - تهدم في غارات عشوائية المساجد على رووس من فيها من المصلين، وكيف أن زيدًا فقد اثنين من إخوته وعمه أمام عينيه من جراء تلك الغارات العشوائية، وبعد أن ضاقت بزيد السبل، لم يكن أمامه إلا الانضمام إلى صفوف المقاومة، ليثأر لمقتل أخويه وبعضٍ من أهل عشيرته، ويواصل الكاتب عرض رواياته من مسرح الأحداث على لسان زيد مستشهدًا بمواقف، تثبت أن المقاومة العراقية كانت - ولا تزال - حريصة كل الحرص على حياة المدنيين، بل إنها ألغت عمليات كثيرة خشية سقوط ضحايا من المدنيين، وكان زيد أحد أبطال هذه العمليات الملغاة.

ويُقرُّ الكاتب من خلال معايشته بنفسه بصعوبة تسلل الجماعات المسلحة إلى العراق عبر الحدود السورية، حيث عانى المؤلف كثيرًا، بل وذاق صنوفًا من العذاب والرعب سواء في دخوله أو خروجه من العراق، وهذا يتنافى مع المزاعم الأمريكية بأن سوريا تسهل دخول المسلحين إلى العراق. إن إقامة تودينهوفر القصيرة في مدينة الرمادي، وحديثه مع أفراد المقاومة عن قرب جعلته يصيب عين الحقيقة المتمثلة في

تضخيم آلة الإعلام الغربي، وخاصة التقارير العسكرية التي تتوالى علينا من دهاليز وأروقة البنتاجون الأمريكي، وتحدث تودينهوفر من موقع الأحداث كذلك مع كثير من شباب المقاومة العراقية الذين ينتمون إلى أطياف مختلفة، فمنهم من ينتمي إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، ومنهم من يجاهد مع القاعدة، ومنهم الشيعي والسني، بل ومنهم المسيحيون العراقيون الذين يقاتلون في صفوف المقاومة الإسلامية، وكانت هذه مفاجأة من العيار الثقيل لتودينهوفر، حيث ذكر له المقاوم المسيحي يوسف قائلًا: «قلْ للألمان بأن الذين يحاربون الولايات المتحدة الأمريكية في العراق ليسوا مسلمين فحسب، وإنما يحارب معهم المسيحيون جنبًا إلى جنب، إننا نحن المسيحيين نريد أن نحرر بلادنا من قوات الاحتلال الغربي ومن الإرهاب الغربي».

يطرح لنا المؤلف في نهاية كتابه عشر فرضيات، هن من بنات أفكاره، يتخذها أساسًا له في وضع تعريف جامع لمفهوم ظاهرة الإرهاب، يبرهن لنا فيها على رؤيته الشخصية الخالصة لهذه الظاهرة، ويستعرض في فرضياته العشرة فصولًا من دموية الحقبة الاستعمارية على بلاد الإسلام والمسلمين، ويخص منها ما حدث من الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ويستشهد على ذلك بأقوال الغربيين أنفسهم عن تلك المآسي المروعة التي ارتكبت في حق البشرية باسم الاستعمار، ويبرز لنا الكاتب أن الذين ابتدعوا وصكّوا مصطلح «الحرب المقدسة»، هم المسيحيون وليس المسلمون، وأن الذين اضطهدوا اليهود على مر العصور وعبر التاريخ، هم المسيحيون وليس المسلمون، بل كانت ديار

المسلمين ملاذًا آمنا لليهود. ويبحث تودينهوفر متعمقًا عن أسباب الصراع والنزاع القائم حاليًا بين الغرب والعالم الإسلامي، ويرجع معظم هذه الأسباب إلى الغرب الذي ينظر باحتقار وعدم اكتراث إلى العالم الإسلامي ؛ فضلًا عن ذلك يكشف تودينهوفر للقارئ الغربي عن قيم عظيمة عند المسلمين، تتمثل في كرم الضيافة والمودة وحسن الجوار، تلك التي - للأسف- لم يتعلمها الغرب منهم، بل ويرى أن التقدم العلمي الذي وصل إليه الغرب، كان بفضل علوم الأوائل من المسلمين التي انتقلت إلى أوروبا عبر إسبانيا وإيطاليا، ويبين لنا المؤلف أنه حاول جاهدًا أن يرى الأشياء بعين المسلم، لا بعين الغرب. وكما بدأ «تودينهوفر» عنوان كتابه بعبارة «لماذا تقتل يا زيد؟»، ينهي كتابه بعبارة مماثلة يوجهها إلى الرئيس الأمريكي، وهي : «لماذا تقتل يا جورج بوش؟»، تلك العبارة التي عجز قادة الغرب أن يوجهوها إلى الرئيس الأمريكي طيلة فترة حكمه.

إن هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ العربي يبقى شاهدًا على الجريمة، شاهدًا على حقيقة أن جميع المبررات التي أوردتها الإدارة الأمريكية لشن حرب الاحتلال، كانت مبررات كاذبة خادعة منذ البداية، ومن يقرأ هذا الكتاب متعمقًا مع دخول العام السادس للاحتلال ويسمع قول الرئيس الأمريكي بوش الابن، وهو يقول : «إن الأهداف الأمريكية تتحقق في العراق» ؛ لا يملك إلا أن يؤكد قائلاً : «إن هذه الأهداف ليست إلا اغتيال

العراق والإنسان العراقي العربي، ونهب ثرواته وتدمير قواته ليؤمّن بذلك مصالحه غير الشرعية ومصالح من يرعاهم [4]».

منهج وطريقة الترجمة

يمتاز كتاب «تودينهوفر» بسلاسة أسلوبه وببساطة تعبيراته وسهولة جمله، وحيث إن «تودينهوفر» أراد أن يسرد كتابه السياسي الصحفي في أسلوب أدبي روائي، حاولت قدر الإمكان أن أصبغ الترجمة العربية بالصبغة الأدبية التي أرادها المؤلف في اللغة المنقول منها، مع الاحتفاظ بالمعنى المراد؛ ونظرًا للاختلاف بين اللغة الألمانية واللغة العربية، فكل منها ينتمي إلى عائلة لغوية مختلفة، فالألمانية تنتمي إلى العائلة الهندوجرمانية، بينما تنتمي العربية إلى السامية، لذا راعيت في الترجمة سمات اللغة العربية من تقديم وتأخير لبعض الألفاظ والعبارات؛ حتى تتماشى مع نسق النص العربي وقواعد اللغة العربية، وحاولت أن أنقل الصور المجازية الألمانية الواردة في النص بما يقابلها في اللغة العربية، ما لم تسبب ترجمتها الحرفية غرابة للقارئ العربي.

لذلك اتبعت في ترجمتي لكتاب «لماذا تقتل يا زيد؟» الترجمة المعنوية التي يحافظ فيها المترجم على مضمون النص،وكانت

---

(4) اعتمدت في عرض وتقديم الكتاب للقارئ العربي على الكتاب نفسه، وعلى عرض المؤلف «تودينهوفر» لسيرته الذاتية المتاحة في صفحته على شبكة الإنترنت، وعلى عرض السيد / نبيل شبيب للكتاب المتوافر على صفحة الجزيرة - نت (المترجم).

هناك بعض الصعوبات التي ظهرت أثناء الترجمة، والتي تكمن في نقل بعض المصطلحات العسكرية المستحدثة، مثل كلمة Humvee التي تتناقلها وسائل الإعلام المرئية والمقروءة باللفظ اللاتيني نفسه، وهو «همفي»، فعلى الرغم من أن الكلمة قَدِمت إلى الألمانية من اللغة الإنجليزية، إلا أنها لم ترد ترجمة لها في المعاجم ثنائية اللغة سواء الألمانية العربية أو الإنجليزية العربية؛ ناهيك عن بعض أسماء المعارك التي ليس من السهل أن تجد لها مقابلًا في اللغة العربية مثل Donkey Island، بالإضافة إلى استخدام الكاتب لبعض الشخصيات المشهورة للقارئ الغربي عند توصيفه وتشبيهه لبعض الشخصيات العربية، التي ربما لا يعرفها القارئ العربي العادي، مما جعلنا نضيف أحيانًا بعض الكلمات التوضيحية، التي من شأنها أن تسهل على القارئ فهم التشبيه داخل النص.

بقيت نقطة أخيرة أرى ضرورة الإشارة إليها، ألا وهي أنني قمت بنقل الكتاب إلى اللغة العربية بأمانة وحرص شديدين، فلم أقم بزيادة أو نقصان، بل نقلت جميع ما كتب المؤلف بلغته الأم، حيث عرض «تودينهوفر» ذلك في مجمل كتابه «صورة الإسلام والمسلمين في عيون الغرب»، وكان أكثر ساسة الغرب جرأة وصدقًا في تحليله وتوصيفه للعلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي، فكانت له رؤى خاصة به، سواء عن المقاومة العراقية أو عن الإسلام والمسلمين، فأتفق معه في كثير منها وأختلف معه في بعضها، فكل ما نقلت من آراء في هذا الكتاب يعبر بالدرجة الأولى عن وجهة نظر المؤلف، وليس بالضرورة عن وجهة نظر المترجم.

وفي الختام أتوجه بالشكر إلى الله سبحانه وتعالى الذي وفقني لترجمة هذا العمل، وأسأله أن يرزقنا أجر نقله إلى القارئ العربي ؛ وأشكر جميع من أسهم في إخراج هذه الترجمة في صورتها الحالية، وأخص هنا بالشكر الأستاذ الدكتور محمد أحمد منصور، الأستاذ بقسم اللغة الألمانية وآدابها، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر بالقاهرة، حيث قام بمراجعة جميع فصول الكتاب من اللغة الألمانية إلي العربية، وأضفى على الترجمة سلاسة لغته وجزالة ألفاظه. كما أشكر إمام مسجد عباد الرحمن بالقاهرة الجديدة، فضيلة الشيخ عبدالمعطي محمد عبدالمعطي، الذي قام بالمراجعة العامة للترجمة لغة وأسلوبًا.

ونظرًا لضيق الوقت الذي طُلبت فيه الترجمة، فقد ساعد بعض الزملاء في نقل بعض النصوص وكتابة الترجمة على جهاز الحاسب الآلي، فأتوجه هنا إلى جميع من ساهم في إخراج الترجمة بهذه الصورة، ومن بين هؤلاء الزميل د. محي الدين بدر، ومن السادة معاوني هيئة التدريس في قسم اللغة الألمانية، جامعة الأزهر : طارق القط، وعماد المختار، ومحمودعبدالجواد، والطالب محمد رجب الذي قام بتجميع النصوص الدينية من مصادرها الأصلية، وأشكر كذلك الأستاذ أمير زيدان (5)، الذي طلب منه المؤلف ترجمة فرضياته العشرة التي نشرتها إحدى الصحف العربية، وإن كنت قد أجريت عليها تعديلات كثيرة حتى

(5) يشغل أمير زيدان منصب مدير المعهد التربوي الإسلامي ومدير الجمعية الإسلامية في النمسا وصاحب ترجمة لمعاني القرآن الكريم.

تتماشى مع نسق وأسلوب ترجمة الكتاب.

وأهدي هذه الترجمة إلى والدتي الحبيبة التي تذللت بفضل دعائها مصاعب كثيرة، وإلى زوجتي المصونة التي وفرت لي مناخًا ساعدني على إتمام هذه الترجمة في الموعد المطلوب.

والله من وراء القصد

د. حارس فهمي سليم محمد

القاهرة - 29 جمادى الأولى 1429 هـ

3 يونيو 2008



الإهـــداء

إلــى شعب العـــراق

وإلى جميع المستضعفين

في الأرض



لماذا
تقتل
يازيد؟

بحثاً عن الحقيقة

كلمة تمهيدية مختلفة نوعاً ما

«لا تتذلل للرجل الأحمق ولا تحاب وجه المقتدر، جاهد عن الحق إلى الموت والرب الإله يقاتل عنك»

التوارة، سفر يشوع بن سيراخ،
الإصحاح الرابع، 31 و 32 وما بعدها.

السابع من سيوان 5768 (التقويم اليهودي)
التاسع والعشرون من أكتوبر 2007 (التقويم المسيحي)
السابع عشر من شوال 1428 (التقويم الإسلامي)

«من فضلكم أنصتوا لي!»

بهذه الكلمات صاح راوي الأساطير العجوز قصير القامة، الذي كان متواجداً في مقهى «النوفرة» بدمشق، وقد أتبع كلماته هذه بطرقة ضربها بسيفه العريض على منضدة معدنية سوداء لها أرجل طويلة. ارتعد بعض رواد المقهى، في حين اعتدل معظم الجالسين في جلستهم وقد تصاعدت الضحكات من بين شفاههم. وكان الليل قد أرخى سدوله على دمشق، فراحت أنوار المصابيح تضئ كل مكان، وهكذا كان الأمر أيضاً في «النوفرة».

يقع مقهى «النوفرة» على مقربة من قبر صلاح الدين الأيوبي؛ ذلك الرجل الذي يُعد واحداً من أعظم أبطال المسلمين، وقد استظل القبر بظلال جامع الأمويين الذي تم بناؤه قبل 1300 عام من الزمان. وكان المقهى قد امتلأ عن بكرة أبيه، فراح السوريون من كل الأعمار يدلفون إلى المكان الذي لم يخل أيضاً من بعض السياح القادمين من فرنسا وبريطانيا، وقد كانوا جميعاً يشربون الشاي الأسود من أكواب صغيرة، وقد وُضعت في الشاي أوراق نبات النعناع الطازجة.

وهناك في مقابل مدخل المقهى عند الجدار الخشبي، جلس أبو شادي، الذي كان الناس يلقبونه بـ«حكواتي» دمشق، جلس على كرسي

وثير مشوب بالصفرة والحمرة والخضرة، وقد رُفع الكرسي قليلاً عن مستوى الأرض ببسطة سُلم وضعوها أسفله. يُشاع بأن أباشادي هو آخر «الحكواتية» في المنطقة العربية. يحاكي أبو شادي في ملبسه الأزياء التي كانت سائدة في سوريا في الأزمنة القديمة؛ إذ كان يرتدي قميصاً وسروالاً رماديًا فضفاضًا، قد ارتدى أبو شادي على قميصه صديريًا يقترب عرضه من خمسة عشر سنتيمترًا، وزُخرف بالألوان الفضية والحمراء، وشد أبو شادي الصديري على بطنه الصغيرة. وكان أبو شادي يرتدي فوق رأسه طربوشاً أحمر، أكسب وجهه المتجعد مسحة من السمو والإجلال.

«اسمحوا لي!»

صاح أبو شادي بهذه العبارة للمرة الثانية، ثم بدأ بعد ذلك يقرأ من كتاب أسود كبير، راويًا بصوت عالٍ مُنغَّم هذه الحكاية الغائرة في القدم، التي تحكي عن العبد عنتر بن شداد. كان الحاضرون يستمعون مشدوهين إلى القصة التي طعّمها حاكيها بحركات كثيرة من يديه، أكسبتها معانٍ عميقة، وكان يرد ضاحكاً على أسئلتهم، وكان يُسر كثيراً عندما يتوقف عن الرواية من حين لآخر، فيلقي نظرات ماكرة هنا وهناك، ويداعب الحاضرين بملحه وقفشاته.

غالباً ما كان أبو شادي يهزأ من نفسه ومن أخيه، وكان يضحك كثيراً حتى أن نظارته من شدة الضحك كانت تصل إلى أرنوبة أنفه.

وقد حكى لي أبو شادي فيما بعد أنه اكتسب أسلوب سرد المُلح من نيكيتا خروتشوف السكرتير العام السابق للحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي (USSR)، فدائماً ما كان خروتشوف يضفي المرح على أحاديثه بمثل هذه القفشات.

وإذا لاحظ أبو شادي أن جمهوره لا يتابع حكاياته على نحو مناسب، كان يضرب مدوياً بسيفه الثالم على المنضدة المعدنية، فيعيد بذلك كل الأعين والآذان لتنتبه إلى ما يقول، فيروح الجميع يتابعون بنظرات متشوقة رحلاته عبر الماضي، فينتابهم الشعور وكأنه يحلق بهم على بساط سحري في دنيا العجائب البعيدة، ليذهب بهم بعيداً عن مسيرة اليوم الموحشة، التي عليها الحياة في العاصمة السورية دمشق.

فجأة تسمع في جيب قميص أبي شادي رنات غير شاعرية على الإطلاق تصدر عن تليفونه المحمول، وسرعان ما تتسبب هذه الرنات في هرج ومرج شديدين، فيطلب أبو شادي من المتصل غير المرغوب فيه القادم من عالم الحاضر أن يتصل به في وقت لاحق، ذلك لأن أبا شادي - كما يذكر للمتصل به - كائن في رحلة في مكان بعيداً جدًّا عن الحاضر، وعندما يسمع الحضور ذلك الحوار ينخرطون في الضحك من جديد.

بضربة سيف واحدة، أعاد أبو شادي الهدوء إلى المكان، ثم عاد ليحلق بجماهيره في رحلة أسطورية إلى ماضي الجزيرة العربية المجيد، فيواصل الحكاية عن العبد عنتر بن شداد، ذلكم البطل الذي خاض ملحمة بطولية من أجل نيل الحرية التي طالما اشتاق إليها.

والسؤال الآن هو: هل كان أبو شادي يرمي من خلال ذلك إلى تاريخ الشعوب العربية؟

أمامي الآن الصياغة الأولى لكتابي، الذي انتهيت من تأليفه منذ أيام قليلة. يدور الكتاب عن قصة زيد، ذلك الشاب العراقي الذي يناضل كذلك من أجل حريته وحرية شعبه، ولكني لا أعرف الإجابة عن السؤال الآتي: هل ستكون نهاية قصة زيد نهاية سعيدة، مثلما حدث في أسطورة العبد عنتر بن شداد؟

إنني لا أدرك على وجه الدقة السبب الذي جعلني أودُّ أن أرى أبو شادي - حكواتي دمشق - مرة أخرى قبل أن أقوم بتسليم الصياغة الأولى لكتابي، فثمة شيء عجيب شدني إلى العودة ثانية إلى ذلك المقهى المليء بالدخان، الذي كنت فيه قبل عامين أصغي فيه لأساطير أبي شادي، لقد كنت أريد أن أرجع البصر إلى أعين الجماهير المشدوهة، التي كانت تتابع مسيرة البطولات التي وقعت في أزمان سحيقة.

إنني أحب هذا الرجل العجوز، الذي كان والده يصحبه معه إلى مقاهي «الحكواتية» عندما كان طفلاً، وكان حلمه الكبير أن يصبح «حكواتي» عندما يكبر. أما وقد بلغ ما يريد، فأصبح الآن يسحر كل الناس بصوته التلحيني اللعوب، وأنا نفسي لم أسلم من هذا السحر على الرغم من أنني لا أفهم كلمة عربية واحدة، فكنت أجلس في ركن من أركان مقهى «النوفرة» وأدخن النرجيلة، أما أفكاري فكانت بعيدة جدًّا، كانت هناك مع زيد وصحبه.

تاريخ الشعوب العربية هو تاريخ للانتصارات العظيمة كما إنه تاريخ للهزائم الكبيرة أيضاً، أما في القرنين الماضيين، فلم تكن هناك على الإطلاق دواعٍ كبيرة للابتهاج؛ ذلك لأن قوى الاستعمار المتفوقة قد أزاحت الثقافة العربية - بل والثقافة الإسلامية بأسرها- بعيداً عن الساحة.

عايشت بنفسي بعضاً من مشاهد المأساة العربية. أثناء حرب الجزائر، وعندما كنت طالباً في عمر العشرين سافرت سنة 1960 م إلى الجزائر، ذلك البلد الواقع في المغرب العربي، والذي كانت تحتله فرنسا، وكنت أقيم هناك مع أسرة عربية. في كل مساء، ومع حلول الظلام كان يصيبني ما يصيب الناس من مخاوف من الحرب، ومن الضربات التي يمكن أن توجهها المنظمة السرية الفرنسية (OAS)، التي كانت تتبع أساليب إرهابية؛ من أجل الحفاظ على الجزائر تحت السيادة الفرنسية.

وبعد عشرة أيام في العاصمة الجزائرية سافرت بقطار إلى شرق الجزائر، بالضبط إلى قسنطينة، وأثناء الرحلة تسامرت لساعات طوال مع الجنود الألمان والإنجليز المنتشين بسعادتهم، تسامرت معهم حول «البطولات» التي قاموا بها، وسأحكي لكم في السطور التالية عن مشهد لن أنساه طيلة حياتي:

عندما بدأ القطار في التحرك من محطة العاصمة الجزائرية، طلب أحد الجنود الأجانب، وكان ألمانيًّا، من صبي عربي كان يسير في المحطة ذهاباً وإياباً، طلب منه أن يبيعه صندوقاً من عصير الليمون. ابتهج الصبي، الذي كان يبدو في السابعة من عمره، كثيراً بهذه الصفقة.

أخذ الجندي الصندوق، ووضعه على مسند النافذة، ثم جعل يبحث عن مال في جيبه، واستغرق ذلك وقتاً طويلاً، وقد بدأ القطار يتحرك.

جعل الصبي الصغير يقفز بجوار العربة التي يجلس فيها الجندي، وأخذ يتوسل من أجل أن يأخذ ماله، وما كان من الجندي إلا أن نظر إليه نظرات ساخرة. وعندما زادت سرعة القطار، وعندما بدأ الصبي يبكي متضرعاً، أخذ الجندي بالصندوق، ورفعه عالياً، ثم صاح مخاطباً الصبي: «خذ، هذا هو مالك!»، ورمى الجندي الصندوق على قضبان القطار. تحطمت زجاجات الليمون إلى شظايا، بعدها تورات شهقات الصبي الصغير البائسة، فقد غطت عليها ضحكات التهكم الصاخبة، التي كانت تصدر عن ذلك الجندي الأجنبي المخمور.

بعد عام، وفي نهاية شهر يوليو 1961م، كنت في بنزرت (Bizerta) أثناء الأزمة التي حملت اسمها [1]، وكانت بنزرت في ذلك الوقت معسكراً فرنسيًّا، حيث لعبت دوراً مهمًّا في حرب الجزائر، وكانت تونس تطالب منذ استقلالها عام 1956م بتسلم هذه المدينة، ولكن بلا جدوى.

وعندما قامت قوات تونسية عام 1961م بمحاصرة المعسكر، قامت القوات الجوية الفرنسية بضرب المدينة بالقنابل، وبعد معارك طاحنة، أطلق فيها الجيش الفرنسي النار على متظاهرين تونسيين غير مسلحيين، تم إخلاء المدينة من جميع سكانها من المدنيين. وقد قُتل في هذه المواجهة حوالي 670 تونسيًّا، وأُصيب 1500.

لكي يتمكن المرء من زيارة مدينة بنزرت، فهو في حاجة إلى تصريح خاص من السلطات العسكرية الفرنسية، ولم يكن معي هذا التصريح؛

لذا فقد أرشدني بعض الأصدقاء التونسيين إلى طرق سرية. كنت أريد أن ألتقط بعض الصور لهذه المدينة المدمرة تدميراً هائلاً حتى أنها أصبحت بمثابة مدينة أشباح، ولكن للأسف سرعان ما ألقت الشرطة العسكرية الفرنسية القبض علي، ثم نقلوني بفظاظة على عربة جيب إلى المركز الرئيسي لقوات الاحتلال، وقد كان المسدس الذي دُست فوهته في ظهري يصيبني بمزيد من التوتر.

لم يُسمح لي بمغادرة المدينة إلا بعد استجواب قاس دام لساعات طوال، وقد حالفني الحظ كثيراً ذلك لأني كنت أثناء دراستي في باريس قد تعرفت إلى بعض أقارب قادة المدينة الفرنسيين، مما جعل الاستجواب الذي كانت به روح العداء ينحو منحى مختلفاً تماماً، وأعتقد أن الأمر ربما لم يكن ليمر بسلام، لولا معرفتي بهؤلاء الأقارب، ففي السجون الفرنسية قد يمضي المرء أزماناً طويلة إذا ارتكب تجاوزات فيما يخص قانون الحرب، وكذلك فإن سجون المستعمرات بعيدة كل البعد عن أن تكون أماكن للترفيه، وقد حالفني التوفيق في تهريب الصور التي التقطتها في تلك المدينة.

بعد أعوام كثيرة من هذا الحدث، وفي عام 1980م، كنت أسير بصفتي نائبًا في البرلمان الألماني مع بعض المقاومين الأفغان المتجهين من باكستان إلى أفغانستان عبر جبال الهندكوش، وكانت أفغانستان قد هاجمتها القوات الروسية قبل ذلك بنصف عام، وكنت أود أن أبني تصوراً عن وضع الناس هناك وعن انتفاضة المقاومين الأفغان.

اختاروا الموعد والمكان المناسبين للإعلان عن زيارتي هذه، فأعلنوا عنها في موسكو في إطار استقبال دبلوماسي، أقيم بمناسبة العيد العاشر لإبرام ميثاق الصداقة الألمانية-السوفييتية. وفي حضور الدبلوماسيين الألمان أُصيب ليونيد سمجاتين المتحدث باسم ليونيد برچينيف السكرتير العام السوفييتي السابق، بنوبة غضب، ثم صرخ، وقد غطت وجهه حمرة فاقعة، قائلاً:« لو تمكنوا مني، فإنهم سوف يجلدونني ويعدمونني رمياً بالرصاص».

على الرغم من ذلك عاودت زيارة هذا البلد المنهك مرتين في عام 1984م وعام 1989م[2]، ونجحت من خلال التقاريرالتي أعددتها مع جمعية تدعيم أفغانستان بجمع 10 ملايين يورو لتقديمها للاجئين الأفغان، ولا سيما أطفال اللاجئين، وبذلك تكون الرحلات قد آتت ثمارها.

نجحت عام 1989م في عقداجتماع لحكومة المنفى الأفغانية في قرية أورجون، وهي قرية صغيرة تقع على قمة في الجبال الواقعة على الجانب الأفغاني للهندكوش، ولكي نصل إلى القرية الصغيرة اضطررنا إلى ركوب عربات الجيب حيناً، ثم إلى ركوب الحمير أحياناً، وسرنا كذلك على الأقدام، كل ذلك حتى نستطيع أن نجتاز المنحدرات الضيقة وجداول الجبال الهادرة.

وقد ذكر لي الرئيس الأفغاني الحالي حامد كرزاي، عندما قمت بزيارته زيارة خاصة في عيد الميلاد المجيد عام 2003م، أنه ما يزال يذكر جيداً هذا الاجتماع الذي يُعد أول اجتماع وزاري لحكومة المنفى

على الأراضي الأفغانية، فقد كان في وقتها مساعد صبغة الله مجددي رئيس هذه الحكومة.

أما العراق فقد زرته ثلاث مرات قبل زيارتي الأخيرة له، حيث زرته مرتين قبل الحرب، وكان ذلك بصحبة طفليَّ فريدرك وناتاليا، ثم زرته بعد الحرب بعام واحد، ورافقني في هذه الزيارة صديقي بلال مجددي، وهو ابن شقيق أول رئيس لأفغانستان غير موالٍ للشيوعية، وقد حكيت عن رحلاتي هذه في كتابين لي تحت عنوان: «من يبكي على عبدول وتانيا؟» Wer weint um Abdul du Tanaya? و «إندي ومروة» Andy und Marwa؛ إذ كنت أشعر أنه بات من الواجب علي كتابة هذه الكتب، فلا يليق بنا أن نحتج على احتلال السوفيت لأفغانستان، ثم نسكت عن الغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق.

كذلك قمت في العامين الماضيين بزيارتين لإيران، ذلك البلد الذي أثير حوله جدل كثير، وآمل من كل قلبي ألا تضطرني الظروف لتأليف كتاب عن هذا البلد الرائع، وآمل كذلك ألا تكون النصرة هناك لا لصقور واشنطن ولا لمشعلي الفتنة في طهران. ولهذا السبب خصوصاً أود أن أتحدث عن انطباعات شخصية خرجت بها من زيارتي لهذه البلد.

كانت زيارتي الأولى لإيران في عامٍ 2005م في رفقة ابنتي الكبرى فاليري، التي كان عمرها آنذاك ثلاثاً وعشرين سنة، وكثيراً ما كان يتحدث إلينا الشباب الإيرانيون ويسألونا ضاحكين عن عدد الإرهابيين الذين التقينا بهم في يومنا الذي نحن فيه، ذلك لأن الشباب الإيراني، شديد النقد للحكومة الإيرانية والموالي للثقافة الغربية، يرى بأن الاتهامات الجماعية بالإرهاب والذي تنتهجه الإدارة الأمريكية، وتقسيمها العالم إلى أخيار وأشرار، هو بمثابة مشعل دائم للفتن.

وأكثر ما أعجبني في إيران هي مدينة أصفهان، التي كانت قديماً مقر الأسرة الحاكمة الفارسية، تلكم المدينة التي تضم بين جنباتها مساجد شامخة وقصوراً فاخرة وميادين واسعة ومحلات رائعة. وكان أعظم ما ملك عليّ فؤادي، هو ذلك الجسر الذي يُطلق عليه مسمى Si-o-se-Pol، وهو جسر مكون من 33 قوساً، أُقيم على نهر زياندي رود، وقد أخذت بلُبي كذلك تلك المناطق الخضراء الشاسعة، التي على ضفاف هذا النهر.

في أوقات العصر المشمسة، وفي أيام العطلات تدب على شاطئ نهر زياندي رود حركة كتلك التي تدب في حديقة سينترال بارك Central Park في نيويورك، فتجد آلاف الناس يجلسون في مجموعات وقد غمرتهم السعادة، يتجاذبون أطراف الحديث ويأكلون بعض الوجبات الصغيرة، وأحياناً تجد أيضاً عشاقاً، ولكن عشاق نهر زياندي رود يقلون عن عشاق مانهاتن في العدد ولا يمارسون العشق بتحرر كما يحدث في نيويورك، ومن الناس من يأتي للمكان ليغفو إغفاءة، ثم يعود من حيث أتى. وليس ببعيد من شاطئ النهر تلمح في ميدان ناكشيجاهان Naksch-e-Jahan العربات التي تجرها الخيل نفسها التي تراها في سنترال بارك.

كثيراً ما كان يأتي إلينا الإيرانيون، فيسألوننا عن البلد التي قدمنا منها، وكانوا يدعوننا إلى الجلوس معهم، وبعد ما لا يزيد عن عشرة دقائق، كانوا يدعوننا إلى العشاء معهم في اليوم التالي. حقًّا إنه مما يدعو للأسف أن قليلا من الأمريكان من يذهب إلى شاطئ نهر زياندي رود، وأن قليلاً من الإيرانيين من يذهب إلى سنترال بارك، وهذا الكلام

موجه من باب أولى إلى القيادات في البلدين.. هؤلاء الذين يتحدثون عن الآخر على نحو مفزع.

يتلاقى تحت الجسر ذي الثلاثة والثلاثين قوساً إيرانيون من محبي الموسيقى، فيستفيدوا من صدى الأصوات التي تنبعث من أقواس الجسر الحجري، الذي يرجع عمره إلى أربعة قرون، ويذهبوا إلى هناك لينشدوا أغانٍ إيرانية.

كنت أنا وابنتي ننصت مشدوهين إلى قصيدة كان يلقيها شابان إيرانيان في يوم رائع من أيام الربيع، ووددت في تلك اللحظة أن لو أغني معهم، فحذرتني ابنتي إن فعلت هذا فعليَّ أن أبحث لي عن رفيق غيرها في السفر، وقالت لي بأنه سوف يُلقى بي في النهر لو أني فعلت ذلك، فما كان مني إلا أن تخليت عن رغبتي في الغناء بقلب كسير.

وربما أن ذلك كان السبب في أني سافرت مرة أخرى إلى أصفهان بعد عام واحد، وكان ذلك في الأسبوع الأول من مباريات كأس العالم 2006م، وذات يوم، وفي وقت متأخر من العصر، عندما جاء بعض الإيرانيين إلى جسر الثلاثة والثلاثين قوساً، وأنشدوا قصيدتهم، عند ذلك تشجعت، ثم غنيت بالألمانية أغنية الفولجا Wolgalied من أوبرا زاروتش Zarewitsch، وفي نهاية إنشادي بالأغنية وجدت معظم المستمعين الإيرانيين يترنمون معي، ثم انخرط الجميع في تصفيق حاد تشجيعاً لي.

ربما أنني لم أكن في غاية التوفيق أثناء أدائي للأغنية، ولكني على الرغم من ذلك فلن أنسى ذاك اليوم أبداً، فمن له أن يتخيل أن ألمانيًا مُنح رُتبة عقيد شرفي أمريكي يغني بنشيد ألماني في مملكة الأشرار.

وكما كان الأمر عليه في الزيارة الأولى لي في إيران، فإن كرم الضيافة كان على أوجه في الزيارة الثانية، وشكلت مباريات كأس العالم المقامة في ألمانيا الموضوع رقم واحد في النقاشات، وقد تشاجرت مرشدتنا السياحية مع سائق التاكسي لساعات طويلة؛ ذلك لأن كل واحد منهما كان يريد أن يدعونا على مشاهدة مباراة إيران مع المكسيك في بيته، ثم حسمت المرشدة السياحية المعركة لصالحها قبل بداية المباراة بساعتين، دون الرجوع إلى السائق. وعندما سألتها هل تعامل زوجها في البيت على النهج نفسه الذي عاملت به السائق، أجابت ضاحكة بأن الأمر في إيران لا يختلف كثيراً عن البلاد الأخرى، فالأقوى هو الذي بيده الأمر في البيت، ففي بعض البيوت يكون الرجل هو الأقوى، وفي بعضها الآخر تكون المرأة. ثم أفصحت المرشدة بأنها لا تهتم بما يقوله الملالي في هذه المسألة، وأن هؤلاء ليس لديهم كثير مما يمكن أن يقولوه في مسائل البيت.

ولما نظرت إليها نظرة المتشكك، طأطأت رأسها، وجعلت تفكر في عمق، ثم قالت: خاصةً في الريف، حيث ما يزال وضع كثير من النساء متردياً، ولكن هذه ليست مشكلة الإسلام، وإنما نتيجة العادات القديمة التي كانت قائمة على سلطوية الرجل، وإنه مما يدعو للكآبة أن كثيراً من الساسة يخافون من مناقشة هذه القضية مَناقشة جادّة.

بعد ساعة من الزمن، عندما وصلنا منزلها، كان أول ما فعلته مرشدتنا السياحية هي أن خلعت الشادور، وهو عبارة عن المعطف الذي يجب على النساء قانوناً ارتداؤه في إيران، ثم خلعت أيضاً حجاب

رأسها، وقامت وهي مرتدية للسروال الجينز وقميص T-Shirt بإعداد وجبة صغيرة لنا. أما زوجها فقد سُمح له بعد أن شاهدنا المباراة الخاسرة بتنظيف المائدة، ولم أشك لحظة واحدة في أن مرشدتنا السياحية هي صاحبة الكلمة في بيت الزوجية.

أغلب الوقت الذي أقمناه في إيران لم نكن في رفقة مرشد سياحي، وعندما كنا نسأل سائقي السيارات الخاصة عن موقع الأماكن السياحية، كانوا يأخذوننا معهم في سياراتهم؛ بل وغالباً ما كانوا، رغم كل احتجاجنا، يدفعون لنا قيمة تذاكر الدخول التي لم تكن أحيانا رخيصة.

طيلة الزيارتين اللتين قمت بهما إلى إيران، لم أرتكب إلا مرة واحدة ما جرَّ علي غضباً كبيراً، فعندما قمت بالتقاط صورة لمبنى البرلمان الإيراني، رغم اللوحة المكتوب عليها «ممنوع التصوير»، استدعتني الشرطة وطلبت مني حذف الصورة من آلة التصوير، وقد باءت بالفشل كل محاولاتي في إقناع رجال الشرطة بالغباء المتناهي لمطلبهم هذا.

ولم تنفرج أسارير حماة الحمى إلا بعد أن أريتهم الصور، التي على آلة تصويري الرقمية، والتي التقطتها لمباراة افتتاحية كأس العالم، والتي كانت بين ألمانيا وكوستاريكا، فقد كنت حضرت هذه المبارة قبل ذلك بإسبوع، ثم نشأت بيننا بعد ذلك مناقشة شيقة، تكهنا فيها عن الفريق الذي يملك الفرص الأكبر في الفوز بكأس العالم. بعد هذه المناقشة سُمح لي بالاحتفاظ بصورة مبنى البرلمان الإيراني.

قبيل عودتي إلى ألمانيا، رأينا في زحام صالة سفر مطار طهران سيدة تحمل طفلاً على ذراعها، يلف على رأسه علماً صغيراً للولايات المتحدة الأمريكية، ومن دهشتي بهذا المنظر جعلت أفرك عيني، فيا للعجب أن ترى في «مملكة الشر»، تلك التي هددها الرئيس الأمريكي في مناسبات متفرقة بخيار الضربة الوقائية دون أدنى اعتبار لتقارير جهاز المخابرات الأمريكية التي ترى عدم ضرورة ذلك، ترى في هذه المملكة شابة إيرانية تزين رأس ابنها ذي العامين بنجوم وأشرطة العلم الأمريكي.

مندهشاً ذهبت إلى هذه السيدة، وسألتها ألا تخاف من المخابرات الإيرانية أو من حراس الثورة؟ هزت رأسها مبتسمة، ثم أجابت بسخرية بأن حجاب الرأس ممنوع فقط في أوروبا. استجمعت أفكاري وسألتها عن رأيها في سياسة أمريكا تجاه إيران. عاودت السيدة الشابة ضحكاتها، ثم أجابت بأن أمريكا بلد عظيم وبأن النزاع بين أمريكا وإيران نزاع سياسي، وبأن السياسة لا تهمها.

سمحت لي السيدة بالتقاط بعض الصور، ثم حيتنا وأخذت طريقها بين الناس تحمل رضيعها صاحب النجوم والأشرطة؛ فقد كنا نحن الوحيدين اللذين لفت انتباههما غطاء رأس طفلها.

أما إسرائيل، فقد زرتها ثلاث مرات، فكنت في تل أبيب وفي القدس وقضيت مفزوعاً عدة ساعات في نصب ضحايا النازية في ياد فاشيم. وفي حديقة جيثسيماني Gethsemane، التي كان يفتحها لي رفائيل القس الإسباني في عصر كل يوم، فيها كنت أقرأ العهد القديم تحت ظلال أشجار الزيتون، وهناك كتبت أيضاً بعض أجزاء هذا الكتاب.

وهناك على جبل الزيتون توجد مقبرة اليهود، وبجوارها مباشرة ووسط أشجار الزيتون، توجد كنيسة دومينوس فليفيت Dominus flevit الصغيرة. هنا يُروى أن عيسى بكى من أجل الغروب الوشيك لشمس أورشليم؛ وكذلك فإني أمضيت بعض الساعات في هذه الحديقة، ودائماً عندما كنت أنظر إلى الأسفل تجاه المقابر القديمة الواقعة في سفح جبل الزيتون، كنت أتذكر الكلمات الحزينة التي نطق بها الملك سليمان، حيث قال: «**باطل الأباطيل القول أن الكل باطل، وأن لا فائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس**» سفر الجامعة (المعروف بالعبرية بكوهيليت) الإصحاح الأول، آيتا 2 و3. كنت دائماً أعاود قراءة هذه الجمل تحت شجرة الزيتون، وكنت أتذكر كيف كنتُ قليل الاهتمام بهذه الأمور طيلة حياتي.

لقد استأثرت مدينة القدس بقلبي، تلكم المدينة التي هي حاضرة اليهودية والمسيحية والإسلام، وأنا دائماً مولع بأن أزور هذه المدينة الساحرة مراراً وتكراراً، فهي تفوق كل المدن التي رأيتها في حياتي.

زرت أيضاً المناطق الفلسطينية، فكنت في بيت لحم وفي نابلس وزرت قبر إبراهيم في الخليل مرتين، أما مدينة غزة فهي المدينة الوحيدة التي لم أقدر على الوصول إليها، فدائماً كنت أقابل على مشارف غزة جنوداً إسرائيليين، هم حقًّا ودودون، ولكن في الوقت نفسه حاسمون؛ فكانوا يصوبون مسدساتهم ناحية وجهي، ثم يقولون لي بأنه لا يوجد في غزة شيء يمكنني البحث عنه، وكنت من قبل ذلك أعتقد أن غزة مدينة خاصة بفلسطين.

وكذلك في إسرائيل وفي المناطق الفلسطينية المحتلة، تعرفت إلى أناس عظماء، سواء من الإسرائيليين الظرفاء الجديرين بالحب أو من الفلسطينيين الودودين الخدومين. أمضيتُ أمسيات رائعة مع كلا الفريقين؛ فالمشكلة الفلسطينية الإسرائيلية هي مشكلة الساسة ومحركيها أكثر منها مشكلة بين شعبين، فدائما عندما تلوح الحلول في الأفق القريب، تجد المتطرفين من الجانبين يفسدونها قبل أن تتحقق.

نظراً لوظيفتي السابقة، فقد كنت أعمل خبيراً في الرقابة على التسلح وسياسيًّا في شئون التنمية، كنت أسافر كثيراً، وحتى بعد تفرغي من العمل السياسي كنت أستغل أية أجازة دورية أو أية أجازة نهاية الأسبوع في القيام بسفريات بعيدة، فقد كنت دائما متشوقاً للتعرف على بلاد جديدة، فقد كنت أفضل ذلك على الجلوس على شواطئ المصايف أعرض جسدي لأشعة الشمس الحارقة. تعلمتُ الكثير في هذه الرحلات، ودائماً ما كنت أصحح لنفسي أحكاماً مسبقة، على الرغم من أنني كنت أعتقد قديماً بأن الأحكام المسبقة موجودة عند الآخرين فقط.

تساوى سحر البلاد التي زرتها مع ذلك السحر الذي أجده في صفحات الكتاب المقدس الألف والثمانمائة والمطبوعة في القَطع الصغير، وذلك الذي أجده أيضاً في صفحات القرآن الخمسمائة والعشرين. قد يعجب القارئ من كلامي هذا، ولكني أجزم بأنني ما قرأت كتاباً أشوق ولا أقوى أسلوباً من العهد القديم، ولا تصفحت كتاباً مليئاً بالحب أكثر من العهد الحديث، ولا اطلعت على كتاب مصطبغ بصبغة العدالة أكثر من القرآن، ذلك الكتاب المعجز في لغته الأصلية، حتى أن درجة الإعجاز هذه تشع في الترجمات المنقولة عنه.

إني أناشد بقراءة هذه الكتب التي هي بمثابة روائع الأدب العالمي، أناشد كل واحد بقراءتها، ولا سيما الساسة الذين دائماً ما يتحدثون عنها، رغم أنه يبدو أنهم لم يقرأوها. فمن يقرأ هذه الكتب الأخاذة والقوية، يدرك لماذا أثرت على الدنيا تأثيراً قويًّا، ولماذا ما زالت تفعل ذلك دائماً.

نعم.. إنني أحب العالم العربي، ولكني على الرغم من ذلك أحب السفر إلى بلاد أخرى، لذا سافرت كثيراً إلى أمريكا اللاتينية، إلى كوبا وإلى شيلي، وأقمت في موزمبيق وفي أنجولا أثناء حروب التحرير، وسافرت عديداً من المرات إلى آسيا، فزرت مؤخراً بلاداً مثل لاوس وكامبوديا وڤيتنام.

في سايجون Saigon، والتي يُطلق عليها الآن اسم مدينة «هو شي منه»، احتفلت أنا وصديق ڤيتنامي شاب في أكتوبر تشرين الأول 2005 بفوز ڤيتنام 1-صفر على اليابان في بطولة بكرة القدم، فبعد انطلاق صفارة الختام انطلق الآلاف بدرجاتهم البخارية في دونج دوك تانج بوليڤارد Duong-Duc-Thang-Boulevard، وراحوا يهللون ملوحين بأعلام صغيرة حمراء.

حتى أنا أعطوني علماً وركبت مع ثلاثة على دراجة بخارية، وجعلنا نغني: «نحن الأبطال»، ولم أكن قط أحلم في يوم من الأيام بأني سأسير في شارع دونج دوك تانج بوليڤارد حاملاً راية حمراء.

وكثيراً ما زرت أيضاً الاتحاد السوفييتي، وفيما بعد روسيا، وفي بعض الأحيان كنت في زيارت رسمية. وهناك أيضاً تعرفت –حتى في صفوف قادة الشيوعية وقادة الجيش والألوية – إلى أناس أثروا في كثيراً، على الرغم من أنني كنت– وما أزال– عدواً لدوداً للشيوعية السوفييتية؛ ذلك لأنه ليس من الهين – كما يعتقد الكثيرون وكما كنت نفسي أعتقد – تقسيم العالم إلى أبيض وأسود؛ أي إلى أخيار وأشرار.

وأكثر زياراتي كانت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأكثر أصدقائي من هناك، وقد زرت البنتاجون والبيت الأبيض والكونجرس مرات عديدة، وتعرفت إلى كثير من القيادات السياسية التي ما زالت فاعلة إلى الآن، ودرس اثنان من أبنائي في أمريكا، وأنا نفسي آسف على أنه لم تتح لي فرصة الدراسة هناك، فأمريكا كانت وما تزال بلداً عظيمة.

كانت بعض رحلاتي متعبة للغاية، فقد نقص وزني خمسة عشر كيلوجرامًا أثناء المشي الطويل في مناطق الهندكوش وفي جبال أفغانستان الوعرة، ولم يكن المشي عملًا بطوليًّا على الإطلاق، فقد كانت المشكلة في البراغيث والناموس التي لدغتني في كل جزء من جسمي، حتى أن منظري أصبح شنيعاً، و المرء لا يرى بطولة مثل هذه الرحلات إلا فيما بعد، عندما يجلس مرفهاً أمام المدفأة، ليحكي عنها.

غالباً ما كان يسألني الناس عن السبب الذي يدفعني إلى القيام بمثل هذه الرحلات المضنية. أنا نفسي لا أعرف إجابة عن هذا السؤال، وربما أن أحد هذه الأسباب يكمن في أنه تتملكني طبيعة استخباراتية تدفعني إلى حيث أتعرف على الحقيقة، تلكم الحقيقة التي تتوارى خلف

التصريحات والأحاديث الرنانة، التي تخرج من أفواه أصحاب السلطة، أو التي ترد في الأخبار الموجهة للجماهير، فالحقيقة لا يمكن إدراكها إلا في موقع الأحداث، وليس من خلال الجلوس أمام التلفاز.

في تلكم الليالي من عام 1945م التي كانت تتساقط فيها القنابل على بلدة هاناو Hanauالألمانية، والتي عايشتها وأنا في الرابعة من عمري في منطقة برج آليه Burgalle الكائنة في ضواحي بلدة هاناو، كنت دائما أتسلل لواذاً إلى خارج المنزل على رغم إرادة أمي، فقد كنت أريد أن أشاهد حالة المدينة بأمّ عينيَّ، وكنت أريد جمع شظايا القنابل والمدافع، والتي كانت أحياناً ما يزال بها الحرارة المتولدة عن عملية القذف. وعلى الرغم مما كنت ألاقيه من أمي، التي كانت توجعني ضرباً على مؤخرتي بسبب هذه التنقيبات الليلية؛ إلا أنني كنت فخوراً بالصندوق الذي ملأته بنفسي بهذه الشظايا.

علاوة على ذلك، فمنذ طفولتي وأنا لا أولي أي تقدير للسلطة ولا لأصحابها. وقد حكي لي أبي أنه في عام 1946م دق جيراننا جرس الباب علينا، وذكروا وهم في منتهى التوتر بأن ثمة شيئًا مفزعًا يحدث في منطقة برج آليه Burgalle، فما كان من والداي إلا أن هرولا في فزع شديد، آخذين طريقهما إلى الشارع عبر حديقة منزلنا الصغيرة.

هناك رأيا طابوراً طويلاً من الدبابات، التي كانت تسير محدثة ضجيجاً عالياً آخذة طريقها إلى خارج المدينة، وكانت الدبابات تثير أتربة كثيفة أمام منزلنا مباشرة، حيث كانت تسير على ممر غير ممهد، ولم تعد الدبابات إلى سيرها على الطريق الرئيسي إلا بعد مرور ما

يقرب من عشر دقائق، فقد كان هناك عائق ما لا يمكن تخطيه، كان موجوداً على الطريق، أرغم الدبابات على القيام بهذه المناورة العجيبة.

اكتشف والداي مذهولين بأني أنا الذي كنت هذا العائق الذي لم تتمكن الدبابات من تخطيه. فلأن الدبابات كانت قد حرمتني وحرمت أصحابي من اللعب؛ لذا جالت في خاطري فكرة أن أضطجع على قارعة الطريق على نحو يعيق السير فيه، وفعلا تمددت راقداً على ظهري أراقب في سعادة تامة كيف أن قيامي بهذا الفعل أرغم هذه الآلات الحربية العملاقة على تحويل خط سيرها إلى الممر.

بهت وجها والداي بسبب فعلتي هذه، ثم قاما بسحبي إلى داخل المنزل، وأجبراني على أن أقسم لهما بكل قسم غليظ على ألا أعود لذلك أبداً، ولم أوجع ضرباً على مؤخرتي هذه المرة، فلم يكن والداي قادرين على ذلك، بسبب ما أصابهما من فزع شديد بسبب عظم فعلتي هذه.

سار معي طيلة حياتي هذا التقدير المفقود تجاه السلطة جنباً إلى جنب مع الإيمان الطفولي بالعدالة، وتلك الحاجة الساذجة للتعرف الدائم على الحقيقة؛ حتى وإن تطلب التعرف عليها الذهاب إلى مناطق الحروب.

وما زلت أؤمن بأن حسب المرء أن يتبع ضميره اتباعاً غير مشروط، ودعه من أصحاب السلطة، وعلى الإنسان أن يعمل من أجل الإنسانية ومن أجل العدالة في كل مكان، حتى وإن كان ذلك لا يتفق مع روح العصر. حقًّا لقد سبب لي ذلك الاعتقاد صعوبات كثيرة في حياتي، إلا أنه في النهاية كان سبباً في تقديم العون لي وللآخرين.

يُظهر بعض ساسة عصرنا الميل إلى معرفة الحقيقة؛ ولكنهم في نهاية الأمر لا يمسّونها إلا مسًّا محدوداً، أما ميلهم للعدالة فمعدوم تماماً؛ فالساسة لا يعرفون إلا القليل عن واقع البلدان التي يتخذون القرارات بصددها أو يشنون الحرب ضدها، أو تلك التي يخططون شن الحرب عليها، فأحياناً تعني زيادة السلطة نمو الجهل نمواً خطراً.

كثيراً ما كنت أُصاب بالذهول عندما أقرأ الأحاديث التي يدلي بها كبار الساسة الأمريكان والأوروبيين فيما يختص بعالم المسلمين؛ فكنت أحدث نفسي بأنه لا يمكن أن يُصدق بأن أناساً في هذه المكانة المرموقة يعملون، من خلال أحاديثهم، علىَ نشر مثل هذا الهراء عن البلدان الأخرى.

وكنت أخجل كثيراً بسبب ما أسمعه أو أقرأه من كلمات الساسة الألمان أو الإنجليز أو الأمريكان حيال أفغانستان وإيران وسوريا والعراق؛ بل وأيضاً تجاه إسرائيل، لا سيما عندما كنت عائداً لتوي من إحدى هذه البلدان. وغالباً ما كنت أتذكر كلمات البابا يوليوس الثالث والمستشار السويدي أكسينستييرنا Oxenstriena؛ والتي كادت أن تتطابق تطابقاً حرفيًّا، فقد قالا بأن جميعنا سوف نُصاب بالدهشة، لو علمنا مقدار السخافة التي يُحكم بها العالم.[3]

ويزداد الطين بلة بهذا التجاوز البالغ الذي تكون عليه بعض أجهزة إعلام الغرب الرسمية، عندما تنشر خرافات مفزعة حول الآخر، ودائماً ما يحدث ذلك قبيل القيام بتدخل عسكري، حتى تضمن الحكومات تأييد شعوبها والرأي العام للضربات العسكرية الوشيكة. و لا يُمارس

هذا الكذب البغيض في دول الأوغاد فحسب[4]؛ بل نجده كذلك في دول الحريات في الغرب؛ فالحقيقة هي أكثر بضائع السياسة ندرة. وما حدث من تضليل للرأي العام العالمي قبل حرب العراق، وكذلك المحاولة المتهورة من أجل إعادة الكرة في النزاع مع إيران، يُعتبرا بمثابة مثالين من أمثلة كثيرة على ذلك. ومما يدعو إلى الحزن أن الرأي العام ينساق وراء هذا الخداع الطفولي، الذي يمارسه دعاة الحرب.

إن معلومات العالم الإسلامي عنّا أكثر بكثير من معلوماتنا عنهم، ففي أكثر البيوت فقراً في العراق أو إيران توجد أجهزة تلفاز، يجلس أمامها الناس لساعات طوال، لا ليشاهدوا النشرات الرياضية والتمثيليات فحسب، وإنما ليشاهدوا أيضاً نشرات الأخبار التي غالباً ما تتناول موضوعات لها علاقة بالغرب.

وقد عمل تفوق عالم الشبكة الدولية (الإنترنت) على تعميق معرفة كثير من المسلمين بالغرب بشكل أوسع، فكنت أتعجب كثيراً أثناء رحلاتي، عندما كنت أتثبت من معلومات بعض المسلمين – خصوصاً من الطبقة المتوسطة – عن سياسة الغرب الخارجية، وكيف أنهم يتعجبون دائماً من تلك الحماقات التي تُرتكب في الغرب تجاه بلادهم، وقد قابلت كثيرين من هؤلاء في رحلتي الأخيرة إلى العراق.

كان عليّ كذلك أن أتوقع بأن قيامي ببعض الرحلات سيكون فيه نوع من المخاطرة، ولكن قناعتي بالمسؤلية تجاه أسرتي وتجاه من أحبهم، جعلني أتغلب على هذه المخاطرة.. علاوة على ذلك، فإنني كمسيحي مؤمن أشعر بثقة في الله لا تتزعزع، فأعتقد أن ليس طول العمر، وإنما المضمون هو الذي يحدد قيمة الحياة.

تعد رحلتي الأخيرة إلى العراق بجانب رحلاتي إلى أفغانستان من أصعب الرحلات التي قمت بها. ولقد ساعدني للإعداد لهذه الرحلة كثيرون، ولا سيما دبلوماسي عراقي سابق ومنسق سابق بالأمم المتحدة، وهم الذين أقاموا العلاقة بيني وبين المقاومة العراقية.

وقد رجوت الذين كنت أتحاور معهم؛ من أجل مساعدتي في الاجتماع مع أكبر عدد من ممثلي جماعات المقاومة، فكنت أود أن أصل من خلال ذلك إلى تكوين رؤية عامة كافية عن المقاومة.[5] وكنا قد قمنا بترتيب تفاصيل الرحلة في القاهرة وعمان ودمشق في مايو /مايس من عام 2007م.

كنت على يقين بأن هذه الرحلة ستكون شديدة الخطورة، فمثلاً أوضح لي أحد ممثلي القاعدة الذي تقابلت معه في مايو /مايس2007م في الأردن، والذي لم أكن أعرف قبل بداية الحديث معه أنه من القاعدة، أوضح لي بصراحة بأنه من المتوقع أن الناس سوف يعاملوني معاملة العدو، ذلك لأن ألمانيا تشارك في الحرب ضد أفغانستان.

كنت أطمح من خلال رحلتي هذه أن أتعرف على حال العراق في هذه الأيام، فأردت أن أعرف هل أن العراقيين المسالمين الودودين ممن تعرفت عليهم في رحلاتي السابقة قد استحالوا فعلاً إلى إرهابيين متعصبين ومتعطشين للدماء، وأردت أن أعرف كذلك هل أن الغرب يناضل حقًّا في بلاد ما بين النهرين من أجل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، كما يدعي بعض زعماء الغرب.

لهذا فقد تعمدت ألا أزور قرية من تلك القرى التي أعدّها البنتاجون سلفًا في جميع أنحاء العراق لمخادعة الصحفيين، الذين يُذهب بهم إلى هذه القرى تحت حماية الفرق المسلحة بالأسلحة الثقيلة، لمخادعتهم بصور السلام والاستتباب الوهمية. فقد ضقت ذرعاً بهذه الأساليب، التي أعرفها من رحلاتي التي قمت بها إلى الجزائر وموزمبيق، فهذه الأساليب تُعتبر بمثابة استراتيجيات الخداع المعهودة لدى كل المحتلين في العالم.

تعلمت كثيراً خلال الرحلات التي قمت بها، وكان حنقي يزداد دائماً تجاه الحروب العدوانية، وتجاه أولئك الذي يتخذون القرارت بشنها، وكذلك تجاه الإرهابيين الذين يقتلون الأبرياء. ونما حنقي أيضاً تجاه أجهزة الدولة الدعائية في الولايات المتحدة الأمريكية؛ فهي تمدنا بصورة عن العراق ليس لها أية علاقة بالواقع.

ولا عجب من ذلك، فلأن معظم الصحفيين لا يتحركون في العراق إلا في صحبة القوات الأمريكية؛ لذا فهم لا يرون إلا ما ينبغي أن يرونه من وجهة نظر البنتاجون، وما يرونه غالباً ما يكون بعيداً عن الحقيقة.

لذلك فإني أنظر إلى كتابي هذا على اعتباره الوجه الآخر للعملة، فهو يرينا كيف يختلف حديث العراقيين عن الحرب عندما لا يقف بالقرب منهم جنود مسلحون، وعندما لا يسبق إدلاؤهم بهذه الأحاديث تحليق للطائرات الهيلوكوبتر، أو مرور الجنود ليخلوا الساحة ويؤمنّوها من أجل دخول الساسة أو المواكب الصحفية. فكتابي هذا يطمح إلى التعريف بما يجري خلف الكواليس في العراق. وأدرك تماماً أن كتابي

هذا يحتوي على معلومات، تتناقض مع ما يتم عرضه في أجهزة الإعلام الغربية منذ ما يقرب من خمس سنوات، والتي نادراً ما تهتم برؤية المسلم للعالم.

لذا فإن كتابي يمنح فرصة لهؤلاء الذين لم يسمح ضباط إعلام البنتاجون لوفودهم بالحديث، أعني بهم أعضاء المقاومة العراقية. ويحاول الكتاب الإجابة عن السؤال التالي: لماذا أن هذه المقاومة لا تقاتل فقط قوات الاحتلال الأمريكية، وإنما تقاتل أيضاً إرهابي القاعدة والمليشيات الخاصة ببعض الساسة العراقيين، والتي تدعمها جهات خارجية. كما يوضّح الكتاب الفروق الجوهرية بين المقاومين وبين الإرهابيين.

وقد قمت بتغيير أسماء وعناوين كل من أجريت حوارات معهم؛ حتى أطمئن إلى أنه لن يتعرف عليهم أحد. نعم، إنني أقول ذلك بصراحة، فعليّ أن أحول دون أن يتعرض أحد لهؤلاء الناس بسوء، أولئك الذين منحوني ثقتهم، فيكفيهم أنهم أقدموا على مخاطرة كبيرة من خلال صراحتهم التي كانوا عليها.

ربما ينتقد البعض لقاءاتي واتصالي بالمقاومين العراقيين، هذا جيد ، وأنا تعودت على هذا النقد. وهؤلاء النقاد أعرفهم منذ رحلاتي التي قمت بها إلى الجزائر إبان احتلال فرنسا لها، وتلك التي قمت بها إلى أفغانستان إبان احتلال الاتحاد السوفييتي لها. ولكن هناك حقيقة أود التنويه لها، إنني لست معادياً للأمريكان، كما أنني لم أكن يوماً ما معادياً للفرنسيين أو للروس.

فقط أحاول أن أسمح لهؤلاء الذين يناضلون من أجل الحق والحرية أن يقولوا كلمتهم. هؤلاء الذين أنعتهم بما نعتهم به قديماً فرانز فانون Frantz Fanon مؤرخ حركات التحرير المناهضة للاستعمار، فقد نعتهم بـ«المعذبين في الأرض». حقًّا إن المعذبين في الأرض ليسوا هم قوات الاحتلال، وإنما المقاومون في الجزائر إبّان الستينات، وفي أفغانستان إبان الثمانينيات، وفي العراق عام 2007م.

وأعلم بأننا في الغرب نضع المقاومين الذين يناضلون على نحو مشروع ضد القوات المحتلة مع الإرهابيين الذين يقتلون المدنيين في إناء واحد، وهذا ليس له إلا دلالة واحدة، هي أن معلوماتنا عن العراق ضحلة جدًّا.

والقضية ليست قضية العراق وحده؛ فحرب العراق ما هي إلا فصل من فصول سياسة الهجوم التي تنتهجها أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، والتي لم تنته منذ قرون تجاه العالم الإسلامي، وسوف أتعرض لهذه القصة التي لا تريد أن تنتهي، وذلك في خاتمة الكتاب.

لقد قمت ببحث مضنٍ من أجل تجميع صور هذا الكتاب، فمكثت جالساً أجازات الأسبوع كاملة أمام جهاز الكمبيوتر، أبحث في أرشيفات أكبر وكالات الصور. وفي خضم البحث لم أجد صورة واحدة تحت موضوع الاستعمار؛ فالغرب قد أسدل ستاراً من الصمت على هذا الفصل المظلم من سياسته الخارجية.

لهذا السبب اضطررت السفر إلى الجزائر في أعياد الفصح لعام 2007م، لأنقب تحت قباب المتاحف في المجلات القديمة المتربة،

ووجدت هناك صوراً مفزعة تجسد الارهاب الاستعماري. وحدث أن تلاقيت هناك وجهاً لوجه مع الإرهاب المعاصر؛ ففي أثناء الأسبوع الذي أقمته في الجزائر قامت القاعدة بهجوم انتحاري بربري في العاصمة الجزائرية على بعد مئات قليلة من الأمتار من محل إقامتي، وطبقاً للتصريحات الرسمية، فقد لقي 24 شخصاً حتفهم جراء هذا الهجوم، وأُصيب 222 بإصابات خطيرة.[6]

كتبتُ أهم فقرات هذا الكتاب في مدينة الرمادي وفي القدس وفي نيويورك، فقد كنت أريد أن تؤثر عليَّ روح الأماكن أثناء الكتابة؛ أما التلخيص والانتهاء من العمل فقد تم في واحة سكورا Skoura ، وهي واحة صغيرة في جنوب المغرب؛ فما من مكان يعلو على الصحراء في تقريب الإنسان من الحقيقة.

علاوة على ذلك كنت بعد الانتهاء من هوايتي المفضلة يوم السبت، وهي لعب كرة القدم في الحديقة الإنجليزية بمدينة ميونيخ، أقوم في كثير من عطلات الأسبوع بمراجعة إذا كان ما كتبته في العراق والقدس ونيويورك وسكورا يصلح للقارئ الغربي أم لا، وقررت أن أحاول الوصول إلى ذلك.

وأود أن أقوم من خلال ريع هذا الكتاب بمساعدة الأطفال اللاجئين العراقيين الذين أُصيبوا في الحرب، وأود كذلك تمويل مشروع يهدف إلى المصالحة بين الإسرائيليين والفلسطينيين. فأرى أن في ذلك مفتاح المصالحة بين المسلمين والمسيحيين واليهود في أنحاء العالم، وأؤمن إيماناً راسخاً بأن هذه المصالحة ستتحقق يوماً ما، ورسوخ

إيماني بهذه المسألة كرسوخ الإيمان، الذي كنت عليه أنا وقليلون من نواب البرلمان الألماني في السبعينيات والثمانينيات ؛ إذ كنت أؤمن إيماناً راسخاً بإعادة توحيد ألمانيا على الرغم أن ذلك لم يكن مطابقاً لروح العصر آنذاك.

سوف تتحقق المصالحة بين المسلمين وغير المسلمين؛ لأنه لا مناص من أن تتحقق. وأرجو أن أقدم من خلال كتابي هذا إسهاماً على هذا الطريق، تلبيةً لمصلحة أبنائي وأبنائكم، فليس أمامنا إلا حلًّا من بين اثنين: إما أن ننجو معاً، أو أن نهلك جميعاً.

يختم أبو شادي حكايته بأن يقول: وهنا يا سادتي أودعنا الكلام، ثم يقوم بعد ذلك بطرق سيفه على المنضدة السوداء ؛ فاستيقظت من نومي، فقد انتهت قصة العبد عنترة بن شداد، وبدأت قصة زيد، ذلك الشاب العراقي.

مدخل

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾

سورة المائدة، آية 32.



الفصل الأول

الرحلة إلى الرمادي

مخاوف زيد

مدينة الرمادي في أغسطس 2007، تحدث إليّ زيد في هذا الوقت قائلاً: «لن أحكي لك حكايتي، وإلا فسوف انتقل حالاً إلى سجن غوانتانامو وتُحمل أسرتي إلى سجن أبوغريب»! وبينما تميل الشمس فوق مدينة الرمادي إلى الغروب، يجلس أمامي الآن زيد، وهو أحد مقاتلي المقاومة العراقية والبالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً، وهو شاب طويل القامة، ذو سمت جميل وشارب مهذب وشعر أسود كثيف، تتحرك عيناه المتيقظة تألقاً تحركاً دائباً ومستمرًّا، وقد لا يفتن منظره الجذاب كثيراً من الفتيات العراقيات فحسب بل وأمهاتهن أيضًا. ورغم هذا المنظر، إلا أن زيداً كأغلب الشباب العراقي الذين هم في مثل عمره، لم تكن له صديقة . ولربّما كانت صداقة الفتى للفتاة في عهد صدام حسين ممكنة ، ولكن بعد سقوطه أصبحت الأعراف الاجتماعية أكثر تشددًا. فمن دولة علمانية سائدة في عهده، نشأت وتكونت دولة أحيا الناس فيها من جديد عادات وتقاليد قديمة وجعلوها من أولوياتهم، من جراء خوفهم ورعبهم من القاعدة وفرق الموت التابعة للمتطرفين من ساسة الشيعة.

وقد اكفهرت نظرات زيد، عندما طلبتُ منه أن يحكي لي بعضاً من وقائع حياته، وبصفة خاصة عن واقع عمله كفرد من أفراد المقاومة العراقية، بل وإن أمكن أن يُدعِّم حكاياته بالصور، هنا نظر إليّ زيد مستنكراً، بل ومجهداً وحزيناً، فشعرت في الحال بأن حياته تدور وكأنها معروضة أمام عينه عرضاً كاملاً، ثم فرك زيدٌ عينيه بيده اليسرى، وهزَّ

رأسه قائلاً: «إذا فلزاماً أن أشتري لنفسي الآن ملابس سجين، فنحن جميعاً بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية إرهابيون، فهم لا يفرقون بين الإرهابيين الذين يقتلون المدنيين، و المقاومين الحقيقيين الذين يجاهدون من أجل تحرير وطنهم؛ لذلك فهم لا يفهمون معنى الأحزان ولا معنى الأحلام، وعليه فلا نساوي بالنسبة لهم جناح بعوضة، أكتب لهم بأننى أجاهد في صفوف المقاومة، وأننى فقدت كثيراً من أفراد أسرتي، أمَّا أن أَمُدّكَ وأوزودك بتفاصيل الأمور وبالصور، فلا حيلة لي بذلك، أم تريد أن تذهب بي إلى معتقل غوانتانامو؟ وهنا وقف زيد، فلم تعرف لغته ولا لسان حاله، إلا كلمة «لا». وحاولت أن أشرح له بأني أيضًا عرّضت نفسي للمخاطر في هذه الزيارة من أجل نقل الحقيقة، لكن زيداً لم يبدِ لهذا الأمر اهتماماً، وأجاب مستنكراً وهو يتجه إلى مخرج الحديقة الصغير الذي كنا نجلس فيه: يمكننا أن نتبادل المصالح بكل سرور، واستدار مرة أخرى أمام البوابة، وتمتم قائلاً: «سوف أفكر في هذا الأمر مساء اليوم مليًّا، وعليك أنت كذلك أن تفكر في مساعدة أفراد أسرتي لو أصابها مكروه بسبب كتابك هذا.»، ثم بعد ذلك اختفى في غسق ليل خيم على مدينة الرمادي.

السير صوب الحدود

وقبل هذا اللقاء مع زيد، وبالتحديد في الليلة السابقة له، دق جرس المنبه في تمام الساعة الثانية فجرًا داخل غرفتي في الفندق بدمشق، فحاولت وأنا في سكرات النوم أن أخرس هذا الصوت، لكنني تحسسته فلم أجده، وفي هذا الأثناء بدأت دقات المنبه الثاني تبعث

بأصواتها الرنانة، حيث قمت من باب الحذر والحيطة بوضعه بعيداً عن السرير الذي أرقد عليه، فاستسلمت لصوته، وأدركت أن عليّ النهوض من النوم، حيث أردت أن أشق طريقي وأسير في تمام الساعة الثالثة فجرًا صوب الحدود العراقية. وقيامي من النوم في تمام الساعة الثانية فجرًا يعد شئياً مفزعاً ومقلقاً لرجل مثلي نؤوم الضحى، ولو أنني في مثل هذا الموقف داخل بيتي بألمانيا، لتقلبت على مضجعي مستمتعاً وواصلت نومي، ثم انتقلت بعد ذلك إلى العمل في زهاء التاسعة صباحاً، لكنني كنت مدركاً هذه المرة لحتمية سيري إلى العراق مرة أخرى، وفي هذه المرة لا أريد السير كصحفي «مطوق» في حماية قوات الاحتلال الأمريكية، فلا أريد أن أرى هذا البلد بعين المحتل ومنظاره، كما لا أود كذلك أن أراه من منظور صحفي يحتمي في المنطقة الخضراء الآمنة داخل بغداد، وإنما أردت رؤيته هذه المرة بعين ووجهة نظر الضحية والمقاوم.

بعد أن احتسيت إبريقاً من القهوة، جلست بعد ساعة تقريباً في تاكسي قديم ذي لون أصفر، كان سائقه السوري – الذي بدا كسير القلب مثلي تماماً – لا يتحدث الإنجليزية ، لكن على الرغم من ذلك حاولت أن أبين له أن مقصدي وبغيتي معبر الحدود السوري-العراقي المعروف باسم «التنف»، هنا استدار السائق مندهشاً وكرر سائلاً: التنف؟، فحرك على الفور حافة راحته نحو رقبته، مبيناً لي أن من يذهب إلى هذا المكان قد تُقطع رقبته، فأجبت، قائلاً: «نعم»، إلى التنف، هيا انطلق بنا.» ، فانطلق السائق وهو يهز رأسه متعجباً، فالساعة الآن أوشكت أن تقارب الثالثة صباحاً، ومن المدهش حقًّا أن حركة المرور بدمشق بدت مكتظة حتى في ساعات الصباح الأولى، حيث بدأ الباعة الجائلون في هذه

اللحظة في افتراش بضائعهم على الطرقات التي يسير عليها الناس، بينما تفتح محلات الجزارة أبوابها، بعد قيامها بعملية الذبح مباشرة، ومررنا أثناء سيرنا بالتاكسي على كنيسة تضيئ صلبانها جميع أرباع الحي إضاءة صافية، ثم اتجه بنا التاكسي بعد ذلك صوب الجنوب الشرقي بمحازاة سور مدينة دمشق البديع الضارب في القدم، وهنا فتحت هاتفي المحمول ونزعت منه الشريحة، والحذر واجب، فجهاز المحمول في العصر الحالي يشي بمكانك أينما كنت؛ إذ لا يجب لأحد أن يعرف مكاني أثناء تواجدي في العراق، ثم وصلنا تقريباً بعد عشرة كيلو مترات سفر إلى مسجد السيدة زينب الذي زُينت مآذنه ببلاط لونه أخضر زيتوني، ويتواجد بجوار هذه المآذن مبنى قبيح المنظر وقديم، كان علينا أن نتقدم في هذا المبنى بطلب للحصول على تصريح سفر للرحلة، ويُلاحظ هنا أن السوريين يفعلون كل ما في وسعهم لإعاقة السفر والدخول إلى العراق، فيبدو أن اتهامات الإدارة الأمريكية لسوريا بأنها تساعد المقاومة العراقية قد أتت بثمارها.

في هذا التوقيت المبكر، كان علينا أن نقطع على موظفي الحكومة السوريين نومهم، إذ إنهم يرقدون أمام المبنى على أسرّة خشبية ويلتفون بأغطية سوداء، وهذا كان حالهم قبل أن يستخرجوا لنا تصريح المرور وهم متجهمون ومتبرمون، وبمجرد أن نظروا في جواز السفر وتبين لهم بأني ألماني الجنسية، أخذوا يهزّون رؤوسهم مندهشين، ثم أرجعوا لي بعد ذلك جواز السفر وهم يتمتمون بأشياء غير مفهومة، ثم واصلوا بعد ذلك نومهم، وتعالت بعد ذلك من مسجد السيدة زينب أصوات المؤذن معلنة صلاة الفجر.

١

وصلنا تقريباً في الساعة السابعة صباحاً إلى منطقة الشحمة، وهو مكان بدائي متواضع، يبعد حوالي سبعين كليومترًا عن الحدود العراقية، حيث سألتقي في هذا المكان بأبي سعيد، وهو تاجر من مدينة الرمادي العراقية، ربطتني به علاقة من خلال حديث لي مع بعض العراقيين الذين ألتقيت بهم في مايو/مايس 2007 أثناء تواجدي في الأردن، وكان أبو سعيد ينتظرني على مدخل هذا المكان في سيارة شيفروليه، ذات رفارف، ولها لون أزرق داكن وزجاج أسود، واصطحب أبو سعيد معه زوجته عائشة وبنته شهلة البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً وابنه عليّ البالغ من العمر أربع سنوات، وسائقه موسى، حيث عبر الجميع الحدود قادمين من العراق، قبل أن يتم إغلاقها بقليل في تمام الساعة العاشرة مساءً، وباتوا جميعاً في السيارة.

لقد حدث تفاهم منذ اللحظة الأولى بيني وبين أبي سعيد، الذي كان يتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة، ويبلغ أبو سعيد من العمر أربعين عاماً، حيث يبدو بغطاء رأسه العراقي، وكأنه الممثل «بيتر أوتول» في دور «لورانس العرب»، أما زوجته عائشة، التي تبلغ كذلك من العمر أربعين عاماً، فلها ملامح وجه أوربي، بشرته ناعمة، إنها سيدة جميلة حقًّا، ومن الواضح أنها تمكنت صباح اليوم بشكل أو بآخر من أن تأخذ زينتها وتتزين بهدوء داخل السيارة، فذكرت لها مجاملاً بأنها تبدو وكأنها الممثلة الأمريكية «ريتا هيوارث»، فشكرتني، وهي مبتسمة، رغم عدم معرفتها بالتأكيد لهذه الممثلة.

يمتلك أبو سعيد – الذي درس التاريخ وأراد أن يكون ديبلوماسيًّا سياسيًّا – في ضاحية الجزيرة ، وهي ضاحية تابعة لمدينة الرمادي،

يمتلك فيها شركة تجارية صغيرة، تعمل في مواد البناء والمشروبات الغازية التي يستوردها من سوريا والأردن. وكما يحكي لي أبو سعيد، فإن تجارته غير رابحة، ولكن على الرغم من ذلك يستطيع أن يدبر منها شؤون أسرته بما يكسب من مال، فكما يقول: «إن أهم ما في الأمر أننا مستورون ولله الحمد.»، ولأبي سعيد كذلك أربعة أطفال آخرين، تركهم جميعاً في مدينة الرمادي.وقال إنه لم يحضر معه زوجته وابنته شهلة وابنه علي، إلا من أجل حمايتي، فوجودهم معه سوف يُضفي على رحلتنا الطابع الأسري، ويصرف عنّي الأنظار عند نقاط التفتيش، صحيح أنني ارتديت جلباباً عراقيًّا أبيضاً يمتد حتى القدمين وأطلقت العنان نسبيًّا لشاربي، إلا أن ملامحي الأوربية مازالت هي الغالبة.

انطلقت بنا السيارة في تمام الساعة السابعة والربع، ويقودنا في هذه الرحلة سائق يُدعى موسى، يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، وهو عراقي وديع، له تسريحة خاصة، ويقود موسى السيارة دائمًا بأقصى سرعة، ويجلس بجواره أبو سعيد، بينما يُجلس الصغير عليّ على حجره، أما زوجته عائشة وابنته شهلة، فقد وجدا لهما مكاناً مريحاً في كرسي السيارة الخلفي، وحتى لا تأخذ موسى سِنَةٌ من النوم، كان يقوم دائماً بإدخال شرائط حديثة في جهاز تسجيل السيارة، حتى يستمع إلى تلاوة قرآنية وخطب حماسية، ولم تجعل هذه التلاوة القرآنية والخطب النارية موسى مستقيظاً بمفرده، وإنما كان لي أيضاً نصيب منها، وبما أنني لا أفهم اللغة العربية، فإن حماسي كان محدوداً، بينما نام أبو سعيد وأسرته في الحال، حيث كانت ليلتهم غاية في الصعوبة.

اقتربنا من مدينة التنف، بعد ثلثي ساعة سفر تقريباً عبر الصحراء السورية، وهي نقطة حدودية يبلغ طول حصنها خمسة كليو

مترات، تذكرني هذه النقطة بالمعبر الحدودي السابق المعروف باسم «هليمشتات» الواقع بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية، كما تذكرني كذلك بسور برلين وبأسوار السجون العالية، فهي في ذاتها مخيفة ومرعبة، فلم أرَ في أي مكان داخل العراق وبالتحديد في عهد صدام حسين مثل هذا النوع من الأسوار العجيبة والحواجز المخيفة. وبقينا ننتقل، على مدار ساعتين تقريباً، من نقطة تفتيش إلى نقطة أخرى، يقوم فيها موسى دائماً وبصفة مستمرة بتوزيع الرشوة، مرة خُفية من أسفل غطاء محرك السيارة، ومرة أخرى عياناً بياناً من النافذة، يدفع موسى عادة خمسين ليرة سورية، أي ما يوازي دولاراً أمريكيًّا تقريباً، حتى وصل الأمر إلى أن بعض موظفي الحدود السورية يرجعون ما تبقى من مال، إذا لم يكن لدى الإنسان المبلغ المناسب والمطلوب، بل إن أحد موظفي الحدود أخذ يَعُدُّ عياناً - وبسعادة بالغة - حصيلته الضخمة من أموال الرشوة، قبل أن يقوم صراحة بإعطائنا ما تبقى من الليرة الورقية، ومعروف عن موظفي نقطة التنف الحدودية نهمهم إلى المال، وعلى الرغم من وفرة البقشيش المقدم، إلا أن التفتيش غاية في الصعوبة؛ وكان أبو سعيد يقدمني على أنني طبيب ألماني، سوف يقوم برعاية الأطفال المصابين في مدينة الرمادي، ولكن لم يصدق أحد بأننى طبيب ألماني متطوع ، يريد الذهاب إلى مدينة الرمادي بمفرده دون حماية الجيش الأمريكي، لذلك أُوتي بنا إلى موظف مسؤول عن الحالات الخاصة، الذي أخبرنا بوجه تعلوه سمات الجدية، بأنه غير مسموح لي بالدخول إلى العراق على الرغم من حصولي على التأشيرة العراقية؛ حيث ذكر بأنني لا زلت أحتاج إلى موافقة خاصة من وزارة الداخلية السورية، وهنا بينت له أنه لو كان لي احتياج لموافقة خاصة،

فيجب أن تكون من وزارة الداخلية العراقية، فهي الأهم في هذه الحالة، وهنا تساءلت: كيف أنني احتجت شهوراً لاستخراج هذه التأشيرة وتبدو الآن عديمة القيمة؟ وزادت وتيرة وحدة المناقشة، فلا زال وجه المسؤول يعبر عن رفضه واستنكاره لذلك، وعلى الرغم من أن الأوارق المالية تُغيِّر من موقف من يحصل عليها وتؤخذ على الرحب والسعة، إلا أن المسؤول ظل متمسكاً برفضه. وهنا طلبنا منه أن يسمح لنا بالحديث مع رئيسه في العمل، واستسلم المسؤول لمطلبنا وهو يهز كتفيه، وبدأ أبو سعيد بحماس شديد يصف للرئيس المسؤول المتثائب كيف أن الأطفال في مدينة الرمادي يحتاجون إلى مساعدتي؛ لقد كان مطلبي في التزود بصورة حية من واقع الحياة في العراق مطلباً طبيعيًّا، لذلك تحدث أبو سعيد كثيراً، حتى استسلم المسؤول بعد ربع ساعة من الحديث معه، ويذكر المسؤول بأنه لم يرَ حتى الآن أحداً من الألمان يريد السفر إلى مدينة الرمادي من على هذا الطريق بعد اندلاع الحرب، إذاً فليكن ما يكون، ويقول: «هيا انطلق، صحبتك السلامة!»، ثم اتكأ مجهداً بظهره على المقعد، فهو يريد أن ينعم براحته ويواصل إغفاءه.

من الممكن اتهام السوريين بأشياء كثيرة، لكن ليس من الممكن أن نتهمهم بتسهيل الدخول إلى العراق. إنَّ المقاومين والإرهابيين الذين يحاولون التسلل إلى العراق عبر الحدود السورية بطريقة شرعية يواجهون صعوبات جمة في ذلك. وبسبب صعوبة الحياة في الصحراء فإن التسلل غير الشرعي عبر المنطقة الحدودية الخضراء المحاطة ببحارٍ من الصحاري الرملية الصفراء يعد مغامرة خطيرة. فضلاً عن ذلك فإن الصحراء التي يزيد طولها على ستمائة كيلو متر، بين سوريا والعراق لا يمكن مراقبتها في الواقع، وسبق أن اقترح أبو سعيد

وأصدقاؤه ، إمكانية دخولي إلى العراق بطريقة غير شرعية بعد أن تأخر حصولي على تأشيرة رسمية لدخول العراق. وبحثوا هذه القضية أسابيع طويلة، إلا أنهم رفضوا في النهاية هذا الاختيار بسبب خطورته، حيث تقوم الشرطة العراقية والجيش بالتفتيش المحكم عند كل تقاطع، وبالتالي سوف يتم القبض عليّ عند أول نقطة تفتيش.

لا زلنا متواجدين على الأراضي السورية، وفي تمام الساعة العاشرة والربع تَمّ السماح لنا في النهاية بمواصلة السفر؛ وتتواجد هنا على شارع كبير متعرج به أربع ممرات، تتواجد حواجز خرسانية وأكياس من الرمل وحواجز لإطلاق النار رادعة. هذا الشارع بأسواره الخرسانية العالية يمتد عبر منطقة فاصلة طولها خمسة كيلو مترات، يقودنا إلى اتجاه الحدود العراقية، ونرى هنا عن يميننا، فيما بَيّنَ الشارع والسور الخراساني، نرى من خمسين إلى ستين خيمة بالية مرفوع عليها علم مفوضية الأمم المتحدة للاجئين؛ حيث يجد هنا مئات من الفلسطنيين ملاذاً مزرياً لهم، فهم فروا بأنفسهم من بطش مليشيات السياسيين العراقيين، وإن كانوا لم يغادورا العراق تماماً، حيث لم ترحب سوريا أو دول أخرى باستقبالهم، فهم هنا يبدون وكأنهم شيء مهمل، يقبع في حرارة محرقة داخل المنطقة الحدودية.

وبمجرد أن اقتربنا من نقطة التفتيش العراقية، استقبلتنا لوحة مكتوب عليها بحروف حمراء خلفيتها بيضاء ما نصه: «لا تحاول تجاوز نقاط التفتيش أو تقديم رشوة لحرس الحدود، ابتعد بنفسك عن الصحراء ومن يخالف ذلك سوف يتم القبض عليه واستجوابه وحجزه.»، الرشوة بالمال غير معروفة في العراق، وإن بدا لي هذا

– وفقاً لما عايشناه على الحدود السورية – وعداً إلهيًّا من السماء، ولكن كان من الأفضل توفير ذكر الابتعاد وعدم الدخول في الصحراء؛ لأنه لا يوجد إنسان طبيعي يمكن أن يفكر، حتى ولو للحظة واحدة، في المغامرة برحلة صغيرة من هذا المكان إلى داخل الصحراء، والسبب في ذلك أبراج المراقبة المشهرة سلاحها وكذلك حواجز إطلاق النار، فضلاً عن وحشة الصحراء وشدة حرارتها، حيث ترتفع درجة الحرارة في هذه اللحظة إلى ثمان وأربعين درجة، وهنا تتواجد مرة أخرى حواجز مانعة ومواقع لإطلاق النار في صور حلزونية الشكل، مكتوب عليها عبارة: «قف ثم تحرك»، تتخللها نقاط تفتيش عديدة، وينتشر هنا في كل مكان جنود عراقيون مقنعون، وقوات أمن أمريكية مسلحة تسليحاً ثقيلاً، ولا أستطيع الحكم على الجنود الأمريكيين هنا بأنهم من المرتزقة الذين يعملون في شركات أمن خاصة، حيث أخذ عددهم في الآونة الأخيرة يزداد شيئاً فشيئاً، وإن كان الأمر هنا يستوي، فأصابعهم الموضوعة على زناد البنادق الرشاشة تجعل الكل يعرف بأن الدخول في مناقشات حول مغزى وهدف أى أمر من الأوامر غير مرغوب فيه، فنحن قدمنا إلى العراق المحرر!

الجو العام هنا مملوء بالأشباح، فيعلو نقطة المراقبة المزودة بقوات أمن أمريكية على أهبة الاستعداد لإطلاق النار، يعلوها برج حراسة يبلغ ارتفاعه من خمسة إلى ستة أمتار ويحميه درع زجاجي واقٍ، وتطل علينا من أحد أركان هذا البرج فوهة سلاح آلي ثقيل مهددة ورادعة في الوقت نفسه، وكان عليّ دائماً أن أنزل من السيارة وأبين ، بمساعدة أبي سعيد ، لمسؤولي الحدود العراقية المندهشين ما أريد فعله في العراق، لذلك واصلنا سيرنا إلى الأمام ببطء شديد، وبالطبع لم نقدم

أي بقشيش لأحد، وبعدما استطعنا على مدار ساعتين من إقناع أخر نقطة تفتيش عراقية أمريكية بالسماح لنا بالمرور إلى الداخل، وصفني شرطي عراقي - كسائر نقاط التفتيش الأخرى - بالجنون، ثم ناداني في سعادة بالغة: «شرفتنا في العراق».

إنها الثانية عشر والنصف ظهراً بتوقيت سوريا، الواحدة والنصف ظهراً بتوقيت العراق .

السفر إلى مدينة الرمادي

استغرق سفرنا أربع ساعات ونصف الساعة تقريباً حتى نعبر الحدود، وهنا ترحب بنا لوحة كبيرة مكتوب عليها باللغة العربية: «العراق يحبكم»، وأعتقد أن صدق هذا القول سوف يتضح لنا فيما بعد، وهنا شرعت في إنهاء شرب زجاجة الماء الثالثة لهذا اليوم، ونسير الآن على الطريق الصحراوي السريع المتجه إلى مدينة الرمادي، والذي يكاد يكون خالياً تماماً من السيارات، وكم هو جميل أن نسير على طريق خالٍ بعد أربع ساعات تتخللها دائماً عبارة: «قف ثم تحرك»، ولم يبقَ أمامنا حتى نصل لمدينة الرمادي، إلا أربعمائة وتسعين كليو مترًا.

لا زال جهاز تكييف سيارتنا يصارع بلا استسلام الحرارة المحرقة، وإن تخلله وَهَن قليل في بعض الأحيان، ويدفع هنا السائق موسى بشريط قرآني آخر لسورة إبراهيم إلى داخل التسجيل بالسيارة، ثم انطلق بسرعة مائة وستين كليو مترًا في الساعة على الطريق السريع، الذي يشق صحراء العراق الشاسعة الرملية والحجرية الموحشة. ويُحاط

الطريق السريع بالالآف من قطع إطارات السيارات، التي ذبلت وبليت من جراء درجة الحرارة المتصاعدة إلى خمسين درجة مئوية، وعلى يمين ويسار الطريق، تنتشر على مسافات متباعدة مركبات محترقة، وترى كذلك حطام الحافلات وسيارات النقل وسيارات الركاب وكذلك المركبات العسكرية، فكلها محطمة عن أخرها، لدرجة أنك لا تتعرف معالمها بسبب ما أحدثته الشظايا من ثقوب فيها، وكذلك ما أزالته رياح الصحراء الرملية من ألوان كانت عليها حتى كشفت عن حديدها الخام، وتشهد كذلك آثار الفرامل الطويلة وبقع الزيت الكثيفة على الطريق وعلى جانبيه، على أن هذا المكان قد شهد، قبل وقت قليل، نصب كمين وهجوم وصراع بين القوات الأمريكية وأفراد المقاومة العراقية الخفية، كما تشهد كذلك بأن مآسى قد حدثت في هذا المكان، خلفت وراءها عددًا لا حصر له من الموتى.

تحاول فرق الإخلاء لقوات الاحتلال التي تظهر سريعاً بعد الاشتباكات لإزالة آثار الجروح والأعطاب الأمريكية، تحاول هذه الفرق دفع الحطام بعيداً قدر الإمكان إلى داخل الصحراء الصخرية، إلا أنها لا تستطيع عادة إخفاء جميع الآثار، فالصحراء والأسفلت لهما ذاكرة من نوع خاص. ويعد الطريق السريع الممتد من التنف حتى الرمادي طريق الموت، حيث يمكن أن تنفجر فيه في أية لحظة قنبلة أو يحدث إطلاق نار متبادل بين المقاومة وبين قوات الاحتلال؛ فالحطام المحترق يستدعى باستمرار إلى ذاكرة المسافر مثل هذه الأحداث، وتزداد الرحلة في رتابتها بسبب تكرار ما تشاهد وتسمع، مثل: مشاهدة صور الإطارات المتقطعة وحطام السيارات المحترقة وآثار الفرامل وبقع

الزيت ومشاهد الصحراء وكذلك سماع آيات القرآن التي يتلوها القارئ من جهاز التسجيل دون انقطاع والخطب الحماسية المؤثرة، وإن تغلبت أحياناً قطعان الأغنام – التي تبدو وكأنها ظهرت من العدم – على رتابة الصحراء، فهى تلتهم أخر عشب زهيد بدا لها في الصحراء.

نام الجميع في السيارة باستثنائى أنا والسائق، حيث يواصل موسى قيادته السريعة بأعصاب هادئة، وهو يستمع إلى القرآن الكريم ويكتب بيده اليمنى رسائل قصيرة على هاتفه المحمول؛ فلا يمكن الاتصال من هنا، حيث إن شبكة الهاتف المحمول ضعيفة جدًّا، وعليها عبء ثقيل بالنظر إلى هذا البلد الشاسع؛ وحدث تغير في الوضع السائد فجأة، حيث تدوى الآن فوق رؤسنا فجأة أصوات طائرتا هيلوكوبتر، تحلقان بانخفاض بَيِّن، وهنا بدأتُ بسرعة في التقاط الصور، إلا أن أبا سعيد – الذي استيقظ في هذه اللحظة – أخذ يرجوني تنحية الكاميرا جانباً، ثم ظهر على جانب الشارع مباشرة رتل من الدبابات والسيارات الأمريكية ذات اللون الرملي، والمسلحة تسليحاً ثقيلاً، ثم اندفع باتجاهنا مباشرة السائقون المحملون بالسلاح، والذين يسيرون على عكس الطريق، حيث أومض من فوق سطح مركبتهم ضوء تحذيري أحمر. وهنا ضغط موسى بشدة على الفرامل وألقى بهاتفه المحمول على حجر أبي سعيد، ثم انحنى بعد ذلك بالسيارة انحناءة شديدة جهة اليمين، فوقفت السيارة محدثة صوتاً قويًّا علامة للوقوف، ثم اقترب منا الرتل العسكري شيئا فشيئاً، مما جعل الجميع في السيارة يفيقون من نومهم. وعلى الرغم من صياح أبي سعيد، إلا أننى واصلت التصوير، لكن كان عليّ أن أتوقف عن ذلك في الحال؛ فهولاء يطلقون نيران أسلحتهم على كل من يرتابون فيه، ويقف الآن الرتل الأمريكي على بُعد أمتار منا فقط، حيث يصوب الرتل علينا البنادق ومدافع الدبابات، فقمت بإخفاء الكاميرا في

الشبكة خلف مقعد السائق وانتظرت حتى سارت المركبات العسكرية بسرعة منخفضة في اتجاهنا، ثم مرت بالقرب منا، حتى رأيت وجوه الجنود الذين كانوا يحملقون بأعينهم في سيارتنا، وهنا يحتضن أبو سعيد ابنه الصغير بين ذراعيه، الذي يكاد أن يكون الدم قد هرب من وجهه من شدة الخوف، وولى الشبح بسلام بعد دقائق معددة، مرت علينا وكأنها الدهر.

استدار أبو سعيد نحوي وخاطبني متوسلاً: « أرجوك لا تقم بالتصوير يا دكتور، فهذا الأمر غاية في الخطورة، حيث يرى الأمريكان مِنْ خلف النوافذ الزجاجية المظلمة مَنْ يقوم بتصويرهم، ثم يقومون باطلاق النار في الحال.»، وبينما أبو سعيد يلح علي بالقول، لاحظت إلى أى مدى يقترب على الطريق المقابل لنا رتل من مركبات إمداد وتموين طوله كليو متر تقريباً، وهذا هو السبب في تأمين الجهة التي نسير فيها تأميناً عسكريًّا، وإلزام سيارتنا بالسير على أطراف الطريق، وهذا الرتل محاط بمصفحات مجنزرة، حيث تسير دبابة أومصفحة خلف كل ست عربات نقل، ويبدو أن هذا الرتل الطويل يتجه صوب الأردن، حيث يلعب الإمداد العسكري من هذه الدولة المجاورة للعراق أهمية بالغة لقوة الاحتلال.

يواصل موسى سيره مرة أخرى ببطء؛ أى ليس أسرع من مركبات الإمداد على الطريق المقابل.. لقد شرح لي أبو سعيد بأن ذلك يعد قاعدة حديدية، فلا يسمح لسائق يسير على الطريق أن يقترب من الرتل العسكري، فيجب أن تكون المسافة بينه وبين الرتل مائة وخمسين مترًا، كما لا يسمح لسائق يسير على الطريق المقابل أن يقود سيارته

أسرع من الرتل العسكري، ومن يخالـف هذه القواعد، فمصيره الموت لا محالة، وكان هذا بالفعل مصير بعض سائقي المركبات المحترقة على يمين ويسار الطريق، فلم يفعلوا أي شيء سوى أنهم خالفوا هذه القواعد. وتشير عقارب الساعة الآن إلى الثانية ظهراً، فما زال أمامنا ساعتان حتى نصل إلى مدينة الرمادي، والآن قد بدا الطريق السريع مرة أخرى، وكأنه خاوٍ على عروشه.

تقرير أبي سعيد حول الوضع

سألت أبو سعيد الذي كُلِّف بإعداد لقاء لي في الأيام القادمة مع ممثلي المقاومة العراقية.. سألته عن انتمائه إلى المقاومة، وهنا تبسم أبو سعيد ضاحكاً وأخذ يقول: «نحن جميعاً أعضاء في المقاومة، كلٌّ على حسب طريقته، فهناك من ينتمي إلي المقاومة انتماءً مباشراً أو غير مباشر، الشعب يقف في صفوف المقاومة، فالكل يساعد بشكل أو بآخر، تماما كما يحدث في أي دولة محتلة في العالم، فمنهم من يساعد بالمال أو بالمعلومات أو بالطعام أو بالإيواء، حسبما يتطلب الموقف.».. أبو سعيد على سبيل المثال لا يشارك مشاركة مباشرة في القتال، إلا أنه يساعد كسائر العراقيين حسب استطاعته، فهو لا يساعد بلا شك إلا المقاومة الحقيقية، وليس الإرهابيين من القاعدة أو مليشيات السياسيين الشيعة.

استعلمت عما إذا كان العراقيون جميعاً يقفون في الواقع خلف المقاومة أم لا، وهنا فكر أبو سعيد وقال:« لو وضعنا في الاعتبار العراق ككل بما فيهم الأكراد، فإن سبعين في المائة من الشعب العراقي يساعد

المقاومة، ومما لا شك فيه.. فإن جزءاً من الطبقة السياسية يتعاون مع الاحتلال وليس الشعب كله؛ لذلك فهناك فجوة عميقة بين الحكومة العراقية والشعب في الوقت الحالي؛ فالشعب يطالب في عزيمة وإصرار بانسحاب القوات المحتلة، وهذا عكس رأى أعضاء الحكومة الذين يتشبثون بمقاعدهم.[1] ويمكن مقارنة ذلك الأمر باحتلال فرنسا في الحرب العالمية الثانية، وهناك بالطبع المتآمرون مع الاحتلال، إلا أن الغالبية العظمي من البلد تقف في صف المقاومة، وتشعر وكأنها جزء من المقاومة.»

ثم سألت مستعلماً: «وهل الشيعة كذلك؟». هنا نظر إليّ أبو سعيد بشيء من الحيرة، وأجاب بأن التفرقة بين السنة والشيعة لعبة أمريكية بريطانية،[2] فيما مضى كان لا أحد يهتم بقضية أنه سني أو شيعي، ففي البصرة نفسها التي تقطنها غالبية شيعية توجد مقاومة وطنية قوية على الرغم من وجود مليشيات السياسيين الشيعة القوية والتي تدعمها إيران، ويجمع السنة والشيعة قرآن كريم واحد؛ فالفرق الوحيد الجدير بالذكر هنا هو أن المتأخرين من الشيعة لا يريدون أن يعترفوا بعد موت النبي محمد، إلا بآل البيت كقادة للمجتمع المسلم، أما السنة، فلا يصرون – على عكس الشيعة – على تحديد وتعيين الخلفاء طبقاً لأصلهم، وإنما يحددونهم وفقاً لكفاءتهم الدينية والسياسية، وهذا مما أدى فيما بعد إلى الانقسام.

يستمتع أبو سعيد في إبراز تمكنه وتفوقه في المعلومات التاريخية، ويواصل حديثه قائلاً بأنه سني وامرأته شيعية، ويعد هذا أمراً طبيعيًّا في العراق، فهو لم يفكر على الإطلاق في أولاده بأنهم الآن سنيون أم

شيعة، وهو نفسه بصفته مدرس سابق للتاريخ، لا يعرف إذا كان لهذا الأمر قواعد أم لا، فلا يهتم أحد بذلك في العراق، ويشعر كذلك كثير من أكراد بغداد والموصل بأنهم بالدرجة الأولى عراقيون على خلاف بعض قادتهم السياسيين؛[3] لذلك سوف تفشل محاولة الغرب في الوقيعة بين السنة والشيعة؛ فهم مسلمون ويفخرون بأنهم مسلمون عراقيون، وأثناء الحرب مع إيران حارب كل من السنة والشيعة جنباً إلى جنب أعواماً عديدة، أما التمرد الذي وقع بعد الحرب مع الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1991 ، داخل المنطقة الجنوبية ذات الأغلبية الشيعية، لم يكن تمرداً شيعيًّا ضد الحكم السني – كما يُدعى دائماً – وإنما كان عبارة عن محاولة دبرتها ودعمتها إيران والولايات المتحدة الأمريكية؛ لإسقاط صدام حسين وإضعافه قدر الإمكان.

سألت أبا سعيد عن العنف المتزايد بين السنة والشيعة؛ حيث يطالع الرأى العام العالمي كل مساء على شاشات التليفزيون هذا العنف، الذي لا يمكن غض الطرف عن مناقشة مشكلته، فأجاب أبو سعيد بأن هؤلاء الناس الذين يفجرون أنفسهم في الأسواق وأمام المساجد قتلة إرهابيين لا علاقة لهم بالمقاومة العراقية،[4] وطبقاً لأحدث تقرير ذكرته صحيفة «نيوزويك أون لاين»، فإن ما يزيد عن ثلثي الذين يفجرون أنفسهم أجانب يأتون من خارج البلاد[5] . وأضاف: تجري في العراق لعبة شيطانية، أبطالها ولاعبوها، إمّا من القاعدة التي يتم دعمها ماليًّا من المملكة العربية السعودية ودول الخليج أو من مليشيات السياسيين الشيعة الذين تدعمهم إيران عادة، أو مدسوسون من مخابرات بعض الدول التي لها مصلحة في تمزيق وتفريق العراق، وتسير هذه الفرق الثلاثة سوية وفق خطة متشابهة؛ فهم يقومون بإثارة

بعض عناصر الشعب ضد بعضهم الآخر، من خلال اعتداءات ملفتة للانتباه؛ فالقاعدة السنية تفجر الأضرحة الشيعية والأسواق، بينما تقوم الميليشيات الشيعية باعتداءات ضد الجوامع والمناطق السكنية لأهل السُّنة، أما العملاء الأجانب فيقومون بتفجيرات ضد السنة والشيعة معاً، وعقب ذلك يوجه رجالهم الذين يعملون في الكواليس، في احتقار بالغ ، أصابع اتهامهم إلى العراقيين الذين يتقاتلون على أثر ذلك الاتهام مع بعضهم بعضاً وكأنهم حيوانات مفترسة، والكل يعرف في العراق بأن جزءاً من هذه الاعتداءات تقف وراءها جهات أجنبية، هكذا أعلن منذ عهد قريب صراحة قائد الميليشيات الشيعية مقتدى الصدر، حيث قال إن الهجوم الأخير الذي وقع في فبراير/شباط 2006 على المسجد الذهبي المشهور لأهل الشيعة بمدينة سامراء[6] لم يكن من تدبير سنة العراق، وإنما كان من تدبير قوة الاحتلال، وهذا القول جدير بالملاحظة، لأن مقتدى الصدر نفسه باعتباره من المحسوبين على إيران، كان يُقال عنه أنه المسؤول عن الاعتداءات الكثيرة على سنة العراق.[7]

عندما نظرت إلى أبي سعيد بريبة، لأن الأمر برمته بدا لي بأنه نوع من نظرية المؤامرة المعروفة عن الغرب ضد الشرق، أخرج لي أبو سعيد من جيبه مقالاً لإحدى الصحف العربية، يشير هذا المقال إلى الخبر الذي ذكرته من قبل صحيفة «نيوز ويك أون لاين»، وهنا قرأ على أبي سعيد، أن من بين المائة والتسع وثلاثين الذين قاموا بتفجير أنفسهم في العراق، فقط ثمانية عشر من العراق، أما الباقي، فمنهم ثلاث وخمسون من السعودية وثمانية من إيطاليا واثنان من بلجيكا ومثلهما من فرنسا وإسبانيا، وواحد من بريطانيا، ويدل هذا على أن

سبعة وثمانين في المائة من عدد الذين قاموا بتفجير أنفسهم هم أجانب، فضلاً عن ذلك.. فإن القوات العسكرية الأمريكية أكدت منذ أيام رسميًّا بأن من بين ثمانين إلى تسعين في المائة من الذين قاموا بتفجير أنفسهم هم إرهابيون أجانب.

لقد أعلمني أبو سعيد عن هذا الموضوع من قبل صراحة وبشكل دقيق؛ لذلك فهو يسألني قائلاً: «لماذا تخدعكم هذه اللعبة المؤسفة التي تلعبها الآن الولايات المتحدة الأمريكية والقوى الأخرى ضد العراق؟ لقد انخدعتم من قبل بأكذوبة أسلحة الدمار الشامل، والآن تنخدعون بأكذوبة أن الذين يقومون بالعمليات الانتحارية عراقيون، لماذا تسمحون للدعاية الأمريكية أن تضللكم وتغرر بكم؟». لقد ذكر لي أبو سعيد ذلك دون أن يبدى أي انفعال واضح، إلا أن صوته كان يَنُمُّ عن إحباط، ثم أضاف قائلاً: «ليس لديكم أى فكرة عما يدور في بلدنا. لقد كان زعيم القاعدة الزرقاوي – الذي قتل في العراق – بالنسبة لأبي سعيد رجل الولايات المتحدة الأمريكية، دون أن يقصد الزرقاوي ذلك،[8] فقد كان سلوكه مطابقاً تماماً لما تصورته القيادة الأمريكية، وتمنته من عدو لها متوحش غير مبال ويحتقر الناس ولا يبالي بهم، لذلك كان يروي بوش دائما للشعب الأمريكي بأن من واجبه حماية أمريكا من هؤلاء الناس الأشرار، على الرغم من أن الزرقاوي الأردني الجنسية كان يقتل العراقيين على وجه الخصوص، لماذا لم يكتب أحد أن هذا القاتل لم يكن عراقيًّا؟».

ثم أردف قائلًا: «على الرغم من أن سكان الرمادي لا زالوا مجمعين تماماً على رفض الاحتلال الأمريكي، إلا أن بعض القبائل اتفقت منذ

أسابيع قليلة مع الأمريكان على وقف إطلاق النار؛ حتى يتمكنوا من طرد إرهابيي القاعدة الأجانب من المدنية، ولقد تم تحقيق هذا الأمر إلى حد كبير، حيث كانت القاعدة تنوي اتخاذ مدينة الرمادي عاصمة لها، إلا أن هذه المحاولة قد باءت بالفشل، فقد حرمت المقاومة وسكان المدينة على القاعدة أى مساعدة، وكما أقر «ماو تسي تونج».. فإن الأسماك لا تعيش إلا في الماء، ولكننا منعنا عنهم الماء وجففنا عليهم منابعه،[9] فلم يكن أمام مقاتلي القاعدة الأجانب إلا أن يغادروا مدينة الرمادي في ربيع 2007 مجبرين، ومنذ ذلك الحين لم تكن هناك اشتباكات كبيرة، وإنما كانت أحياناً اشتباكات محدودة للشرطة العراقية والمقاومة والقوات الأمريكية مع القاعدة، وتُعظِّم وسائل الإعلام الآن من شأن تلك الاشتباكات حتى جعلتها معارك بطولية، كما حدث في معركة Donkey Island المزعومة[10]، والتي قيل عنها إن القوات الأمريكية قتلت في يوم الثلاثين من يونية عام 2007 بالقرب من مدينة الرمادي حوالي ثلاثين مقاتلًا من القاعدة، وما كان ذلك إلا تبادل لإطلاق النار، كما يحدث عادة يوميًّا للأسف في العراق، وعليه فلم تفشل القاعدة في مدينة الرمادي من خلال الصراع المسلح، وإنما فشلت بسبب وحشيتها المفرطة التي فقدت على أثرها احترام وتقدير سكان المدينة».

«... لقد أوضحت هزيمة القاعدة في مدينة الرمادي لنا أن السلام يمكن أن يعود يوماً ما إلى العراق ويتحقق. وبمجرد أن تغادر القوات الأمريكية البلد، يمكن للمقاومة العراقية أن تركز مقاومتها في جميع أنحاء البلاد على القاعدة وعلى المجاميع المسلحة التي يزيد عددها عن المائة فرقة؛ خاصة المتطرفين الشيعة منهم، كما تركز مقاومتها على بعض السياسيين من السنة، ولن تحتاج المقاومة في هذه الحالة،

إلا إلى أسابيع قليلة، حتى تحل مشكلة الإرهاب، فسكان العراق يتمنون طرد الإرهابيين اليوم قبل غدٍ من البلاد».. وهنا نظرت إلى أبي سعيد بشيء من عدم التصديق فيما يقول، إلا أنه كان في ثقة مطلقة من هذا الأمر الذي يقوله، فتَمَكُّن السكان من طرد القاعدة خارج مدينة الرمادي جعله أكثر تفاؤلاً.

يثقل النوم أجفان أبي سعيد، وبتُّ أنا كذلك شديد الإجهاد، حيث أصبحت السيارة في هذه اللحظة لا تطاق من شدة الحرارة، فلم يعد بإمكان تكييف السيارة الشفيروليه القديمة مقاومة الحرارة الخارجية البالغة في هذه اللحظة أربعاً وخمسين درجة، وبصفة خاصة اليوم الذي يعد حتى الآن أكثر أيام العام حرارة في العراق، وفي هذه الأثناء نام أبو سعيد نوماً عميقاً، أما ابنته شهلة وابنه الصغير علي فقد ناما قريري العين، وماذا تراني أن أفعل الآن، إلا أن أنام مثلهم، فلم يكن حولنا إلا الصحراء التي لا نهاية لها، إنها لطبيعة رائعة حقًّا، وإن كان حطام السيارات المحترقة يذكرني دائماً بالحرب، وهنا استعيد ذكريات أول رحلتين لي في العراق، في عامي 2002 و2003، أي قبيل الحرب بأسابيع قليلة، فمازلت أتذكر جمال هذا البلد وكرم الضيافة الذي أظهره لي العراقيون آنذاك، وما زلت أفكر كذلك في النظرات المليئة بالخوف، بل أحيانا كادت هذه النظرات أن تنطق بالاستعطاف، عندما كانوا يسألونني عن إمكانية تجنب هذه الحرب، بل وأفكر كذلك في استسلامهم الصامت لمَّا أخبرتهم بأن الحرب أمر محسوم منذ أمد طويل، وما النزاع حول أسلحة الدمار الشامل إلا مدخل لها، بل ما زلت أتذكر أطفال بغداد والموصل الذين قدمت لهم زيارتنا قبل الغزو بصيصاً من الأمل.. الأمل بأن هذه الحرب التي تحدث عنها الجميع،

لم تكن إلا كابوساً سوف يفيقون منه يوماً ما، ولا زلت أتذكر جميع العراقيين، الذين وعدتهم ببذل قصارى جهدي فى حل النزاع العراقي حلاً سلميًّا، وأفكر كذلك في قلة حيلتي وقلة حيلة أكثر الصحفيين في صرف آلة الحرب الأمريكية بالحقائق والأدلة، حتى ولو مقدار مليمتر عن غيّها، كم كانت غبية جميع تلك المحاولات!

زيد والرجل العجوز

استيقظ أبو سعيد مرة أخرى، فقطع عليّ هذه المرة حبل أفكاري، فهو يريد أن يوضح ليّ أن المقاومة العراقية ترفض العنف ضد المدنيين رفضاً باتًّا.. هنا استدار أبو سعيد إليَّ وحكى لي عن قصة زرع عبوة ناسفة في بداية عام 2007 بشارع العشرين، وهو عبارة عن شريان مروري رئيسي لمدينة الرمادي، حيث كان يجب تفجيرها أثناء مرور مصفحة أمريكية، تحدث أبو سعيد بصوت منخفض للغاية وبوضوح قائلاً:

«لقد تم تكليف زيد، وهو أحد أبناء أخي، بتفجير عبوة ناسفة، عنَدما اقتربت مصفحة أمريكية، جلس في اللحظة نفسها مدني عراقي مسن، على حجر أمام الموضع الذي يجب أن يتم فيه تفجير القنبلة، هنا ثبت زيد بصره في يأس على الرجل، وحاول أن يعطيه إشارة من بُعد، وكان زيد على يقين، بأنه يجب أن يقوم بعد ثوانٍ قليلة بتفجير العبوة الناسفة عن بُعد، هنا بدأت ترتعش فرائصه وتسيل الدموع على وجنتيه، وعندما وصلت المصفحة إلى المكان المتفق عليه، علم زيد، بأنه يجب الآن أن يضغط على مفتاح التفجير عن بُعد، ولكنه لم يفعل، وأرخى يديه

تدريجيًّا وهو خائف، حتى لا تلمس يداه مفتاح التفجير عن بُعد، ثم سمح للمصفحة أن تمر دون ضرر، وعقب ذلك رجع زيد إلى أصدقائه ورد إليهم جهاز التفجير عن بُعد، دون أن ينبس ببنت شفة، فاستقبله الجميع بالأحضان، لأن المدني العراقي المسن لم يصب بأذى، وذكروا له أن ما فعله هو الصحيح، ولو كانوا مكانه، لفعلوا نفس ما فعل.»

انصرف عني أبو سعيد مرة أخرى، ثم صمتَ، فسألته بعد توقف طويل عن الكلام: «هل يمكن أن ألتقي بزيد؟». فأجاب: «سوف تلتقي به.» ثم صمتَ مرة أخرى، ولكن هذا الرجل الشاب زيد لم يعد يفارق فكري قط».

قصة أبي سعيد

سألت أبا سعيد بعد برهة من الوقت، عن فقده لأحد من أفراد أسرته أثناء الحرب.. وهنا عضَّ أبو سعيد على شفتيه، وقال: «جميع الأسر في مدينة الرمادي فقدوا أقاربًا لهم، فقبل عامين تم القبض على أخي الأكبر، بتهمة الاشتباه في أنه يقاتل في صفوف المقاومة، ومنذ ذلك الوقت لم يظهر له أثر مرة أخرى، وأخشى أن يكون قد قُتل».

يرى أبو سعيد أن قرابة أربعين ألف من العراقيين محجوزون في السجون الأمريكية، حيث تم القبض في شتاء 2004 على ابنه الأكبر سعيد البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً، وعلى ابن أخيه رشيد البالغ من

العمر تسعة عشر عاماً بتهمة الاشتباه بأنهما من أفراد المقاومة العراقية في مدينة الرمادي، ولم تكن لسعيد ورشيد آنذاك أية مشاركة فاعلة في صفوف المقاومة.. في البداية تم الزج بهما في السجن الأمريكي بمدينة الرمادي، وجرى ضربهما وإهانتهما بعد ذلك أثناء سماع أقوالهما الأولى في السجن، ولم يسمح لهما بالنوم أياماً طويلة، حتى يحصلوا منهما على اعترافات تحت التهديد، بعد ذلك نقلوا رشيد إلى سجن بوكا، وهو أحد السجون الأمريكية في مدينة البصرة الجنوبية، بينما أطلق سراح ابنه سعيد، وقضى رشيد، وهو شاب هادئ نحيف البدن، قرابة ثمانية أشهر في سجن بوكا، وعندما رجع رشيد من السجن، لم أستطع التعرف عليه مرة أخرى، فقد عاد مريضاً وواجماً هزيلاً، حيث تم وضعه في سجن بوكا مع عدد كبير من المسجونين في خيمة صغيرة، ولم يكن لهذه الخيمة ما يقيها من العواصف الرملية الباردة في الشتاء ولا الحرارة اللافحة في الصيف، وعندما رفض رشيد ذات مرة الانقياد لأوامر أفراد الحراسة، أخذوا منه فراشه وفرضوا قيوداً على ذهابه إلى دورة المياه، وعندما أصابه على إثر ذلك برد شديد مصحوباً بحمى مرتفعة، منعوا عنه ، كعقاب له ، أي رعاية طبية، وكانوا يعتادون دائماً ضربه ورفسه بالأقدام، لذلك فقد احتاج أبواه أسابيع حتى يمدوا الشاب رشيد بعد عودته من السجن بما يحتاجه من طعام وغذاء، ومن الممكن مداواة جراحه الجسدية، ولكن جراحه النفسيه لن تلتئم أبداً، ونتيجة لإقامة رشيد في سجن بوكا انضم مباشرة لصفوف المقاومة، ولو حدث ذلك لشباب مثله في الغرب، لفعلوا مثل ما فعل تماماً.

يقبع في سجون الحكومة العراقية قرابة ثمانون ألف عراقي، يحشرون فيها حشراً، ففي سجن الجادرية يعيش على سبيل المثال

أحياناً مائة وثمانون شخصاً في مساحة 200 متر فقط، لذا كان عليهم أن يرقدوا للنوم في وجبات، فليس هناك مكان كافٍ يسع الجميع، أما عن الأوضاع الصحية في السجون، فحدث ولا حرج، أما المقاومون الذين لا تستريح لهم قوات الاحتلال بصفة خاصة، يتم تسليمهم إلى وزارة الداخلية العراقية سيئة السمعة، فهي تقوم بمطاردة معارضي الحكومة بلا رحمة ولا هوادة، وتعذبهم دون انقطاع، بل وتقتل كثيراً منهم، ثم تجد بعد ذلك جثثهم المشوهة والتي لا يمكن التعرف عليها، وبأعداد غفيرة، تصل إلى المئات أحيانا، تجدها ملقاة على أطراف مدينة بغداد وفي أماكن تجميع القمامة وفي نهر دجلة، ويخشى أبو سعيد أن يكون أخوه الأكبر قد لقي مصير هؤلاء الشباب أنفسهم، ولا يكترث المحتل الأمريكي بالإعدامات العراقية، طالما أن الذين يقومون بها من أجهزة الأمن العراقية، لأن القوانين الأمريكية لا تسمح لقوة الاحتلال بتنفيذ عقوبة الموت على السجناء العراقيين، وعلى كل حالٍ.. فإن الولايات المتحدة الأمريكية لم تتخذ أي اجراءات جادة ضد هذه التجاوزات.

وعندما أبديت شكي فيما يعرض أبو سعيد، أخذ يتذمر، ثم روى لي بعد ذلك بصوت منخفض قائلاً: «إن في العراق ما يزيد على المائة من سجون غوانتانامو العراقية والأمريكية، ويعد هذا أحد مآسي البلاد الخفية، ولقد تكلم الصليب الأحمر ومنظمات حقوق الإنسان عن تلك المآسي مرات عديدة وبالتفصيل، لكن الإعلام الغربي لم يُبدِ أى اهتمام لذلك، وحال سجناء غوانتانامو العراق أسوأ بكثير من حال أولئك الذين، يقبعون في سجن غوانتانامو الكوبي.[11] ويعد المسنون والمعاقون وحتى الأطفال من بين آلاف السجناء، الذين يقتادهم

الأمريكان من منازلهم كل ليلة تقريباً، ويتم في الغالب حبسهم – كما حدث مع رشيد – في الخيام وفي عربات الشحن وفي المراحيض، إن حياتهم تعد بهذه الحالة لوناً من ألوان الجحيم، كما يُزجّ غالباً بالنساء إلى السجن، حيث يفترض المرء فيهن إمكانية إدلائهن بمعلومات عن ذويهنّ، ليحررن بذلك أنفسهن من السجن، ويتم عادة اغتصاب النساء في السجون العراقية، وكذلك الرجال أيضاً، بل ويجبرون أحيانا السجينات على مشاهدة اغتصاب الرجال، ويبدي هنا أبو سعيد قدرته على ترتيب لقاء لي مع شهود عيان لمثل هذه الفظائع في عمان أو في دمشق،[12] ولقد عرض برلماني عراقي معروف منذ عهد قريب، صراحة بأنه وقعت فقط في عام 2006 خمس وستون حالة اغتصاب مثبتة لفتيات عراقيات داخل السجون العراقية والأمريكية،[13] وبالطبع فالعدد الحقيقي أكبر من ذلك بكثير، ويعلم المسجونون العراقيون في جونتانامو العراق بأنهم لا يساوون جناح بعوضة بالنسبة للغرب، وكثير من أصدقاء أبي سعيد، بل وأبي سعيد نفسه لم ينسوا كلمات المراقب الأعلى للسجون الأمريكية الجنرال «جيوفري ميلر»، الذي قال: «يجب أن يُعامل السجناء العراقيون معاملة الكلاب ولا يُسمح لهم على الإطلاق بالاعتقاد أنهم أنفسهم أفضل من ذلك».[14]

أعرض أبو سعيد جانباً ثم أخذ يمسح على رأس ابنه الصغير بحنان، وبدت عليه الرغبة واضحة في عدم مواصلة الحديث، قد يكون معه حق، فما جدوى الحكايات التي يقصها وكتابتى عنها؟ وبعد توقف دام طويلاً، سألته مرة أخرى عن الخسائر التي لحقت بأسرته، وأصبح – أبو سعيد، التاجر العراقي ذو الأخلاق الكريمة – أصبح في هذه اللحظة أكثر جدية، فأخذ يفكر طويلاً فيما يرويه لي، ودون أن يستدير، بدأ

يروي قائلاً: «هناك أربعة من أقاربي قتلتهم طائرة مروحية أمريكية في عام 2003؛ أي بعد الغزو مباشرة، حيث كانوا يتنـزهون على نهر الفرات الذي يجري عبر مدينة الرمادي، واشتبه الطيار في أنهم يريدون زراعة قنابل على حافة النهر، لكنهم في الحقيقة لم يكونوا يقومون إلا بنزهة بعد العصر».

هنا نظر أبو سعيد إلى الأمام محملقاً، فهو لا يريد أن أرى وجهه المكتئب، ويواصل راوياً: «في أبريل عام 2004 ألقت الطائرات الأمريكية – انتقاماً لهجوم قام به أفراد المقاومة – ألقت قنبلة على بيت ابن من أبناء أخيه، الذي مات في الحال هو وزوجته وأطفاله الصغار، أما في أغسطس عام 2005 فقد تمَّ قتل خالي أحمد – وهو أحب أخوالي إلى قلبي – بالرصاص من على أعلى مصفحة، فمات في الحال، بينما أصيب ابنه إصابة بالغة، ثم ألقت القوات الأمريكية جثة خالي أحمد، بعد عشرين يوماً من قتله أمام باب بيت العائلة، وفي الشهر نفسه قتل القناصة الأمريكان اثنين آخرين من أقاربي، وهم يروون حقولهم، حيث يسكن أبو سعيد في ضاحية الجزيرة، وهي جزء خلاب من مدينة الرمادي...

«..أما في شهر رمضان عام 2005 ، فقد شارك ستة عشر من أفراد عائلة أبي سعيد المقربين من الدرجة الأولى، داخل أحد المساجد في صلاة العشاء، ثم وقف أقاربه الستة عشر بعد الصلاة عند مدخل المسجد يتحدثون، وفجأة قذفت إحدى الطائرات الأمريكية المسجد بالقنابل، فقطعت انفجارات القنابل المدوية أقارب أبي سعيد إرباً إرباً، فترامت هذه الأجزاء المتناثرة في الشارع وفي حدائق الجيران القريبة،

وتعلقت الأجزاء الأخرى على أغصان الشجر المحيطة بالمسجد، لقد مات الجميع في الحال، ولم تقتصر مهاجمة قوات الاحتلال للمساجد على مدينة الرمادي فحسب، بل حدث الشيء نفسه في مدن أخرى ، ففي مدينة بغداد نادى ذات مرة أحد أئمة مساجدها، بعد قذف إحدى المناطق بالقنابل، نادي الإمام عبر مكبر الصوت للتبرع بالدم، عقب ذلك مباشرة قامت المروحيات الأمريكية بقذف المسجد بالقنابل وقتلت الإمام».

انفجر أبو سعيد – الذي لازال حتى هذه اللحظة هادئاً – فجأة بالبكاء، اهتزت جميع أطرافه من شدة النحيب بالبكاء، لدرجة أن الصغير عليّ الذي كان قد عاود النوم مرة أخرى، أخذ ينظر إليّ في عتاب، فربما يعتقد أنني قد أهنت أباه، وهنا يحاول الصغير أن يمسح وجه أبيه بيديه الرقيقة، لقد لُمتُ نفسي بسبب إلحاحي على أبي سعيد بأسئلة مؤلمة، إذ بدا أبو سعيد ساخطاً من نفسه لعدم قدرته على كتم دموعه؛ وبعد برهة قليلة واصل أبو سعيد حديثه في عناد وهو يقول: «جعل الأمريكان حجتهم في القصف هو أن الحي الذي به المسجد يتعاون مع المقاومة، ولكن بهذه الحجة يمكن تدمير العراق عن بكرة أبيه.»، وهنا يتنفس أبو سعيد الصعداء تدريجيًّا، فهو لايريد إظهار أنه لازال يقاوم الدموع، ثم أخذ ينظر مرة أخرى إلى الأمام.

إن ساسة الغرب أبطال من نوع خاص، فهم يعترضون في موسكو والصين على انتهاك حقوق الإنسان، بينما تنعقد وتتخرس ألسنتهم في واشنطن، فهنا تفقد عائلة أبي سعيد ما يزيد على خمسين فرد من أفراد العائلة، معظهم من الشباب في مقتبل العمر، لدرجة أنه توقف

هو وزوجته منذ أمد طويل عن عد وإحصاء موتاهم، وهنا هززتُ رأسي متعجباً من نفسي عن سبب إصراري الدائم على التعرف عن سبب مساعدة أبي سعيد – مثله مثل جميع العراقيين – للمقاومة.

الجزيرة

تطلعت بنظري من بُعد إلى مجموعة من أشجار النخيل، وتساءلت قائلاً: «هل مدينة الرمادي محاطة بأشجار النخيل؟ لقد كنت أتصور العاصمة السابقة للقاعدة في المثلث السني المقاوم تصوراً مختلفاً عن ذلك».. وهنا استيقظ جميع من بالسيارة، فالصغير عليّ أخذ يمسح على عينيه من شدة الجهد وينظر، عما إذا كان والده على ما يرام أم لا، أما شهلة فأخذت تتمطى وهي متجهمة متكدرة وتتحسس تسوية شعرها، ثم عبرنا جميعاً نهر الفرات بمائه الأزرق الداكن، هنا بدأ موسى يرفع رجله من على بدال السرعة ويسير تدريجيًّا نحو أول نقطة تفتيش؛ حيث يصوب أحد أفراد الشرطة العراقية المقنعة في هذه النقطة – التي كان الجميع فيها ينصبون سلاحهم الآلي في حطام سيارة محترقة – يصوب سلاحه نحو نافذة السيارة قاصداً موسى، وعندما نظر الشرطي إلى جواز سفري الألماني، شرع مرة أخرى في حوار مملٍّ لا نهاية له، وبمجرد أن زال التوتر بيننا سأل الشرطي المقنع أبا سعيد عن المبلغ الذي يطلبه ليبعيني له كي يساوم حكومتي على فديتي، حيث اشتهرت محافظة الأنبار والتي عاصمتها مدينة الرمادي، اشتهرت بخطف الأجانب وبالتهريب وبقطاع الطرق، هنا رد

أبو سعيد بجفاء: «هذا ما لا يمكنكم القيام به.»، ثم أغلق موسى نافذة السيارة وهو يهز كتفيه متعجباً.

وكان علينا أن نسير مرة أخرى في طريق متعرج، عبر حواجز خرسانية منيعة وحواجز لإطلاق النار وحواجز من الأسلاك الشائكة، كما يبرز من يمين الشارع برج مراقبة ضخم يواريه شباك، تطل من نافذته المدافع الرشاشة، ويعد هذا هو المقر الرئيسي للأمريكان في مدينة الرمادي الذي كان في السابق قصراً لصدام حسين، كما كانت مدينة الرمادي أول مقر إقامته بعد سقوط بغداد. عندما حاولت التقاط صور لهذا المبنى، الذي تبرز منه جميع المباني الأخرى المحيطة به والمسكونة بالأشباح، همس أبو سعيد في إذني قائلاً: «نحِّ الكاميرا جانباً!».

ثم سرنا بعد ذلك عبر شارع ترابي، غير ممهد بين أشجار النخيل العالية في اتجاه الجزيرة، وهي عبارة عن واحة ذات طابع قروي تقع على حافة مدينة الرمادي، يعيش فيها أبو سعيد مع أسرته، وكالعادة تأخذ الحواجز وأفراد الشرطة المقنعون في الظهور أمامنا مرة أخرى، ويقف موسى بالسيارة أمام حارة صغيرة، وهنا همس أبو سعيد في أذني قائلاً: «عليك أن تنزل حالاً من السيارة، فمن الأفضل ألا يراك الجيران!». وبسرعة سِرْتُ عبر بوابة معدنية إلى داخل حديقة صغيرة، وهنا أبصرت منزلاً من طابق واحد غير مدهون، يكتسي بأحجار غير منحوتة رمادية الشكل، تم بناؤها بالأسمنت الأبيض، وتسكن في هذا البيت أسرة أبي سعيد وأسرة أخيه الأصغر أبي حامد، ويقع مركز مدينة الرمادي على الجانب الآخر لنهر الفرات، القريب من منزل أبي سعيد.

تكتظ حديقة منزل أبي سعيد بالأطفال الذين يضحكون بسعادة، فمعروف أن أجازة المدارس في العراق تكون في شهور يوليو وأغسطس وسبتمبر، ومن بين هؤلاء الأطفال، طفلان يتأبطان زجاجات مياه بلاستك، سعتها لترًا ونصف، مُحْكَمة الغلق، إلا أنها فارغة، وهما بذلك يبعثان برسالة إلى آبائهما بأنهما يريدان الآن أن يستمتعا بالسباحة في نهر الفرات، لكن الوصول إلى نهر الفرات يحتاج، بسبب الحواجز، إلى ما يزيد على ساعتين، بينما كانت تكفي في الماضى عشرة دقائق فقط، لذلك فلا يمكن اليوم الاستمتاع بحمام سباحة منعش في نهر الفرات، لكن أن تَحْلُمَ بذلك فلا مانع.

جلس الأطفال الكبار مع آبائهم في إحدى حجرات الضيوف، التي تنبعث منها حرارة محرقة، جلسوا يشاهدون التلفاز، وقبل أيام قليلة حصل العراق على بطولة كأس الأمم الآسيوية في كرة القدم،[15] وهذه هي المرة الأولى في تاريخ العراق، ويجلس الجميع بانبهار أمام التلفاز – فلا زالوا غير مصدقين بهذا الحدث – يتفرجون على أهداف الفريق العراقي التي يعرضها التلفاز العراقي مراراً وتكراراً، ويتكون فريق العراق الوطني من سنة وشيعة ومن عرب وأكراد، فاللاعب السني يونس سجل الهدف الحاسم في المباراة النهائية مع السعودية إثر ضربة ركنية مررها له اللاعب الكردي هوار، أما اللاعب كرار – صمام أمن خط الوسط – فهو شيعي، وهنا يقول أبو سعيد: «لو اتحدنا، لصنعنا المعجزات».، وهنا يمسح خلسةً دمعة ذرفت من عينه، وأبو سعيد ليس هو الوحيد في العائلة التي تتبلل عيناه بالدموع.

يكاد الجميع – الشباب والرجال والفتيات – يجلسون مجتمعين في هذه اللحظة داخل حجرة الضيوف، وكان ذلك بالنسبة لي فرصة طيبة لإفراغ حقيبة الأدوية التي أتيت بها من ألمانيا كهدية ضيف، لقد طلب مني أصدقائي العراقيون من بغداد وكذلك أبوسعيد أن أتظاهر أطول فترة قدر الإمكان بأنني طبيب، وكان أبو سعيد قد وعدني بأنه في حالة ظهور حالات مرضية مستعصية، سوف يستعين بطبيب صديق له من مدينة الرمادي، وتزايد احترام الأطفال لي عندما رأوا كيف أنني أشرح لأبي سعيد شرح الخبير الملم وأبين له بعض أدوية صيدليتي المنزلية، وبمجرد أن ذكرت أن الأدوية يجب أن تُحفظ في مكان بارد، انفجر الجميع في الضحك، لأن الكهرباء التي توصلها المدينة للمنازل لا تبقى إلا سويعات قليلة نهاراً، أما المولد الكهربائي المنزلي القديم فيتوقف عادة بعد ساعة واحدة من التشغيل على أقصى تقدير.

فضلاً عن ذلك، فإن أسعار الوقود ارتفعت حالياً في العراق لدرجة أن الأسرة لا تستطيع تشغيل المولد ليل نهار، وكان سعر لتر البنزين قبل الغزو الأمريكي للعراق ما بين سنت إلى سنتين، أما الآن فيتراوح سعر اللتر ما بين أربعين سنتًا إلى دولار، حتى أن سعر اللتر يصل في بعض المدن العراقية مثل مدينة بعقوبة إلى دولارين،16 ومن العجب أن مدينة بعقوبة لا تبعد عن ثاني أكبر حقول نفط العراق إلا مائة كليو متر فقط.

كانت الساعة تشير إلى السادسة مساءً، ولا يزال جو غرفة الضيوف حارًا لدرجة أن الجميع اندفعوا إلى الحديقة، حيث تلقي الآن أشجار النخيل الضخمة بظلالها الممتدة، وهنا ذهبت إلى الحمام للاستحمام، إلا أن ماء الخزان المعدني كان غاية في السخونة بفضل أشعة الشمس،

حتى أننى كدت أن أحترق من شدة سخونتها. وعلى الرغم من ذلك، فلم أستمتع بحمام من قبل مثل هذا، ثم جلست عقب ذلك مسترخياً على أحد كراسي البلاستيك البيضاء في حديقة أبي سعيد، حيث تغطى الحديقة حشائش تتراوح مساحتها ثلاثمائة متر، وتحيطها أحواض ضيقة مملؤة بالأزهار، وهنا تلقف الأطفال كرة قدم وشرعوا يلعبون حفاة، خمسة من الغلمان الصغار الذين كانت تتراوح أعمارهم عشرة أعوام واجهوا ثلاثة من الشباب تراوحت أعمارهم عشرين عاماً، إلا أن الصغار بذلوا جهداً كبيراً لمجاراة الكبار، حتى أن الغلمان حاولوا بآلاف الحيل أن يعوضوا الفارق الجسمي.

زيد والقفزة المزدوجة

يقف عليٌ بن أبي سعيد البالغ من العمر أربعة أعوام بجوار الملعب كالتائه، فهو يريد أن يشارك في اللعب بشغف، إلا أنه مازال صغيراً على ذلك، وعندما توقف الفريقان للاستراحة – ولا زال مؤشر مقياس الحرارة (ترمومتر) يشير إلى خمسة وأربعين درجة مئوية – أخذتُ الكرة وحاولت أن أعلم علياً حيلة فنية، ألا وهي القفزة المزدوجة، التي كان يمتاز بها ويؤديها ببراعة فائقة لاعب المنتخب الألماني «بستيان شفاينشتايخر»، لقد شرح لي هذه القفزة لاعب كرة القدم «يونس» ذو الأصول التركية، وذلك منذ أسابيع قليلة في الحديقة الإنجليزية بميونخ، وأنا أجيد هذه اللعبة ببراعة على الأقل من الناحية النظرية، حيث يقوم اللاعب فيها بحركة مستديرة بواسطة قدمه اليمني من الداخل إلى الخارج، ويفعل اللاعب بعد ذلك الشىء نفسه بقدمه اليسرى، ثم يمر من اللاعب الخصم وكأن شئياً لم يكن.

هنا نظر إليّ عليّ بافتتان واعتبرني مدرباً بارعاً ، فقد كانت حركاتي الشارحة للعبة هادئة وبطيئة لدرجة أن الصغير عليّ استطاع أن يستوعبها، أما الشباب الثلاثة – وجميعهم أبناء إخوة لأبي سعيد – فقد تسلوا بها تسلية ممتعة، وهنا سأل أحدهم عليًّا أن يبين لهم هذه الحيلة الفنية مرة أخرى، وبالفعل أدى عليّ قفزة اللاعب «شفاينشتايخر» المزدوجة تقريباً ثلاث مرات بالسرعة نفسها التي قمت بها، ثم نظر إلي عليٌّ مرة أخرى متسائلاً، فحاولت أن أشرح له عن طريق أبيه أن ذلك هو الوضع السريع للقفزة المزدوجة، ثم شرع الشباب في اللعب مرة أخرى وشاهدتهم أنا وعلي، ولا زال علي يقيمني تقييمًا جيدًا، فهو لا يستطيع أن يؤدي الحيلة الفنية بالطريقة التي قمت بها.

يلعب أحد أبناء إخوة أبي سعيد كرة القدم ببراعة فائقة، فهو الذي بَيَّنَ لعلي الوضع السريع لقفزة «شفاينشتايخر» المزدوجة، فسألت أبا سعيد عن هذا الشاب الطويل القامة وكثير الحيل الفنية، فأجاب أبو سعيد مبتسماً، إنه زيد، فقلت: زيد المقاوم؟ كان عليّ أن أتنهد لحظة لألتقط أنفاسي، هل هذا هو الشاب الذي لم يطاوعه قلبه على القيام بتفجير العبوة الناسفة، لأن رجلا مدنيًّا مسنًّا كان يقف بالقرب منها؟ وهنا فركت عيناي مندهشا، فلم أكن أتصور مقاوماً عراقيًّا بهذه الصورة. وفي نهاية المبارة قام اللاعبون بتسديد ضربات جزاء من على بعد ستة أمتار، وكان المرمى عبارة عن سرير معدني قديم، يقف فيه زيد كحارس للمرمى، بينما يسدد نصف الشباب الكرة صوب المرمى، إلا أن زيداً يصد ببراعة فائقة، ثم ناداني زيدٌ وطلب مني محاولة التسديد عليه، وإن كنت غير محترف في تسديد ضربات

الجزاء، كما إنني لا زلت أرتدي الجلباب الطويل ولا أرغب في أن أكون مثيراً للضحك، إلا أن الجميع طلب مني أن أقبل هذه اللعبة.

قمت بالفعل بتثبيت الكرة وتحركت من على بعد مترين – حيث كنت أرتدي جلباباً أظهرني في صورة نادرة ، وركلت الكرة، وهنا لاحظت أن الجلباب قد تمزق حتى الركبة وسألت نفسي لائماً: لماذا لم أبقَ جالساً في مكاني وأترك هذا الأمر؟ إلا أننى رأيت أن الكرة قد سكنت الشِّبَاك بجوار قائم السرير الأيسر، محرزاً هدفاً، وهنا هتف الصغار وأخذوا يسخرون ضحكاً من الشباب، ثم أخرج زيد بعد ذلك الكرة من أسلاك السرير غير مصدق ما حدث، وحتى يأخذ بثأره طلب مني زيد أن أركل الكرة مرة أخرى نحو المرمى، لكن لم أفعل، فليس لي أن أفسد متعة انتصاري.

يسوق في هذه اللحظة شابان صغيران قطيعاً من الأغنام إلى قطعة أرض مجاورة إلى الداخل، وهنا يوذن الموذن لصلاة المغرب، فيأتي أبو سعيد وأبو حامد وكذلك أبناء إخوتهم بما فيهم زيد، يأتون بسجاد بدوي من البيت، وشرعوا يصلون جماعة وكان أبو سعيد إمامهم، ووقف الصغير عليٌّ بجوار أبيه في خشوع وحاول أن يقلد جميع حركات أبيه، بينما تُعِدُّ النساء خلف المنزل دجاجتين كن قد نتفن ريشهما أثناء مباراة القدم، وقمن بطهيهما على فرن طيني من إعدادهن يوقد بالخشب، ولم يستخدمن فرن الغاز الذي يعدّ أحدث من الفرن الطيني والموجود لديهن بالفعل، فسعر أسطوانة الغاز – وهي أسطوانة يبلغ ارتفاعها ستين سنتيمتر تقريباً – يبلغ الآن عشرين دولار أمريكيًا، بينما كان سعرها في عهد صدام حسين يساوي اثني عشر سنتاً فقط، وأبو سعيد – كسائر سكان مدينة الرمادي – لا يستطيع أن يجاري هذه الأسعار،

ومن العجب أن دولة تسبح على البترول لم تعد قادرة على مَدِّ سكانها بالطاقة، وتطلق النساء على الفرن الطيني الذي بَنَيْنَهُنّ بأيديهن سخرية بـ«فرن بوش»، وهنا قالت إحدى السيدات وهي تضحك سخرية:«شكراً يا سيد بوش، كنا نريد أن نعرف كيف كان الإنسان يقوم بالطهي في العصور المظلمة». وعلى الرغم من إمكانات الطهي المحددة، إلا أن النساء نجحن في إعداد مائدة مجهزة ومفروشة على أرضية الحديقة، تحتوي على حساءٍ لذيذ ودجاجتين طيبتي الطعم بفضل بهارات الكاري.

يأكل النساء والرجال – طبقاً لعادة أهل البلد – منفصلين، فقد جلست النساء على بُعد عشرة أمتار منا وأخذن يتناولن الطعام وهنّ يستطعمنهُ، كما يبدو أنهن كن يتحدثن عنا، فهن ينظرن دائماً إلينا ويتهامسن ويضحكن، وهناك امرأتان من أربع نسوة ترتديان العباءة، وهي عبارة عن رداء أسود يغطي جميع الجسد يتميز به أهل البلد، أما الأخريات فيرتدين ملابس ملونة مزركشة تصل إلى الكعب، وتغطي جميع النساء رؤوسهن بحجاب أسود، وتلبس الفتيات على الطراز الأوربي، وتزيّن في هذا المساء تزينًا خاصًّا، فتلبس شهلة تنورة جينز مع قميص وردي اللون، أما بنات أعمامها فيلبسن سراويل ألوانها مبهجة أو فساتين ضيقة، ورفعن شعرهنّ وزينَّه بأشرطة ملونة.

ومن العادة بعد الأكل تناول شاي ثقيل محلى بالسكر في أكواب صغيرة، وهنا حل المساء وتنامى إلى سمعنا من منازل الجيران ضوضاء لأطفال مبتهجين، ويكاد الوضع يوحي بالسلام ما لم تتواجد على بعد ثلاثة كيلومترات واحدة من أكبر القواعد الأمريكية في العراق تلك التي

تعطى يوميًّا إشارة وعلامة لسكان العراق بأن بلدهم محتل، وإن كانت الولايات المتحدة الأمريكية تركز من كثافة قواتها في بغداد، أكثر مما هو الحال عليه هنا في محافظة الأنبار الصحراوية.

ظهرت فجأة طائرات الأباتشي العسكرية، تحلق على ارتفاع خمسين مترًا فوقنا لمدة دقائق ، وأخذ أبو سعيد ينظر إليها متجهمًا، وشاهدنا أعلى طائرات الهليوكوبتر طائرة استطلاعية، يبدو أنها إف 16، تقوم بجولتها الروتينية المسائية فوق المثلث السُّني، وفجأة تحول الهدوء والسلام إلى سراب، فتوقف الحديث وانزوت النساء إلى داخل المنزل.

جلس زيد أمامي صامتاً، فهو شاب وسيم، يدرك هذه الصفة تماماً في نفسه، لأنه عندما يتحدث مع بنات عمه يبدي لهن وسامته وجاذبيته عن قصد، إلا أنني أشعر أنه يريد أن ينقل إليهن بذلك شيئا ما، فهو عندما يدرك أن أحداً لا يراه، تبدو على عينيه علامات الحزن وكثرة التأمل، وابتسامته الشبابية المرحة، هي ابتسامة رجل شاب، يحاول بشتى الطرق ألا يفقد عقله في هذه الحرب الطاحنة. لا بد أن أعرف حكاية زيد وقصته، ولكنه لايريد ذلك، فهو لا يريد أن يعرِّض حياة أسرته للخطر، لا يريد أن يُذهب به إلى غوانتانامو الكوبية ولاغوانتانامو العراق، كما أنه لا يريد أن يفصح عن معاناته ومعاناة عائلته، وألححت عليه بالقول، لكنني لاحظت أنه لا يستطيع ولا يريد الكلام، وتدخل أبو سعيد الذي تابع حوارنا صامتاً، فوضع ذراعه على زيد، وقال: «أمهله بعضاً من الوقت، فهو يريد الآن أن ينام، وقد يحكي لك حكايته غداً، فهو يجب أن يتحدث مع أبيه عن ذلك

فالأمر لا يتعلق به وحده، فضلاً عن ذلك فإنك سوف تتعرف – وفق ما تريد – على كثير من المقاومين الآخرين».

أومأت هنا برأسي وقلت: «أعلم ذلك، لكنني لا أريد حكاية مختارة ومنتقاه من أجلي، أريد حكاية زيد». وهنا نظر إليّ أبوسعيد مبتسماً، وقال:« أليس لديك بعضٌ من الصبر، سوف تعلم قصته إن شاء الله.»، وبعد ذلك اصطحبنا أنا وأبو سعيد زيداً إلى بوابة الفناء، ثم اتجه أبو سعيد إلى عمله المفضل، ألا وهو الاتصال بالهاتف، حيث قام بمحادثات تليفونية عديدة من هاتفه القديم، ويبدو أنه اتصل بوالد زيد، لأن اسمه ذُكر مرات عديدة.

ليلتي الأولى في مدينة الرمادي

حلَّ في هذه الأثناء ظلام ليلي دامس، انضم إلينا فيه إمام مسجد الجزيرة، وهو رجل بدين، اشتعل رأسه شيباً، ألقى عليّ محاضرة عن وحدة الأديان الثلاثة وبَيّنَ لي فيها أن موسى وعيسى بالنسبة له كمسلم من أعظم الأنبياء، لكنني لم تعد لدي قدرة على الاستيعاب، فسألته عما إذا كان قد قرأ الإنجيل أم لا، فأجاب بأنه لم يقرأه، لكنه يحفظ القرآن الكريم كاملاً عن ظهر قلب، وهنا هنأته على ذلك، ثم قام الإمام في وقار ليؤدي صلاة العشاء، ويعطي المأمومون السبعة المتجهون صوب الكعبة بملابسهم البيضاء صورة مؤثرة، حيث يتقدمهم إمام الجزيرة، وتعد مهارة الإمام البدين أثناء تأديته لحركات الصلاة المجهدة جديرة بالإعجاب.

إنّ منظر عليٍّ الواقف أمام المصلين، وفي يده خرطوم لرش الحديقة بالماء منظر مؤثر ومضحك، حيث انـزلق الخرطوم من بين أصابعه وأغرق الإمام عن غير قصد بالماء تماماً، إلا أنّ الإمام واصل صلاته بثبات ودون ارتباك، لكن الأطفال الذين خرجوا من المنـزل بعد انتهاء تحليق طائرات الهيلوكوبتر، وجلسوا على بعد أمتار منّا على عُشبَ الحديقة – لم يستطيعوا كتم ضحكاتهم، وبدأ عليٌّ يشعر بالملل لأن الصلاة استغرقت وقتاً طويلاً، وهنا أحضر الكرة وطلب مني – وهو يمثل ويقلد حركات أقدامي – أن أُبينَ له أمام المصليين «القفزة المزدوجة» للاعب الألماني «بستيان شفاينشتايخر»، ولم يعد الأطفال قادرين على التماسك وانفجروا الآن بالضحك، بينما وضعت سبّابتي على شفتيّ لأوضح لعليٍّ بأنني لا أستطيع أن أشرحَ له مساء اليوم الحيل الفنية لكرة القدم خاصة أمام المصلين والأطفال تتعالى صيحاتهم ضحكاً.

بعد قرابة ساعتين من هذا المشهد، أي قبيل انتصاف الليل بقليل، بَيّنَ لي أبو سعيد كيف يتم الآن إطلاق القنابل المضئية ليلاً في أجواء السماء على بُعد كليو مترين من منـزله، حتى بدت أجزاء كبيرة من مدينة الرمادي، وكأنها تسبح في ضوء ساطع، وحلقت طائرات الهيلوكوبتر إلى أعلى، وهي تبحث عن أهداف أو أشخاص، واستغرقت مناورة الاستطلاع الليلة تلك قرابة عشرين دقيقة، لم يُسمع أثناءها دوي إطلاق النار، ثم انتهت بعد ذلك ألعاب الأشباح النارية.

هنا سألتُ أبا سعيد عن المكان الذي أنام فيه، فضحك، وهو منشرح الصدر ، وأجاب: في المكان الذي تريده، إما في غرفة الضيوف ذات

التدفئة الجيدة، أو في العراء ذي الجو اللطيف بالخارج، حيث تنام أسرته على عُشبِ الحديقة التي تبلغ درجة حرارتها خمسًا وثلاثين درجة مئوية؛ وانقطع منذ ساعات التيار الكهربائي، كما توقف المولد الكهربائي عن العمل مرة أخرى.

سرت مسترخياً ومجهداً نحو غرفة الضيوف، إلا أنها كانت شديدة الحرارة، حتى أننى تبللت بعد عشر دقائق من شدة العرق، فعدت مستسلماً إلى الحديقة، ورقدت تحت شجرة نخيل ضخمة على مرتبة إسفنج رقيقة، بعيداً عن فِراش الرجال والنساء، الذي فُصل بينهما بكراسي بلاستيك بيضاء مغطاة بحصائر وبأوارق كرتون مقوى، والمرة الأخيرة التي نمتُ فيها في العراء كانت في الثمانينيات في جبال «هندكوش» Hindukusch مع المجاهدين، وعزمت آنذاك عزماً أكيداً على ألا أقضي في المستقبل ليلة بهذه الطريقة المجهدة، ولكن مجبر أخاك لا بطل.

السماء صافية.. إلا أنني لا أستطيع النوم، فحملقت في السماء وسألت نفسي مرة أخرى عمّا أفعل هنا، كم كان جميلًا لو كنت الآن أرقد في منزلي على سريري المريح، فأنام نوماً عميقاً، لكنني أنام الآن مرتدياً جلباباً يتفصد عرقاً تحت شجرة نخيل، ولا أجد طعماً للراحة.

بعدما نجحت في النوم بعمق، سمعت فجأة – في زهاء الساعة الثانية ليلاً – دوي إطلاق المدافع وأصوات طائرات الهيلوكوبتر، فقفزت من نومي وذهبت صوب سور الحديقة، حيث وقع تبادل لإطلاق النار في المكان، الذي تمَّ فيه إطلاق القنابل المضيئة قبل ساعات قليلة، وتحلق

الآن طائرات الهليوكوبتر فوق هذا المكان كما يسمع دوي الانفجارات، ولم يستغرق هذا كله أكثر من نصف ساعة، حتى غادرت الهليوكوبترات وعاد الهدوء.

رقد أبو سعيد في هدوء بجواري، فسألته عما يحدث من اشتباكات، على الرغم من الاتفاق على هدنة في مدينة الرمادي، فأجاب مبتسماً بأنه لا علم له بذلك أيضاً، فالمقاومة تتكون من مجموعات كثيرة يصعب التحكم فيها، ولكن من المحتمل أن تكون هناك فلول من مقاتلي القاعدة الأجانب، فضلاً عن ذلك فإن وقف إطلاق النار لا يسري إلا في منطقة مدينة الرمادي، أي في محيط أربعة كيلو مترات منها، أما في أطراف المدينة فلازال القتال دائرًا فيها، ويقاتل رجال العشائر الأمريكان في الليل بينمايشاركون في الصحوات التي أقامها الأمريكان في النهار، وأضاف : قد يستطيع الأمريكان تأجير بعض العراقيين، لكن ليس من الممكن شراؤهم.

يتواصل القتال كذلك يوميًا في أرجاء البلاد، فتمَّ على سبيل المثال بعد ظهر اليوم تفجير مصفحة بالقرب من مدينة الرمادي وبالتحديد في الطريق المؤدي إلى بغداد، ولقي في هذه العملية كثير من الجنود الأمريكان وبعض من أفراد المقاومة حتفهم، إلا أن القتال في قلب مدينة الرمادي قد خفَّت وتيرته في الوقت الحالي، ولكن لم ينقطع تماماً؛ وكما قَدِمَ إليّ أبو سعيد بهدوء، فقد عاد كذلك بهدوء إلى فراشه، ورقدت مرة أخرى على مرتبتي الرقيقة، وغلبني في النهاية نوم عميق لم تنغصه الأحلام.

أحلام زيد

دوت من جديد – وبالتحديد بعد الساعة السادسة صباحاً بقليل – أصوات طائرات الأباتشي فوق المنـزل وقطعت عليَّ نومي، وفي هذه الأثناء كانت الشمس قد أشرقت بالفعل، وهنا أيقظ أبو حامد الأولاد الملتفين في غطائهم من على مراتبهم الإسفنجية، حيث يستيقظ المرء عادة في مدينة الرمادي في تمام الساعة السادسة صباحاً.

أغفلت ما يحدث حولي وأردت مواصلة النوم، لكن لا حيلة لي بذلك، فمن جديد حلقت طائرتا هيلوكوبتر فوق المنـزل بانخفاض شديد، حتى أنني لم أفكر في نوم هادئ مرة أخرى، يا لها من نوبة صحو غير رحيمة! فجررت ساقي مجهداً إلى الحَمَّام ووقفت تحت الماء، الذي لا زال دافئًا بضع دقائق، ثم قدّمَ لي بعد ذلك أبو سعيد كأساً كبيراً من الشاي، حيث رأى الصعوبة التي أعانيها في فتح عيناي، وأخذت الحياة تَدُبُّ فيّ شيئاً فشيئاً مرة أخرى.

ثم أحضر لي أبو سعيد بنفسه خبزاً ومربى مصنوعًا في المنـزل، فأكلت وشربت شاكراً لفضله، ثم حاولت بعد ذلك أن أحلق ذقني أمام مرآة شاحبة، ولم أقترب من شاربي كي لا أمسّه بسوء، فأضحيت معترفاً بالجميل للمرآة، التي لم تبدِ وجهي إلا كالطيف، ولا يألف عناء السفر الطويل وجهد نوم الليالي المتقطع إلا قليل من الرجال.

جلست بعد ذلك منـزوياً في إحدى أركان الحديقة الوارفة ظلالها، وشرعت في تدوين بعض الملاحظات، وفجأة ربت شخصٌ ما من الخلف على كتفي، فاستدرت مبصراً زيداً، فقال بصوت منخفض وفي حيرة: «لقد أردتَ الحديثَ معي!»، ويرتدي زيدٌ سروال جينز أزرق وقميصًا

أحمر باهتًا وحذاءً رياضيًّا ماركة أديداس المقلَّدة، ويحمل في يده اليسرى على استحياء – مثل تلاميذ المدارس – علبة سجائر سورية المنشأ، حيث كان التدخين مكروهاً ومعرضاً للخطر، عندما كانت القاعدة منتشرة في مدينة الرمادي.

تحرك زيدٌ من حي «الصوفية» الذي يقيم فيه في تمام الساعة السادسة صباحاً، وكانت المسافة تستغرق من حي «الصوفية» إلى «الجزيرة» فيما مضى، قرابة خمس عشرة دقيقة، وتستغرق الآن بسبب نقاط التفتيش وإغلاق الشوارع قرابة الساعتين والنصف، كان زيدٌ قد تحدث مع أبيه عن إمكانية روايته لي عن وقائع حكاياته وقصصه مع المقاومة، فسمح له بذلك، وهنا بدأ زيد يروي لي قصَّته بصوت منخفض، وعلى مهلٍ.

بينما كانت الحرب العراقية الإيرانية لم تضع أوزارها بعد، أبصر زيدٌ النور في عام 1986.. يمتلك والداه محمد وأميرة في حي الصوفية متجراً صغيراً لبيع المواد الغذائية، ومن خلاله وصلا بأسرتهما إلى بر الأمان على الرغم من سنوات الحرب العجاف وأوقات الحصار، حيث كان هناك ما يمكن تناوله من الطعام، حتى وإن وصل الأمر إلى تناول الخبـز فقط.

بعد انتهاء حرب الخليج الثانية أثر مهاجمة العراق للكويت، والتي خسر العراق معركتها في عام 1991 أمام قوات التحالف التي قادتها الولايات المتحدة الأمريكية.. بعد هذه الحرب أصبحت الأيام أشد قسوة في العراق، حيث أثقل الحصار الاقتصادي على البلاد كاهل الأسرة، حتى أن عائلة زيد ذات الأفراد السبعة لم تحظَ بالفواكه أو

باللحوم إلا في الحالات النادرة، وحسبما يروي زيد ويتذكر، فإن أبواه ذاقا مرارة المعاناة أكثر من أولادهما الخمسة ذكوراً وإناثاً، حيث كان إذا وقع تحت أيديهما شيء من الطعام، قدماه على الفور إلى الأطفال، وكان عليهم الآن أن يعملوا أضعاف ما عملوا من قبل، حتى يخففوا من معاناة الأسرة، ويروي زيدٌ بأن أطفالًا صغارًا لا حصر لهم من أبناء الجيران ماتوا؛ لأن الرعاية الطبيبة في البلاد قد تهدمت أركانها من جراء الحصار المفروض من مجلس الأمن، كما وصل حال التغذية في البلاد إلى وضع يرثى له.

لم تعِ ذاكرة زيد الكثير من هذا الوقت العصيب، حيث كان يستغل مع أصدقائه كل لحظة فراغ، حتى يلعب معهم كرة القدم على ملعب قريب، وكان يلعب بالطبع حافي القدمين، لذلك كان يرجع غالباً إلى المنزل وأصابع قدميه تُدْمِي، وعندما كان أبوه يعنفه بسبب إهماله في واجباته المدرسية، كان يحتمي ويختفي وراء والدته التي كان تدافع عنه كثيراً، كما كانت تحميه الأم دائماً من الأب القاسي، وذلك عقب أفعاله الشقية في المدرسة، التي يروي عنها زيد بأعين متألقة. ودفاع الأم عن زيد كان يلازمه دائماً، سواء قام بفعل شيء أو لم يقم، وإن كان يغلُبُ عليه فعل الأشياء الشقية.

قام فصل زيد ذات مرة بأداء الامتحان في مادة اللغة الإنجليزية، وكان زيدٌ قد سجل على مفكرة له بعض كلمات اللغة الإنجليزية، التي لا علاقة لها بمضمون ومحتوى الامتحان، إلا أن أستاذ زيد اعتقد أنه يريد الغش، فطرده من الفصل، على الرغم من معارضة زيد الشديدة، لذلك كان زيد مستاءً للغاية ؛ خاصة لشعوره بالملل وهو بمفرده في فناء

المدرسة. وكما يروى زيد ، فقد خطرت بباله فكرة عبقرية، حيث رجع إلى الفصل، وقال لأستاذه، بأنه ليس هو الوحيد الذي أراد أن يغش، وإنما هناك سبعة من زملائه أردوا فعل الشىء نفسه، ثم أشار بعد ذلك بيده إلى أفضل سبعة يلعبون كرة القدم في الفصل، والذين يلعب معهم عادة كل مساء كرة القدم.

بالفعل غادر السبعة حجرة الفصل وهو يسبون ويلعنون، وتوعدوا زيداً بالضرب المبرح، ولكنه قال لهم بعد ذلك بأن اختياره لهم لم يكن هباءً، وإنما ليلعب معهم كرة القدم، فدونهم سيكون الأمر غاية في الملل، وهنا ضحك الجميع من أصحابه وعادت المياه إلى مجاريها مرة أخرى، حيث سار زيد مع أصحابه إلى الملعب وبدأوا يلعبون كرة القدم، أمّا بقية الفصل فواصلوا تأديتهم لامتحان اللغة الإنجليزية، وهم يتصببون عرقاً داخل حجرة الفصل.

ومن إحدى مقالب زيد المدرسية، أنه قدم لأستاذ الرياضيات علبة بيبسي كولا أثناء الاحتفال بنهاية العام الدراسي، قدمها له باسم الفصل بناءً على اختيار هذا الأستاذ بأنه أفضل أساتذة الفصل، قَبِلَ الأستاذ هذا التكريم وفتح بامتنان العلبة الباردة، لكنه لم يلاحظ بأن زيداً كان قد رجَّ العلبة قبل أن يقدمها له رجًّا شديداً، وبمجرد أن فتح الأستاذ المشروب حتى تطاير عن أخره على وجه الأستاذ وعلى بدلته، وسَعِدَ الفصل بذلك أيمّا سعادة على عكس الأستاذ ، وكان هناك بالطبع في منزل زيد غضب شديد من ذلك، وكالمعتاد دافعت الأم عنه أمام الأب الغاضب.. يواصل زيد راوياً بأن والدته طباخة ماهرة، فإذا حدث استياء من زيد في المنزل، كانت تطهي له دائما أفضل المأكولات التي

يشتهيها ويحبها مثل الكباب والطماطم والفلفل المحشي، لذلك كان زيدٌ يبتسم بسعادة بالغة عندما يتحدث عن أمه.

كان عمر زيد خمس عشرة سنة، عندما قاد إرهابيو القاعدة طائرات المسافرين في 11 سبتمبر 2001 نحو مركز التجارة العالمي. بعد هذا الحادث بأسابيع قليلة حامت الشبهات في التلفاز للمرة الأولى حول ارتباط العراق بالقاعدة، ومن هنا بدأ الحديث حول إمكانية الحرب الأمريكية ليس ضد أفغانستان فحسب، وإنما ضد العراق أيضاً، إلا أن زيداً اعتبر ذلك ضرباً من الهراء، فهو لا يعرف أحداً في عالمه الصغير يعلم عن القاعدة شيئاً.

تعد مسألة امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل – على الرغم من الحصار الاقتصادي وفرق تفتيش الأمم المتحدة التي استمرت أعواماً طويلة – بالنسبة لزيد دعاية أمريكية مخالفة للمنطق؛ إذ كيف يُمكن للعراق أن يكون قادراً على إنتاج أسلحة الدمار الشامل وهو المراقب مراقبة شديدة – أو كما يسميه زيدٌ عراق 2001 -؟ لا يمكن لأحد أن يصدق هذا الغباء، وليس لأحد في الغرب كذلك أن يأخذ هذا الاتهام للعراق مأخذ الجد، فالمفروض ألا يكون هناك مَنْ هو غبي أو سيئ النية بهذه الدرجة. ولذلك لم تكن هناك ،برأيه، مبررات للحرب على الإطلاق ،فلا زال في العالم بقية من العدالة لا بد أن تشمل العراق.

عندما اندلعت الحرب في مارس عام 2003، كان زيد مقتنع اقتناعاً يقينيًّا بأن العراق سوف يكسب الحرب، فكان يُصَدِّقُ صدام حسين الذي كان قد ذكر أكثر من مرة بأن الولايات المتحدة الأمريكية ليس لديها أي فرصة للانتصار أمام العراق، لذلك كان زيد يشارك في الصلوات اليومية

التي كان يتضرع فيها أهل مدينة الرمادي بالدعاء طلباً للعون الإلهي، وكان زيد يجلس أمام التلفاز مع أصدقائه ساعات طويلة ليتابع تقارير الحرب.

اعتقد زيدٌ أن التحول في الحرب قد وقع بالفعل، عندما أعاقت عاصفة رملية شديدة الزحف الأمريكي نحو العراق لبضعة أيام، اعتبر بذلك أن الله يقف بجانب العراقيين، وكان يأخذ كل كلمة يقولها المتحدث باسم الحكومة العراقية آنذاك «محمد سعيد الصحاف» مأخذ الجد،[17] وخاصة عندما أعلن أن «بلير» و«بوش» و«رامسفيلد» هم ثلاثي مضحك، وسوف يعين الله العراقيين على شيّهم في جحيم العراق.

أكد «الصحاف» أمام الصحفيين مفتخرًا بأنه لا وجود للجنود الأمريكين في بغداد، بينما كانت الدبابات الأمريكية تقف في منتصف بغداد بالفعل، وقال: «إن الجيش الأمريكي ينهزم في كل الجبهات وأن جنوده ينتحرون على أسوار بغداد. ويقول زيدٌ يقيناً بأن الناس في الغرب كادوا أن يموتوا ضحكاً من أقوال الصحاف، ولكن الشعب العراق تشبث يائساً بكلمات «الصحاف»، حيث كانت أراؤه بالنسبة لهم الأمل الأخير؛ وبمجرد الإعلان عن الهزيمة، كانت ذلك بالنسبة لزيد نهاية العالم.

ظهرت الدبابات الأمريكية في مدينة الرمادي للمرة الأولى في نهاية أبريل عام 2003، يروي زيدٌ بأنهم رشقوا في البداية الدبابات بالأحذية وبالحجارة والطماطم الفاسدة، فلم يستقبل الشعب العراقي الأمريكيين بالترحاب ولا تملكه الخوف والرهبة منهم آنذاك، ولقد تمّ احتلال مدينة الرمادي على مراحل، فاحتلت القوات الأمريكية في البداية التقاطعات المرورية الكبيرة، ثم احتلت بعد ذلك المباني

المهمة، ثم أُغلقت بعض الشوارع، وفي النهاية تمّ تقسيم المدينة إلى أحياء متناثرة ومنفصلة عن بعضها فصلاً تامًّا.

عاد أفراد القوات العراقية إلى بيوتهم بعد أن نزعوا لباسهم العسكري، وسرَّح الأمريكان جميع أفراد الجيش والأجهزة الأمنية، وأصبح الجميع بين عشية أو ضحاها لا عمل لهم، كثير منهم انضم مباشرة إلى المقاومة بكامل أسلحتهم وخبراتهم، بينما غادر الباقي منهم إلى الخارج.

اشتدت وطأة حياة سكان مدينة الرمادي يوماً بعد يوم، حيث اعتادت الطائرات الأمريكية قصف مواقع المقاومة المزعومة وإزالة عائلات كاملة من الوجود، وكان القناصة الأمريكان يطلقون نيران أسلحتهم من أعلى مباني المدينة على كل من يرتابون فيه، ولم يكن من ضحاياهم إلا المدنيين غالباً، فالمقاومون يعرفون عادة ما يتوجب عليهم فعله حتى لا يقعوا فريسة للقناصة.

أنهى زيدٌ شهادته الثانوية في يونية/حزيران 2004 وكان عمره آنذاك ثمانية عشر عاماً، وهذا هو العمر المعهود لنيل الشهادة الثانوية، أراد زيدٌ أن يلتحق في خريف هذا العام بجامعة الأنبار الكائنة بمدينة الرمادي ليدرس التاريخ مثل عمه أبي سعيد ويصبح مُدرسًا، ويعرف زيدٌ جميع حيل وَعَفْرَتة الأولاد، فهو كان واحدًا منهم، فلن يخدعه أحد.. يريد زيدٌ أن يربي مواطنين مهرة واثقين بأنفسهم وأن يبين لهم جدوى الحياة وفائدتها، فكان في غاية السعادة بمهنته المستقبلية، لذلك — حسبما يروي زيد — لم ينخرط زيد في صفوف المقاومة بشكل فعال، فهو لم يهتم بالأمور العسكرية، قدر اهتمامه بدراسة التاريخ، فضلاً عن

ذلك فهو لا يريد أن يعرض أسرته للمخاطر، وسلك أخواه هارون وكريم السلوك نفسه، فلا جذور للطابع العسكري بين أفراد أسرته.

حتى حلَّت في يونية/حزيران عام 2006 الكارثة التي هزّت أركان عائلته الصغيرة، وهنا يمسح زيدٌ بيده اليسرى عينيه، ليخفي مشاعره، ثم بدأ يضرب بيده اليمنى على حشائش الحديقة دون جدوى، وربت أبو سعيد – الذي أقبل علينا في هدوء – على كتفي زيد، وقال مقاطعاً لزيد:« علينا أن نذهب الآن، هناك مَنْ ينتظر الدكتور، يمكنكما أن تواصلا الحوار غداً.»، تشير عقارب الساعة الآن الواحدة ظهراً، أما مؤشر مقياس الحرارة (الترمومتر) فيشير إلى ثمان وأربعين درجة مئوية. ببطء شديد سرنا نحو السيارة الشيفروليه المتربة تماماً وانطلقنا بها، وكان زيد يصطحبنا في هذه المرة.

سارت السيارة فوق شوارع غير ممهدة تشق طريقها عبر مدينة النخيل، ومرت كذلك بنقاط تفتيش لا نهاية لها في اتجاه «الصوفية».. مررنا ببيت زيد، ثم التففنا بالسيارة مرتين حول مجموعة من المنازل واستدرنا فجأة، وكأن السائق موسى أراد أن يتخلص من تتبع أحد الناس له، ويبدو أن هذا الذي أراده موسى بالفعل.

ثم توقفنا أمام أحد المنازل القديمة، وهنا فُتحت بوابة، فعرجنا بسرعة إلى داخل الفناء، ثم أغلق أبو سعيد بعد ذلك البوابة بإحكام، وكان يجلس بجانب المنزل مجموعة تتكون من خمسة رجال، أخذوا ينظرون إلينا بفضول عندما ولجنا متخفيين إلى داخل البيت، ووجدت صعوبة بالغة في التعرف على الأشياء بسبب الظلام المطبق داخل غرفة بسيطة، لا توجد بها إلا ثلاثة كراسي متهالكة ومائدة خشبية متواضعة،

وهنا قال لي أبو سعيد:« لقد وعدتك بترتيب لقاءات لك مع الناشطين من أفراد المقاومة.»، ويسعى أبو سعيد دائماً للوفاء بعهده، حيث كان يجلس بالخارج أفراد من المقاومة العراقية ينتمون إلى فصائل مختلفة، وهم على استعداد ليرووا لي عن حكاياتهم مع المقاومة، وهم سيسمحون لي أن أطرح ما أريد من أسئلة، ولكنهم لا يسمحون لي أن أسألهم عن بياناتهم الشخصية أو أقوم بتصويرهم.

كنت مندهشاً للغاية لهذا الموقف، حيث كانت هناك صعوبة بالغة في استخراج مكنون صدر زيد، إلا أن أبا سعيد قد نجح الآن بالفعل في جمعي بعدد غير قليل من أفراد المقاومة! لذلك وافقت على جميع شروطهم، ثم تقدم أبو سعيد بعد ذلك نحو الباب وأعطى إشارة للمجموعة للاقتراب، ثم اتخذ مكانه بجواري ليقوم بالترجمة.

عُمَر

كان عمر أول من دخل عليّ – وهو عراقي لطيف، قامته ضخمة، قادم من مدينة الموصل ويبلغ من العمر ستًا وثلاثين عاماً – وجلس معي بجوار مائدة مزعزعة الأركان، صافحني بقوة شديدة، لدرجة أنني عزمت عزماً أكيداً على أن أودعه بكلمة «مع السلامة» بدلاً من أضع يدي مرة أخرى في هذا الكف الضخم.. يرتدي عمر قميصًا مقلَّمًا أزرق وسروال جينز، لذا فهو يبدو كالممثل «بود سبنسر» في سنوات شبابه الأولى، إلا أن نظرة عمر أكثر تفاؤلاً ووضوحاً للحياة.

كان عمر يجاهد منذ البداية بجانب المقاومة العراقية، حيث فَقَدَ أثناء غزو القوات الأمريكية للعراق عشرة من أقاربه، كان من بينهم

أكبر أولاده سنا، «مازن»، وحسبما يروي عمر كان لمازن تسعة أعوام عندما قتله الجنود الأمريكان، لن ينسى والد مازن طيلة حياته نظرة ابنه المستجدية للمساعدة عند وفاته، وكادت أعين مازن أن تنطق راجية الأب: ساعدني يا أبي! لقد ساعدتني على الدوام، ولكن الأب وقف عاجزاً عن تقديم المساعدة لابنه.. لقد مات مازن وهو ينزف دماً في أحضان أبيه، حتى أن الموقف قد هال بعض الجنود الأمريكيين عندما رأوا مازن وهو يحتضر.

وبدا وجه عمر الذي كان منذ لحظات قليلة ودوداً، بدا الآن واجماً، فطأطأ رأسه وحاول أن يحافظ على صبره، وبعد برهة قليلة طلب مني راجياً ألا أطرح عليه أسئلة أخرى بخصوص ابنه، حيث تستدعى تلك الأسئلة ذكريات مريرة له. عندما انضم عمر إلى صفوف المقاومة العراقية، حصل على دورة تدريبية على أيدي الضباط العراقيين السابقين، أما اليوم فيقود عمر مجموعة من المقاومين العراقيين قوامها 250 مقاوماً، تعكسر في مدينتي كركوك وتكريت.

ويقبع والد عمر وأحد أخويه في السجن منذ عام ونصف، دون أن يعلم هو والأسرة مكان سجنهما، وقبض الأمريكان آنذاك على عمر، ولكنه تمكن من الفرار بعد القبض عليه بثلاثة أشهر وعشرة أيام، وعلى الرغم من أن عمر ذكر للجنود الأمريكان عند استجوابه صراحة أنه من أفراد المقاومة العراقية، إلا أنهم عاملوه معاملة حسنة في السجن الذي لم يذكر لي اسمه، ولم يتم تعذيبه في السجن، حتى أن طبيبة عالجت له آلام الأسنان التي ألمت به، فقد كان محظوظًا في سوء الحظ الذي هو فيه.

يُكِنُّ عمر الاحترام للجنود الذين استجوبوه نظراً لمعاملتهم الإنسانية له، ويُعبر عمر عن ذلك على الرغم من علمه بما يحدث من تجاوزات لا تُغتفر في معظم السجون، ولكنه لن يقبل بالأمريكان كمحتلين لبلاده بأي حال من الأحوال، حتى أن بعض الجنود الأمريكان اعترفوا له بأنفسهم أنهم ضد احتلال العراق، فهم يعلمون جيداً بأنهم ليس لديهم ما يبحثون عنه في هذا البلد.

منذ أمد طويل، لم يرَ عمر أسرته التي تعيش على الزراعة، ويذكر عمر أن هناك كثيرًا من المخبرين الذين يتعاونون مع المحتلين، لذلك فهو لم يشارك في جنازة أمه،التي ماتت منذ عام خشية إلقاء القبض عليه في الحال، كما لم يُسمح لأبيه بالمشاركة في الجنازة.

وكما يذكر لي عمر، فهو مسلم ملتزم تابع في الوقت نفسه للقوميين البعثيين، ويُبينُ عمر أن نجم البعثيين قد علا وسطع مرة أخرى بعد الفوضى وحمام الدم اللذين أحدثهما الغزو الأمريكي، ولقد أعطى موقف وثبات صدام حسين عند إعدامه دفعة خاصة للبعثيين، حتى أن عمر نفسه يفخر بأن صدام حسين تقدم إلى الموت، وهو مرفوع القامة، لقد صنع بوش من صدام حسين بطلاً.

ووقفت لوداع عمر الذي تفحصني بعينيه طولاً وعرضاً وهو يتأمل، ثم قال لي بثبات وجدية، بأن المقاومة لا تهاجم الصحفيين على الإطلاق، ثم بينت له بأنني لست صحفيًا وإنما مسؤول إعلامي، فضحك ورأى أنه لا فرق بين هذا وذاك، فعلى الرغم من ذلك أعتبرني عمر ضيفاً حللت على بلده، ولكن العراقيين ينظرون بعين الريبة لمراسلي الإعلام الغربي.

وكان عمر في غاية الاندهاش من عدم تفريق المراسلين بين المقاومة العراقية ضد الاحتلال، والإرهاب ضد السكان المدنيين، القادم من خارج البلاد، ويرى أنه من العجيب اتهام المقاومة بالاختفاء في الأحياء السكنية بين المدنييـن؛ ويتســائـل قائـلاً: «في أي مكان إذن يقيم أفراد المقاومة العراقية؟ ليس لأفراد المقاومة معسكرات تؤويهم، فالمقاومة العراقية تتكون من أفراد متطوعين، فالكثير منهم عليه أن يعمل طوال اليوم لكسب قوت عائلته، فضلاً عن ذلك فالشعب يقف في معظم المناطق العراقية بثبات وراء المقاومة».

وهنا وقف عمر وصافحني مرة أخرى بإحدى راحتيه الضخمتين، وإن كنت قد عزمت عزماً أكيداً من قبل على ألا أقترف هذا الخطأ مرة أخرى، إلا أنه قد كان، ولاحظ عمر كيف أنني لويت وجهي ممتعضاً ونفضت يدي اليمنى ألماً، فقال لي وهو يضحك ضحكة عريضة: «معذرةً!» ثم عانقني في المرة الثانية، وتمنى لي ألا تُصاب بلدي بأذى مثلما أُصيبت بلاده، ورجع بمشيته التي تضاهي مشية الممثل «بود سبنسر»، إلى رفاقه المنتظرين في الحديقة.

مُحَمّد

لم تسترحْ راحتي اليمنى من مصافحة عمر بعد، وإذ برجل أكبر من عمر متوسط القامة، ذي مسحة أبوية يقف أمامي، ويبلغ من العمر واحدًا وأربعين عاماً، فهو يصغرني سنًّا بقرابة خمس وعشرين عاماً، حيث يرتدي سروالاً لم تلمسه المكواة منذ أمد طويل، وقميصاً رماديًّا نصف كم، كما تعلوه سمات الوقار والهيبة.

قدم لي نفسه باسم محمد، الذي يبدو اسماً مستعاراً، ولأسباب أمنية لم يقدم أحد في هذا اللقاء اسمه الحقيقي، وبعد نظرة سريعة على كلتا راحتيه الضخمتين تخليت عن مصافحته باليد، لذلك وضعت يدي اليمنى على صدري وأومأت برأسي تحية له، وهي تحية معهودة ومعروفة منذ أمد طويل في المنطقة العربية.

لقد كان محمد أستاذاً سابقاً في جامعة بغداد، وهو شيعي المذهب، وباعتباره عضوًا في حزب البعث انضم محمد إلى المقاومة بعد الغزو الأمريكي للعراق بأسابيع، وهو الآن قائد لمجموعة من المقاومين تتكون من وطنيين وبعثيين وإسلاميين معتدلين، ويبدو أنه إحدى الشخصيات القائدة في المقاومة العراقية، فهو ليس قارئًا جيدًا فحسب، وإنما هو ملمٌّ إلماماً جيداً ومدهشاً بالقضايا السياسية.

روى لي محمد أنه انضم للمقاومة العراقية؛ لإنهاء مهزلة تركيع وإذلال الشعب العراقي، حيث تقوم قوات الاحتلال في حملاتها الليلية بصفة دائمة بقذف الرعب في قلوب العائلات داخل منازلها، كما تقوم بإهانتهم وإذلالهم، فهم يحملون معهم عادةً جميع من في البيت من الرجال وأحياناً النساء والمسنين والأطفال، دون سبب يُذكر، ويحتجزونهم في السجون شهوراً طويلة.

لقد ألقت قوات الاحتلال منذ عهد قريب في مدينة الموصل القبض على رجل مسنّ؛ لأنه قيل إن ابنه قد انضم إلى صفوف المقاومة.. لقد أوثقه جنود الاحتلال قرابة خمسة أيام في القيود ووضعوه على أرض حجرية صلبة، ثم جلس بعد ذلك الجنود مستريحين على كرسي وثير، وأخذوا يدوسون بأحذيتهم على رقبة ووجه الرجل المسن ساعات

طويلة، حتى يتنزعوا منه اسم المكان الذي اختفى فيه الابن، إلا أن الرجل لم ينطق بكلمة واحدة. أما أخو محمد المصاب بمرض القلب والبالغ من العمر خمسين عاماً، فقد تم حجزة لأسابيع طويلة في زنزانة مظلمة، دون تقديم أي رعاية طيبية له رغم مرضه، حتى يجبروه على الإدلاء بمكان إقامة أخيه.

على الرغم من أن محمداً لم تتوافر له فرصة السفر إلى أمريكا على الإطلاق، إلا أنه يعتبر الولايات المتحدة الأمريكية دولة عظيمة، فهو يحارب القوات الأمريكية ليس بصفتهم أمريكيين، وإنما بصفتهم محتلين لبلاده، ولا يجول بخاطره غباء هذه الحرب ولا غباء السياسة الأمريكية، فهو على يقين بأن الجيش الأمريكي لن تكون له أية فرصة في العراق، بعد أن شكلت المقاومة العراقية قوة عسكرية مقابلة سوف تجبر الولايات المتحدة الأمريكية يوماً ما على سحب قواتها من العراق.

يُقدِّرُ عُمر بأن البعثيين و الوطنيين المستقلين يمثلون من أربعين إلى خمسين في المائة من أفراد المقاومة العراقية، التي يزيد عددها على مائة ألف مقاوم، ويعادل الإسلاميون المعتدلون القوة نفسها تقريباً، ويقود الضباط البعثيون في الجيش العراقي السابق معظم أفراد المقاومة، فهؤلاء الضابط يقدمون لأفراد المقاومة أفضل خبراتهم العسكرية، ويعمل البعثيون مع المعتدلين من الإسلاميين لأسباب عديدة، أهمها: أن البعثيين ليست لديهم موادر مالية، بينما يحصل الإسلاميون على تبرعات خاصة من دول الخليج.

تمثل القاعدة تقريباً خمسة في المائة من مجموع أفراد المقاومة في العراق، ومعظم قوادها وقادة مجاهديها يأتون من الخارج، ولديهم

في الغالب مال وفير، حتى أن القاعدة قادرة على شراء صور وأفلام فيديو، قام بتصويرها أفراد من المقاومة العراقية، ثم تدعى بعد ذلك القاعدة أن هذه المشاهد المصورة وتلك الأفلام هي لعمليات خاصة قامت بها ضد قوات الاحتلال.

ويحب التفريق بين المعتدلين والمتطرفين من القاعدة؛ فالمتطرفون يأتون من الخارج، أما المعتدلون فهم الأتباع المدفوع لهم مالاً وفيراً، وهم عادة من العراقيين الذين يحاولون بهذا المال أن يسدوا رمق أسرهم، ويدرك محمد تماماً أن هذا التفريق مرفوض في الغرب شكلاً وموضوعاً، إلا أنه في الحقيقة واقع ملموس، وهناك تعاون محدود مع المعتدلين من القاعدة أثناء العمليات العسكرية ضد قوات الاحتلال.

وبالطبع، لا نريد أن تبقى القاعدة بأي حال من الأحوال في العراق، فالمتطرفون منها لهم أهداف أخرى، فليس من مصلحتهم أن يعم السلام بالعراق، فهم يريدون أن تطول معركتهم مع الأمريكان قدر الإمكان، ليس على الأراضي العراقية فحسب، وإنما في مناطق أخرى، فضلاً عن ذلك.. فإن المقاومة العراقية متعددة الأطياف تضم جميع أفراد الشعب العراقي، أما القاعدة فلا تقاتل إلا من أجل السُّنة، وهذا لا يصب في وحدة العراق.

ويساوي القاعدة في درجة السوء ميليشيات ساسة الشيعة المتطرفة، التي تدعمها إيران، وأشدهم وطأة فرق الموت الشيعية التابعة لجيش المهدي، أما مليشيات بعض السياسيين السُّنة فتعد بالنسبة لعمر شيئًا مفزعًا، بينما يزداد الحال سوءاً بالطبع مع الشركات الأمنية الخاصة التي تدعمها الولايات المتحدة الأمريكية ماديًّا؛[18] ولازال هذا الجانب

غير المنظور من القوات المسلحة الأمريكية الذين يزيد عددهم على مائة ألف شخص، ويحصلون على رواتب عالية، لازالوا يتمتعون منذ الغزو الأمريكي عام 2003 بالحصانة، طبقاً لأوامر الحاكم المدني الأمريكي السابق في العراق«بول بريمر».

وذاع صيت شركة «بلاك ووتر» الأمريكية المرتزقة سيئة السمعة في العراق بسبب ما ترتكبه من أعمال وحشية دون اكتراث وبلامبالاة. وفي شركات «المتعاقدين الأمنيين» الخاصة يعمل بجانب المرتزقة الأمريكان مرتزقةٌ من أمريكا اللاتينية ومن أفريقيا وآسيا، ولهم مهام متعددة في العراق، فمنهم المسؤول عن الحماية الشخصية للسياسيين والدبلوماسيين، ومنهم مَن يقوم – مقابل مبالغ مالية طائلة – بتأمين علميات النقل أو بحماية المباني ذات الأهمية الاستراتيجية والسجون، حتى أنهم شاركوا مشاركة مباشرة مع الجنود الأمريكان في العمليات العسكرية التي وقعت في الفلوجة.

واستخدمت أجهزة الاستخبارات الأمريكية أحياناً شركات الأمن الخاصة للقيام بعمليات خاصة يتولى فيها المرتزقة الأعمال القذرة، التي لا تريد الجهات الأمريكية الرسمية أن تلوث أيديها بها. وفي حالة موت أو جرح أحد هؤلاء المرتزقة.. لا يتم الإعلان عنهم رسميًّا، وهذا منصوص عليه في العقد المبرم بين المرتزقة والجيش الأمريكي.

وتشترك القاعدة وجيش المهدي، وكذلك أجهزة استخبارات بعض الدول الأجنبية في المسؤولية عن الهجوم على الأسواق والمساجد، وكما يبدو فإن واجب هؤلاء جميعاً هو تشويه صورة المقاومة العراقية عالميًّا ومحليًّا، وإضعاف أواصر الترابط بين أفراد الشعب العراقي، والمقاومة

الشرعية العراقية لا علاقة لها بهذا الإرهاب المفزع؛ فالعراقيون الحقيقيون لا يقومون بقتل الأبرياء من المدنيين كما يفعل هؤلاء.

من الأسباب المهمة للمشكلات السياسية داخل العراق حالياً هو أن الولايات المتحدة الأمريكية قسمت القوى العراقية بعد الغزو تقسيماً طائفيًّا، حيث أشعلت عن عمد نار الفتنة بين الشيعة والسنة التي لم يكن لها وجود في الماضي، حتى تتمكن من تقسيم العراق، تماماً مثل حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث تمَّ تقسيم القوة في الحكومة والبرلمان الألماني طبقاً للانتماء الطائفي إما للكنيسة الكاثولوكية أو البروتستانية، حتى أن اعتلاء الوظائف في العراق حالياً لا يتم طبقاً للكفاءات، وإنما يتم توزيعه طبقاً للانتماء الطائفي والعرقي، مما أدى إلى توترات لا مفر منها.

وسادت في النهاية الاستراتيجية القديمة المعروفة «فَرِّقْ تَسُد»، تلك الاستراتيجية التي تطبقها الولايات المتحدة الأمريكية في جميع أرجاء المنطقة العربية؛ حتى تمنع من تحقيق الوحدة العربية، وتجاهلت الولايات المتحدة الأمريكية عن عمد أن العراق قد توحَّد منذ القدم، وتشكل في صورة وطن واحد، مع بعض الخصائص في المنطقة الشمالية الكردية؛ فالتنوع الطائفي والعرقي صفه أساسية قديمة في مدن العراق كبغداد والموصل والبصرة.

منذ أعوام عديدة يعيش كل من السنة والشيعة في انسجام تام، فالفروق بين الفريقين في الإسلام ضئيلة للغاية، بل أقل بكثير من الفروق الموجودة بين الكاثوليك والبروتستانت، ففي القرى التي لا يوجد فيها إلا مسجد واحد، يصلى الشيعة والسنة معا جنباً إلى جنب،

وبمجرد انسحاب الأمريكان من العراق فسوف يعود الوفاق بينهما سريعاً.

والزعم بأن هناك حربًا أهلية مفزعة، سوف تستعر نارها بمجرد أن تسحب الولايات المتحدة الأمريكية قواتها من العراق، إنما هوزعم كاذب وحيلة قديمة، لجأ إليها رئيس الوزراء البريطاني «ديفيد لويد جورج» عام 1920م، حيث حذر من حرب أهلية لو انسحبت القوات البريطانية من العراق، وأجابت على هذا التحذير آنذاك العشائر العراقية، حيث اتحدت مع بعضها بعضاً، وقادت مقاومة ضد المستعمرين.

وبتلك المعلومات، رجع محمد الآن إلى مهنته التدريسية من جديد، فأخذ يواصل إلقاء محاضرته، ويقول إن لغة المحتل تكون عادة هي اللغة نفسها، وإن تغير الزمن، فعندما دخل الإنجليز بغداد عام 1917 م كانوا قد أعلنوا – مثلما أعلنت تماماً الولايات المتحدة الأمريكية 2003 – بأنهم لم يأتوا كغزاة محتليين أو أعداء، وإنما جاءوا محررين، إلا أنهم جثموا على صدر البلد قرابة أربعين عاماً، حقًّا إنها النغمة نفسها التي تكرر دائماً.

تقوم المقاومة العراقية أسبوعيًّا بما يزيد على ألف عملية عسكرية، أما الآن فتُنفذ يومياً مائة وثمانون عملية تقريباً،[19] ولقد أكد تقرير هاملتون-بيكر هذا العدد، حيث أعد هذا التقرير خبراء أمريكيون رفيعو المستوى، ونصيب المقاومة الوطنية والبعثية في عدد هذه العمليات يتجاوز تقريباً الخمسين في المائة. وبجانب الأسلحة القديمة، تستخدم المقاومة العراقية ،بفضل الجيش الأمريكي، أسلحة أمريكية حديثة، كانت قد وزعتها الولايات المتحدة الأمريكية إبان الغزو بسخاء

ودون رقابة محكمة، كما تستخدم المقاومة بالطبع الأسلحة الإيرانية، وعلى عكس الأسلحة الأمريكية التي يستولى عليها عادةً دون مقابل، فإن الأسلحة الإيرانية تُشترى من السوق السوداء نظير مبالغ مالية طائلة.

بالطبع لا يعير الإعلام الغربي العمليات العسكرية المتعددة للمقاومة العراقية أي اهتمام، بل يزداد الأمر سوءاً بأن تتخرس ألسنة الإعلام الغربي تماماً عن الاعتداءات اليومية للقوات الأمريكية، سواء عن طريق الغارات بالقنابل أو الحملات اليومية، فهو لا يعرض عادة يوميًّا إلا اثنتان أو ثلاث من العمليات الانتحارية التي يقوم بها الأجانب، ويزعم أن هذا عنف عراقي داخلي فالإعلام يلعب بذلك لعبة الدعاية الأمريكية نفسها للحرب، سواء قصد ذلك أو لم يقصد.

يواصل محمد حديثه هامساً: «أنتم لا ترون في التلفاز إلا الإرهاب المدبر من الخارج، أما إرهاب المحتل فلن تروه على الإطلاق، فالقنوات الفضائية التي تبث إرسالها باللغة العربية هي التي تعرض بصدق وحشية الجيش الأمريكي، وتعرض كذلك نجاح المقاومة العراقية ضد الولايات المتحدة الأمريكية، لذلك تقع هذه القنوات تحت ضغط شديد من الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى سبيل المثال تم وقف بث قناة «الزوراء» بسبب تقاريرها الإخبارية الناقدة للولايات المتحدة الأمريكية، تم وقفها في كل من القاهرة وبغداد».

ومنذ معركة الفلوجة الأولى، أصبح بحوزة معظم كتائب المقاومة العراقية أقراص مدمجة تحتوي على صور ملتقطة بالأقمار الصناعية لأهم الشوارع والمباني في العراق، وتلك الأقراص المدمجة عامل مساعد للغاية في التخطيط للهدف المراد، حتى وإن كانت هذه الصور

قديمة نسبيًّا، كما أن الحاسوب المحمول والبرنامج العارض للكرة الأرضية والمعروف بـ «غوغل إرث» أصبحا في عصر التقنيات العالية سلاحاً رئيسيًّا من أسلحة حرب تحرير العراق.

وطبقاً لكلام محمد، فإن المقاومة مستعدة للتفاوض مع الولايات المتحدة الأمريكية حول إنهاء الاحتلال، أو الحديث عن حلول وسط تحفظ ماء الوجه للأمريكان، ويجب أن يؤدى التفاوض إلى إعادة السيادة للعراق تحت حكومة وطنية عراقية، وكذلك إلى إطلاق سراح جميع سجناء الحرب، وبالطبع إلى تَحَمُّل إعمار الأضرار الناجمة عن الحرب، حيث ألزمت الأمم المتحدة العراق بعد غزوه للكويت بتحمل تكاليف إعادة الإعمار التي بلغت المليارات، ويجب أن ينطبق ذلك على الولايات المتحدة الأمريكية.

ولا تحارب المقاومة من أجل إقامة دولة إسلامية، كما يفكر كل من القاعدة التي تدعمها المنظمات السعودية السخية، أو ميليشيات ساسة الشيعة المتطرفين الذين يحظون بالدعم المالي من إيران، ولكن محمد لا يؤيد في الوقت نفسه دستوراً علمانيًّا محضاً، فهو يتمنى دولة ديمقراطية يجد فيها جميع العراقيين مرة أخرى أنفسهم، على أن تكون هذه الدولة وطنية، أو طبقاً لمبادئ حزب البعث، ذات ارتباط وثيق بالوحدة العربية، وأن تستمد أحكامها بالطبع من الشريعة الإسلامية.

وبما أن محمداً صاحب علم، فمن الصعب تصوره وهو يتولى قيادة العمليات العسكرية وكيف أنه يضع الخطط لزرع القنابل في الشوارع، أو كيف أنه يقود رجاله للاشتباك مع المحتل، وحسب رأيي فإنه من الأفضل لمحمد أن يقف أمام طلابه في بغداد، بدلاً من أن يكون مشاركاً في حرب ذات مآسٍ إنسانية كبيرة.

وبالنسبة لرأي محمد، فإن الإرهابيين هم الذين يقتلون المدنيين لأغراض سياسية، وعليه فالقاعدة وفقاً لرأيه إرهابيّة وكذلك فرق الموت لبعض السياسيين، ويرى محمد الحكومة الأمريكية بأنها إرهابيّة، فجنود الولايات المتحدة الأمريكية قتلوا في العراق – طبقاً للإحصائيات الرسمية – مئات آلاف من المدنيين العراقيين؛ أى أكثر مما فعلته القاعدة وجميع المليشيات الأخرى، وهنا يقول عمر: «نحن نجاهد ضد هذا الإرهاب»، وكما يرى عمر بأنها ظاهرة غريبة وعجيبة أن تصف الإدارة الأمريكية التي تغتال يومياً المدنيين، تصف المقاومة العراقية بالإرهاب، على الرغم من أن المقاومة لا تقتل المدنيين.

يستثني محمد الشباب من الجنود الأمريكيين من صفة أو تهمة الإرهاب، فهم ضحايا هذه الحرب، حتى وإن كان لزاماً عليه أن يحاربهم عسكريًّا كفرد من أفراد المقاومة العراقية، وعليه فلم يسرق الرئيس الأمريكي من الشباب العراقي ريعان شبابهم فحسب، وإنما سلب كذلك من الشباب الأمريكي زهرة شبابه، ويعلم محمد أن أمريكا لا تشكو فقدانها أربعة آلاف من جنودها فحسب، وإنما تشكو جرحاها المصابيين إصابات بالغة، والذين يزيد عددهم على ثلاثين ألف جندي، ويكاد لا يتحدث أحد في الولايات المتحدة الأمريكية عن الجنود الأمريكيين المصابين، تماماً مثلما يحدث مع جرحى العراقيين.

وتهيأ محمد للمغادرة، فهو رجل جدير بالمعانقة في أوقات السلم إذا أردت وداعه، حتى وإن لم يشاركه المرء جميع آرائه، ولكن على كل حال تسود العراق حالة حرب، ثم انحنى كلانا للآخر، وتمنينا لبعضنا البعض كل الخير وانصرف بذكر تحية: «السلام عليكم!»

أحمد

وفي هذه الأثناء أصبحت الحرارة داخل الحجرة لا تُطاق، ولكن فجأة عادت الكهرباء مرة أخرى وبدأ جهاز التكييف في العمل، ومال الجو تدريجيًّا إلى البرودة، على الرغم من أن درجة الحرارة لازالت بالخارج تزيد على أربعين درجة مئوية.

لا زلت أقوم وأنا جالس بتدوين ملاحظاتي وأحاول ترتيب أفكاري، وبينما أنا كذلك جلس أمامي مقاوم آخر، يسألني على استيحاء عن السماح له بالجلوس، إنه أحمد من مدينة الرمادي وهو شاب طويل ورشيق له لحية قصيرة ومهذبة بعناية، يرتدي أحمد قميصاً طويلاً رمادي اللون شرقي المنشأ، يشبه القفطان، ويبلغ من العمر ثلاثين عاماً، وهو غير متزوج، وكان يعمل قبل انضمامه للمقاومة كعامل بناء.

يقوم أحمد دائماً بمسح العَرَق الذي يتصبب من جبينه، وبينما أخفف أنا من حرارة الجو بكثرة تناولي للماء، يقوم أحمد – على العكس مني – باحتساء الشاي الأسود المحلى بالسكر، ويعلو وجه أحمد الاصفرار، أما قلة الكلام والحياء فمن الصفات الملفتة للنظر في شخصيته، وهنا أخذ أحمد يروي لي بهدوء وبقليل من التلعثم قصته.

كان أحمد يسير في يوم من أيام خريف 2006 الملتهب الحرارة متئد الخطى أثناء وقت الظهيرة وهو ذاهب للتسوق عبر شوارع مدينة الرمادي التي تكاد تكون خالية تماماً من الناس في هذه الأثناء، وكان أحمد يسير على مهل لشدة حرارة الجو، ولما لديه من وقت كافٍ وعدم ارتباط بعمل في هذا اليوم، ثم دخل أحمد في شارع العشرين وهو يمشي ببطء.

لم يلاحظ أحمد القناصة الأمريكان، الذين كانوا ينبطحون على أسطح المنازل في سط مدينة الرمادي، وأطلق أحد هؤلاء النار على أحمد، وأحمد لا يعلم لماذا أطلقوا النار عليه، فلم يكن له أي علاقة بالمقاومة العراقية، بل كان شاكراً ربه على مرور اليوم، وهو لازال مطمئناً فيه وعلى توافر فرصة عمل له في ظل هذه الظروف، حيث استطاع أحمد بالمال القليل الذي يكتسبه أن يدفع البؤس عن أسرته إلى حد ما.

لقد أصابه القناصة إصابة بالغة ودقيقة بين ساقيه، حيث أطلقوا نيران أسلحتهم على خصيته فأزالوها وأصابوا جهازه التناسلي إصابه بالغة.. رتق الأطباء جروح أحمد مؤقتاً، لكن لم يكن هناك شيء يمكن إنقاذه، ورقد أحمد أسابيع طويلة في المستشفى، حتى أنه لازال إلى اليوم يتلقى الرعاية الطبية، فلم تلتئم جراحه بعد.

يروي لي أحمد أنه كان على علم بأن هناك في مدينة الرمادي قناصة أمريكان، ولكنه لم يكن يعلم أن هؤلاء يطلقون نيران أسلحتهم على المارة دون سبب، بل إن مبدأ اختيار القناصة لمواقعهم كان عشوائيًّا ووليد الصدفة، لذلك فلا يُعرف لهم مكان محدد، حتى أنهم يقتحمون أحيانا المنازل ويستخدمون الأطفال كرهائن، أما بقية العائلة فيتمُّ احتجازها في إحدى الغرف حتى تنقطع اتصالاتها بالعالم الخارجي، وحتى هذا اليوم لا يعلم أحمد المهام العسكرية للقناصة، ويُحكى عنهم بأنهم يتسابقون فيما بينهم على مَنْ يتمكن يوميًّا من إصابة الهدف إصابة مباشرة، ويتعاون أحمد منذ إصابته البالغة مع المقاومة قدر ما يستطيع.

ولا تبدو على وجه أحمد أثناء إجرائي للحديث معه أي ملامح الانفعال، فهو يتحدث بهدوء ولا يريد مواصله حديثه، وتماماً مثلما أقبل أحمد على استحياء وقف وودعني بالهيئة نفسها، ثم رجع إلى الحديقة مرة أخرى حيث تجلس بقية أفراد المقاومة.

يوسف

توقف جهاز التكييف عن العمل من جديد وبالتحديد في هذه اللحظة، وبدأت أتصبب عرقاً مرة أخرى، فأنا في أشد الاحتياج إلى فترة استراحة؛ لذلك أردت أن أخبر أبا سعيد بأنني لا أستطيع استقبال أحد من أفراد المقاومة، لعدم لقدرتي الذهنية على الاستيعاب والتركيز على الرغم من تناولي لكميات كبيرة من الماء، ولكن وقف أمامي فجأة يوسف بجلبابه الأبيض وبعباءته العربية البيضاء التي يتخللها رباط زينة سميك أسود.

وأخيراً رأيت مقاوماً عربياً تبدو ملامحه كأولئك الشباب المسلمين الذين نراهم هنا في أوروبا، إلا أن يوسف أحدث لي مفاجأة من العيار الثقيل، فهو مقاوم عراقي مسيحي وليس من المسلمين، يبلغ يوسف من العمر خمسًا وثلاثين عاماً، ويتصف بطول القامة وقوة البنيان، تعلو ملامح وجهه بشاشة وضيئة لازمته طيلة حديثي معه، وعندما سألته عن سبب مزاجه الرائق بينَ لي أنه يعمل بالتجارة، لذا يحب عليه أن يتحلى بصفة البشاشة وخفة الظل، وظل يوسف يداعب لعباً بأطراف أصابعه الرقيقة مسبحة سوداء.

يعد يوسف من المسيحيين الذين ينخرطون بكثرة في صفوف المقاومة العراقية،[20] ويوسف من مواليد حي «الدورة» الواقع جنوب مدينة بغداد، حيث يعيش في هذا الحي قرابة مائة ألف مسيحي، بالإضافة إلى مائتين وخمسين ألف مسلم، وبسبب الخوف من الغزاة المسحيين ومن القاعدة السُّنية ومن الميلشيات الشيعية، فرّ أكثر من نصف المسيحيين إلى سوريا المعروفة بتسامحها مع المسيحيين، ويروى لي يوسف مبتسماً كعادته بأن معظم من بقى في العراق يساعد المقاومة.

لم يكن يوسف في يوم من الأيام عضوًا من أعضاء حزب البعث، فلا اهتمام له بالسياسة ولم يكن معجباً بصدام حسين، ولكنه لا يريد أن يقف موقف المتفرج ويرى القوات الأجنبية وهي تدمر بلاده، لقد قتل الأمريكان بالفعل ثلاثة من أبناء عمه المسيحيين، وفي يوم من الأيام وبالتحديد في تمام الساعة الرابعة فجراً اقتحم الجنود الأمريكان منزل يوسف، وحطموا جميع الأبواب، وأشعلوا النيران في سيارته، وقبضوا على أبناء أخيه وألقوا بهم في غياهب السجن.

وكما يرى يوسف، فإن المسيحيين يعتبرون أنفسهم عراقيين بالدرجة الأولى، لذلك فمن الطبيعي بالنسبه ليوسف.. أن يقاتل في صفوف المقاومة العراقية، ووفقاً لرأي يوسف فإن بوش ليس مسيحيًّا خالصاً، وكذلك بن لادن ليس مسلما أصيلاً، فالمسلمون الحقيقيون لا يقتلون المدنيين العزل وكذلك المسيحيين.

وعلى الرغم من أن غالبية الاعتداءات التي يكون دافعها طائفيًّا تنسب إلى الأرهاب المستورد، إلا أن بعض العراقيين يشاركون أحياناً في الاعتداءات ضد المدنيين، ولا يستطيع أحد إنكار ذلك، فالناس الذين تمَّ سلب إرادتهم وأملهم يصلون إلى مرحلة يكونون مستعدين فيها على فعل أى شيء، حيث إنهم لا يجدون وسيلة للخروج من دائرة العنف الشيطانية، ولا ينطبق ذلك على العراقيين فحسب، بل يقع ويحدث لجميع الشعوب، ويقتبس يوسف، هنا من قلب العراق، استشهاداً من الإنجيل يصف فيه محاصرة مدينة «السامرة» التي كانت آنذاك عاصمة مملكة إسرائيل، حيث دفع الناس من شدة احتياجهم وجوعهم خمس قطع فضية ثمناً لحفنة من مخلفات الطيور، وفي النهاية اشتد يأسهم لدرجة أن بعضهم قتلوا فلذة أكبادهم، ثم قاموا بطهيهم وأكلهم.

وبينما تعلو وجه يوسف سمات الجدية، قال إن ذلك ورد في «كتاب الملوك». كما أخبر العهد القديم في أحد مواضعه عن آكلي لحوم البشر اليائسين، الذين قتلوا أولادهم وأكلوا لحومهم، وحال أهله اليوم في العراق لا يختلف كثيراً عن سكان مدينة السامرة الإسرائيلية قبل آلاف السنين؛ ونحن الغربَ علينا أن نعيد قراءة تاريخنا، قبل أن نحكم على الآخرين.

وهنا صمت يوسف طويلاً ثم واصل حديثه قائلاً بأن عدد المقاومين المسيحيين في العراق أكثر بكثير من إرهابيي القاعدة، ولا يمكن التفريق بين المسيحيين وأقرانهم المعتدلين من المسلمين داخل صفوف المقاومة، فالمسيحيون والمسلمون بعضهم من بعض، ويقفون في خندق واحد أمام الاحتلال، فليس هناك مَنْ يهتم بأن زميله المقاوم مسلم أو مسيحي.

كان مسيحيو العراق من أوائل المجتمعات المسيحية في الشرق، وكانوا يشعرون بالحرية أكثر قبل الغزو الأمريكي للعراق، حتى أن الزواج بين المسلمين والمسيحيين كان يعد أمراً طبيعيًّا.. كل هذا لم يعد تحقيقه الآن ممكنًا، حتى أن المسيحيات يجب عليهن الآن ارتداء الحجاب لأن الغزو الأمريكي دفع تيار المتطرفين من الشيعة والسنة إلى الواجهة وأعلى من شأنهم، فلا يمكن للغرب أن يتصور أي فشل أحدثته الولايات المتحدة الأمريكية في أركان دولة العراق العلمانية، التي كانت سائدة من قبل، وخاصة لمسيحيي العراق.

ويواصل يوسف حديثه قائلاً: «إن القاعدة ترى أن مسيحيي العراق جزءًا من الاحتلال وحجتهم أن معظم المحتلين من الأمريكيين مسيحيين، لذلك فهم يلاحقوننا. ولحسن الحظ.. فإن كثيراً من المسيحيين يجدون ملاذاً آمنا لهم عند الأسر المسلمة الصديقة، كما تستقبل بالمثل الأسر المسيحية المسلمين، الذين يطاردهم جنود الاحتلال.» ، وعندما نظرت إلى يوسف مندهشاً، ابتسم وقال «إن هذا لأمر طبيعي للغاية».

كان يعيش قبل الغزو الأمريكي مليون ونصف المليون مسيحي تقريباً في العراق، وكانوا يعتلون عادة مناصب مرموقة في مجلس الوزراء أو في العمل الدبلوماسي، كما كانوا أصحاب فنادق وتجارات رائجة، ويعد طارق عزيز المسيحي العقيدة مثالاً حيًّا على ذلك، فقد كان نائباً لرئيس الوزراء، يعيش الآن في العراق قرابة ستمائة ألف مسيحي في العراق، إلا أن حالهم غاية في السوء، فقد كان حالهم تحت حكم الدكتاتور صدام حسين أفضل بكثير من حالهم تحت حكم الدكتاتور

العسكري بوش، إنها حقًّا لحرب صليبية عجيبة، دبرها وأعدها الرئيس الأمريكي، فهو يقوم بالإرهاب مثلما فعلت تماما الحروب الصليبية في العصور القديمة، وهذا ليس له علاقة بالمسيحية الصادقة.

وكما يقاوم المسيحيون العراقيون الآن إرهاب المحتلين المسيحيين القادم من الولايات المتحدة الأمريكية، فقد وقف في الماضي الصابئيون واليزيديون وغيرهم في وجه المحتل الأجنبي، وبجانب الرجال تحارب كذلك النساء في صفوف المقاومة.تعد بغداد والموصل من أهم نقاط المقاومة العراقية المسيحية، ويشجب أفراد المقاومة المسيحية الأعمال الانتحارية على المدنيين بشدة؛ فالإرهاب لا يمثل العراق ولا الإسلام ولا المسيحية.

لن تُقام انتخابات حرة في العراق إلا بعد انسحاب الأمريكان منه، فجميع الانتخابات الحالية في العراق مزورة، ولأسباب أمنية، لم يتم كذلك الإعلان عن أسماء المرشحين في انتخابات 2005، وإنما تم فقط تقديم قائمة مغلقة بالأسماء، فلم يبقَ أمام الناس إلا الانتخاب وفقاً للانتماء الطائفي والعرقي للمرشح، حتى أنه تم إحضار أوراق انتخابية جاهزة من إيران، ومن الغريب والعجيب أن الغرب لم يبدِ اندهاشه من أن نتائج الانتخابات لم تظهر إلا بعد شهرين من اجراء الانتخابات، ويقول يوسف مخاطباً إياي: «كيف يمكن لكم أن تعترفوا بمثل هذه الانتخابات، بينما لا تعترفون بالانتخابات في فلسطين إلا إذا ظهرت الحكومة التي تناسبكم؟».

وصدام حسين ، وفقاً لرأي يوسف، دكتاتوري عنيف لكنه لا يقارن بالديكتاتورية العسكرية الأمريكية الأشد عنفًا ووحشية ودموية التي

تحكم منذ الغزو . ويقول لي يوسف: «لو أن هذه هي الديموقراطية، فيمكنكم أن تحتفظوا بها لأنفسكم، ليس هناك في العراق من يرى إمكانية أن يقوم الغرب بتعذيب مئات الآلف من المدنيين واغتصابهم وتشويههم، ثم قتلهم في النهاية باسم الديموقراطية».

فضلاً عن ذلك، فإن الديموقراطية التي يتم من خلالها التغرير بالشعب في القضايا المهمة ليست هي الديموقراطية، كما أن الدولة الدستورية التي تخرق قوانين ودستور الشعوب عن عمد ليست دولة دستورية عادلة، ويعتبر يوسف الرئيس الأمريكي الذي أعلن بأنه يتصرف، وكأنه مسيحي مبعوث باسم الإله، يعتبره مريضاً نفسيًّا.

وهنا يقف يوسف، ويطلب مني:« قلْ للألمان بأن الذين يحاربون الولايات المتحدة الأمريكية في العراق ليسوا مسلمين فحسب، وإنما يحارب معهم المسيحيون جنباً إلى جنب، إننا نحن المسيحيين نريد أن نتحرر من قوات الاحتلال الغربي ومن الإرهاب الغربي.»، ثم انحنى يوسف وتركني بابتسامة باهتة، وأنا واقف مذهول من كلامه.

رامي

لقد أصبحت مجهداً للغاية وكذلك أبو سعيد على الرغم من أكواب الشاي العديدة التي احتساها، ويرى أبو سعيد بأنني سمعت وشاهدت اليوم بما فيه الكفاية، حتى أُنهكت قواي تماماً، إلا أن أبا سعيد يرى أن هناك أحد المقاومين الذي يجب أن أنصت له وأسمعه.

لم ينتظر أبو سعيد إجابتي، وذهب مباشرة إلى الباب، وأعطى كالعادة بيديه إشارة لدخول التالي، وبعد ذلك بدقائق قليلة جلس أمامي رامي، وهو رجل شاب رشيق له شعر قصير ولحية مدببة، ويبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، أما ملامح وجهه فهي مهيبة، بينما تحيط ثغر رامي لمسة مرارة واضحة، ويشتغل رامي باعتباره طالبًا جامعيًّا طوال النهار بدراسة التاريخ في جامعة بغداد، أما ليلاً فهو مقاوم عراقي؛ وسألت رامياً عن سبب جهاده في صفوف المقاومة، وهنا ازدادت لمسات المرارة في وجهه، ثم بدأ رامي بصوت هادئ يروي ليّ حكايته مع المقاومة:

بعد أسابيع قليلة من الغزو الأمريكي، اقتحم الجنود الأمريكان منـزل عائلتي، حيث وصفوا هذه العمل بأنه «عملية تطهير»، كان يحطمون كل شيء يقابلهم، فهم كانوا يبحثون عنه، فقد تنامى إلى أسماعهم أنني أعمل مع المقاومة، لم يكن لي في الحقيقة آنذاك أي علاقة بالمقاومة، ولكن بعد عدم العثور عليّ في المنـزل، شرع الجنود في تحطيم وتكسير أثاث المنـزل حتى قلبوا البيت عن أخره، رأساً على عقب.

وركعت أم رامي تحت أقدام الجنود، وهي تبكي وترجوهم ألا يحطموا ما تبقى لها من أثاث في البيت، وما كان من أحد الجنود إلا أن رجع خطوة للوراء وأطلق النار على أم رامي، وهنا يضغط رامي على شفتيه ويتوقف عن الحديث طويلاً، وعندما استرد رامي توازنه مرة أخرى، قال – وهو يسعى لإخراج الكلام بشق الأنفس – إنّ جنود الاحتلال قاموا بمثل هذه الأعمال كثيراً، فإذا لم يجدوا الشخص المطلوب قتلوا فردًا أخر من أفراد العائلة، أو اقتادوا أقاربه إلى السجن.

وإذا لم أصدق قصته، فعلي أن أقرأ مرة أخرى قصة عبير، هذه الفتاة الصغيرة من مدينة المحمودية، التي أغتصبها بعض من أفراد القوات الأمريكية، ثم قتلوها مع جميع أفراد عائلتها،[21] وهذا مثال واضح من أمثلة كثيرة دالة على وحشية قوات الاحتلال، وصمت رامي مرة أخرى لبضع دقائق، ثم واصل حديثه في نبرات متدافعة، تُغطى مثل هذه الأشياء عادة برداء الصمت، أما إذا تسرب شيء من ذلك عن طريق صحفيين شجعان إلى الرأي العام، فيمكن في هذه الحالة تعقُّب الجاني، ويعتقد رامي أنه لن يبتسم طيلة حياته، لقد أزال الجنود الأمريكان الابتسامة من قلبه ووجهه للأبد.

وهنا قال رامي جملته التي لم أكن، بأي حال من الأحوال، أود أن أسمعها من المقاومين في العراق، الجملة التي كلّما فكّرت في احتمال أن اسمعها أثناء سفري تتجمد الدماء في عروقي. قال رامي: «من أجل هذا كله أقاتل في صفوف القاعدة»، وهنا نظرت غاضباً إلى أبي سعيد، وقلت له بأنك تعلم تماماً أننى أردت تجنب أي لقاء يجمعني بالقاعدة، ثم أعاد أبو سعيد النظر إليّ مبدياً عدم ذنبه في ذلك، ويرى أنني أردت التزود بنظرة عامة وفاحصة عن جميع أفراد المقاومة في العراق، ويقف الآن رامي بين يدي، ولم أقابل بعد المليشيات الشيعية، ورامي ليس واحدًا منهم.

أصبحت القاعدة في العراق للأسف واقعًا ،جاء به الأمريكان إلى البلاد بعد حربهم مع العراق، وهنا يقول لي أبو سعيد: «أردت أن تتعرف على ما أحدثه الغزو الأمريكي، لذلك جمعتك بأحد مقاتلي القاعدة، وقاعدة العراق هي إحدى نتائج الغزو الأمريكي للعراق، لقد تم مطاردة

المتطرفين الإسلاميين في عهد صدام حسين – وربما ترى أنت في ذلك نوعًا من عدم الرحمة – لكن تمَّ مطاردة هذا النوع من الناس، حيث إنه لم يكن للقاعدة في ظل حكم صدام حسين أي فرصة للبقاء بالعراق.

وهمَّ رامي واقفاً، لأنه لم يفهم ما نقول، إلا أنه خمن أن الأمر يتعلق به وبالقاعدة، لا أعرف ماذا أفعل الآن، أردت أن أتجنب هذا الموقف لأسباب كثيرة، ومنها كذلك مسألة أمني الشخصى في العراق.. لكن حدث ما حدث ولا يمكن أن أدير ظهري للقاء، جلست متردداً مرة أخرى على الكرسي، وأعطيت رامي إشارة بالجلوس.

وهنا سألت رامي عن السبب الذي أوصله إلى هذه الفكرة المجنونة، وهي فكرة الالتحاق بالقتلة الذين يتعلق موت آلاف المدنيين في رقبتهم، والذين دمروا صورة الإسلام، وهنا نظر إليّ رامي بهدوء، وسألني: «ماذا عساك أن تفعل لو رأيت أن أمك يتم قتلها أمام أعين العائلة؟». أجبت بأنني لا أعلم ذلك، لكننى لن أنضم بالتأكيد إلى منظمة إرهابية، ردَّ رامي بهدوء« لقد كنت أمام ثلاث خيارات.»، إما الانضمام إلى مجموعة كتائب ثورة 1920 المعارضة للاحتلال، أو الانضمام إلى البعثيين أو الانضمام إلى القاعدة، أخترت أنا القاعدة، أما أبي وأخوتي فقد انضموا إلى البعثيين».

لقد قام أحد ضباط الجيش العراقي القدامى بتدريب رامي عسكريًا، حيث تعلم رامي في بيت هذا الضابط، مع صديقين له ، أهم الأشياء القتالية، مثل: تفجير القنابل الموقوتة، وصواريخ أرض-أرض، وتفجير القنابل بالتحكم عن بُعد، ولم يكن لدي رامي أي فكرة عن

هذه الأشياء كلها من قبل، ويقاتل رامي من أجل عراق إسلامي يحكم بالقرآن والسنة، فهو يريد الشريعة الإسلامية، أما إذا كسب البعثيون أو مجموعات المقاومة الأخرى الانتخابات وشكلوا حكومة منتخبه نزيهة، فسوف يحترم بالطبع هذه الحكومة.

وعندما أدرك رامي أن وجهي لازال ممتعضاً، قال لي إنه ينضم ، وحاله كحال معظم مقاتلي القاعدة من العراقيين ، إلى فيلق معتدل من هذا التنظيم، فلم يقتل رامي أى مدني ولن يفعل ذلك على الإطلاق، ولكن يجب على الولايات المتحدة الأمريكية أن تتوقف عن تعذيب أهل بلده وسوء معاملتهم، أما ألمانيا التي اتخذت موقفًا صحيحًا إزاء العراق، فإنها تلعب الآن دوراً مؤسفاً وبصفة خاصة في أفغانستان، وسألني رامي عن رأيي بما عمله الناتو ، بمساعدة الألمان، في أفغانستان حيث قتلوا من المدنيين أكثر مما قتلته طالبان.

أجبت قائلاً:« حتى لو صدق زعم الدعاية المعروفة عن القاعدة، وهذا لا أستطيع الحكم عليه، فليس ذلك سبباً كافياً للانضمام إلى تنظيم إرهابي مثل القاعدة».، واشتدت سخونة المناقشة، فردَّ عليّ رامي بأن هناك كثيرين من مقاتلي القاعدة المعتدلين، فهو نفسه يرفض - مثل المعتدلين من القاعدة - العنف ضد المدنيين، حتى أنه يرفض العنف ضد الشرطة العراقية الملتزمة، بل ليس من المقبول بالنسبة لرامي أن يقوم بالعنف ضد العراقيين، إذا وجدوا بين الجنود الأمريكيين المحتلين.

وعندما سألته عن سبب انضمامه للقاعدة، وبينتُ له أن ذلك نوعاً من المساعدة والمساندة للإرهاب، تهرب من الإجابة عن ذلك، ثم شرع في

الحديث مرة أخرى، وبيَّن أنه ضد الأجنحة المتطرفة من مقاتلي القاعدة الأجانب، ولا يستطيع هو ورفاقه أن يُغَلِّبوا فكرهم، فرأيه يُحترم ولكن لا يُتبع، ويعلم رامي أن المتطرفين يحتجزون الرهائن ويقتلون المدنيين وأن رؤيتهم للعالم قاصرة، وأنه هو نفسه لا يتقبل كل هذه الأشياء، ولكن على الرغم من ذلك يساعد رامي القاعدة؛ لأنها تحارب المحتل بكل قوة.

ثم سألت رامي كيف له أن يكون في جبهة الزرقاوي وبن لادن، دون أن يكون ثمة تعارض وتناقض . وما أدهشني أن رامي أجابني بأنه معجب بكلتا الشخصيتين، وكان يتمنى أن يعمل مع الزرقاوي لأنه ألحق بالقوات الأمريكية خسائر فادحة، أما بن لادن فهو متأثر به، وذلك بسبب شجاعة بن لادن في الوقوف صراحة في وجه الولايات المتحدة الأمريكية، ثم وصلنا إلى نقطة جعلتني أرى أن مواصلة النقاش مع رامي غير مجدية، فمناقشة أتباع الزرقاوي وبن لادن لا فائدة منها، ووقفت لإنهاء المحادثة، ووقف كذلك رامي.

لايوجد ثمة منطقية فيما يعرض رامي من حجج، وهو نفسه يدرك ذلك أيضاً، فرامي يرفض العنف ضد المدنيين ومعجب بالإرهابيين، الذين يقتلون المدنيين الأبرياء دون رحمة، وأدرك رامي بأنني لا أريد أن أسأله مرة أخرى. على الرغم من ذلك، حاول رامي مرة أخرى أن يقوي من موقفه، لقد كان رامي في السابق طالبًا مسالمًا وديعًا، ولكنه عايش الإذلال اليومي الذي يتعرض له الشعب العراقي، حيث شاهد في التلفاز وفي شبكة الانترنت الصور المعروضة من سجن أبي غريب، فبعد مقتل أمه لم يستطع رامي أن يأكل لعدة أيام، ولم يستطع النوم كذلك.

على الرغم من أن «رامي» لم يكن في يوم من الأيام من أنصار حزب البعث، إلا أنه بكى عندما شاهد في التلفاز إعدام صدام حسين، وإن لم يكن حاكماً جيدًا، ولكن رامي كان ينعم في عهده بالأمن والسلام. والفوضى الحالية في العراق تبين أن هذا البلد يحتاج إلى قائد قوي، ويسألني رامي عن إمكانية الحياة في ظل الاحتلال والفوضى – كما يعيش العراق حالياً بسبب الغزو الامريكي – أفضل، أم الحياة تحت حُكم صدام حسين، أيهما أفضل؟

أجبت رامي بأن كليهما لا يمثلان البديل الصحيح، ولكن «رامي» يواصل حديثه ويقول بأنه لم يكن في الماضي مسلماً ملتزمًا، ولكن الغزو الأمريكي وأهواله التي تفوق الأهوال المنسوبة للقاعدة بكثير صنعوا منه وطنيًّا ومسلماً، لم يتحول كثير من العراقيين إلى وطنيين ويعودوا إلى دينهم إلا بعد الاحتلال. لقد قضى بوش على حياة الناس أكثر مما فعل هولاء الإرهابيون والدكتاتوريون في هذا العالم، وعلى الرغم من ذلك يشعر السياسيون الغربيون بالفخر والسعادة لو حظوا بلقاءٍ مع بوش . وواصل حديثه غاضباً: «إن ساستكم يستمتعون بالدقائق التي يقضونها مع الرئيس الأمريكي، ولكن لا يجرؤ أحد أن يتهمه بأنه المسؤول عن موت مئات الآلاف من العراقيين».

يعلم رامي بأن القوات الأمريكية تريد القبض عليه، ولكن كل هذا لا يهمه، فهو لا يخشى الموت، لماذا يجب أن يكون حاله أفضل من حال أمه أو أصدقائه أو جميع العراقيين الذين فقدوا حياتهم في الأربع سنوات الأخيرة؟ لا يمكن لرامي أن ينسى أبداً المعاناة التي سببها الأمريكان لعائلته ولجميع أصدقائه، وهنا شَحِبَ وجهُ رامي، كان عليّ

في الحقيقة أن أقوم بإنهاء المحادثة هنا إلى غير رجعة، ولكن شيئًا داخليًّا شدني لرؤية هذا الرجل الحزين، الذي يشعر بالمرارة وعدم الحيلة، والذي بدا مختلفاً تماماً عمّا نتصوره نحن عن الإرهابي، لذلك تركت رامي يواصل حكايته.

دخل رامي السجن مثل سائر رفاقه المقاتلين، ورغم أنه لم يتعرض إلى تعذيب جسدي لكنه عُذبَ نفسيًا ، حيث تمَّ حبسه في زنزانة صغيرة، تبلغ مساحتها مترين مربعين، وكرفاقه المساجين أُجبر رامي على الاستجواب وهو عاري الجسد، على الرغم من ذلك لا يشعر رامي بالكراهية للأمريكان، فهو لا يعرفهم على الإطلاق، ولا يستطيع أن يحكم عليهم بالخير أو الشر، فرامي لا يمقت إلا ما قاموا به ضد عائلته وأحدثوه في بلده، ويكره كذلك الفوضى التي أدخلت فيها البلاد.

لا تقوم فرق الموت التابعة للسياسيين الشيعة بارتكاب جرائمها إلا بسبب موافقة الولايات المتحدة الأمريكية على ما يفعلون، لماذا عليّ أن أعترض فقط على القاعدة، ولا أبدي اعتراضي على ما يرتكبه الأمريكان من قتل؟ لقد كان القتلى من أقاربي من المدنيين. لم أجب على ما يقول، ووواصل رامي حديثه قائلاً، : لقد كان الغذاء شحيحًا أثناء فرض الأمم المتحدة الحصار على العراق، لكن الوضع الآن ازداد سوءًا ، وعائلته تعاني من شحة الغذاء .كما يتم عادة توزيع الحصة الغذائية لأهل السُّنة في المناطق التي تسيطر عليها المليشيات الشيعية مما يحرمهم من الوصول إليها، ولذلك يجب على الإنسان أن يصارع الجوع أسابيع طويلة.

كل هذه هي الأسباب جعلت رامي يحارب في صفوف القاعدة من أجل تحرير العراق.. لقد دمرت الولايات المتحدة الأمريكية كل شيء

يحبه رامي.. لم يختر رامي هذا الوضع لنفسه. ويشك رامي إذا كنت أفهم حقيقة ما يعانيه الشعب العراقي، فمن السهل للإنسان أن يصدر أحكامًا حول المقاومة والإرهاب طالما أنه هو نفسه يعيش في رفاهية وسلام. لا يرى رامي حوله إلا الفقر والمعاناة والإذلال والدم والموت، ويسألني رامي عما إذا كنت قد فكرت مرة من المرات فيما يدور في أذهان هؤلاء الشباب، الذين لا يرون طريقاً آخر غير تفجير أنفسهم؟

ثم يقول بعد ذلك: «توقفوا عن مهاجمتنا وإذلالنا.. أخرجوا من بلادنا، وسوف تختفي القاعدة بعد ذلك من تلقاء نفسها.»، وفجأة يستدير رامي للخلف ويغادر الحجرة، ومكثت أنا وأبو سعيد في الغرفة المظلمة، أعلم أننى قد أتهم في ألمانيا بأنني تحدثت مع رجال القاعدة، إلا أن قليلاً من الناس ممن يعتبرون أنه يوجد معتدلون من بين مقاتلي القاعدة، لكن أنَّى للإنسان أن يحارب هذا الجنون الإرهابي، ولا يعلم دوافعه ولا يتحاور معه؟

إن أحد أسباب فشل سياسة الغرب ضد الإرهاب في السنوات الأخيرة هي إن معظم الساسة لم يدرسوا ويواجهوا ظاهرة الإرهاب بشكل جاد. إن تقرير بيكر-هاملتون يؤكد ساخراً، بأن الولايات المتحدة تعرف كل شيء عن المواد المتفجرة، التي تُستخدم ضد قواتها، أما عن الناس الذين يقومون بتفجيرها وعن دوافع فعلهم ذلك، فلا أحد يعلم شيئاً.

وكقاضٍ شاب، كنت مقرراً لبعض الشهور في قضية الإرهاب ضد عضوٍ من جناح الجيش الأحمر، كما أنني فقدت بسبب الإرهاب صديقاً رائعاً ذا صفات أبوية، ألا وهو «هانس مارتن شلير». وتعرفت في فترة شبابي كذلك على إرهابي معرفة شخصية جيدة، لذلك كثفت اهتمامي طويلاً بمشكلات الإرهاب.

إن أحد الأسباب الرئيسية للإرهاب لا تكمن في البؤس والفقر، وإنما في الفقدان التام للأمل بالتغلب على حالة الشعور بالظلم البين من خلال الوسائل الشرعية، ولا تجدي مع هذا الإرهاب إلا استراتيجية ربط وجمع الحزم مع العدالة، فالحزم بمفرده لا يكفي، ولا يمكن كذلك الانتصار على الإرهاب دون العدالة، فكلاهما وجهان لعملة واحدة.

ويرى أبو سعيد كيف أنني غرقت في أفكاري وشكوكي، ثم يقول: «دعنا نذهب إلى البيت، ولا تنزعج أنك تحدثت مع رجل من رجال القاعدة، يحب علينا أن نتحدث مع هؤلاء، ثم ننتصر على المتطرفين منهم، ونطردهم من البلاد ،أما المعتدلون منهم فعلينا أن نصرفهم عن أفكارهم».

يقف زيد بالخارج وينظر إليّ متسائلاً، لقد جلس طوال الوقت مع هؤلاء الرجال الذين جمعني بهم أبو سعيد، فذكرت لزيد أن الحوارات كانت شيقة للغاية، لقد عرفت الكثير، لكن لا أستطيع أن أستوثق من بعض الروايات.. في الواقع كان عليّ أن أعطي أولئك الذين تحاورت معهم وقتاً كافياً ليعبروا بصدق عما كانوا يشعرون به ويفعلونه، ولكن على زيد أن يواصل من الآن مساعدته لي في ذلك.

وأبدى زيد مرة أخرى تَمَنُّعَهُ، حيث بات واضحًا وجليًّا أن زيداً يريد أن يحتفظ بالجزء الأصعب من تاريخ حياته لنفسه، إلا أنني سألته عن رأيه في القاعدة، فقال: « إن هؤلاء المقاتلين الأجانب قتلة، وهم يستوون في درجة السوء مع الأمريكان بالنسبة للعراق، وعلينا أن نطردهم من العراق تماماً.»، ثم سرنا بالسيارة بعد ذلك، في صمت عائدين إلى الجزيرة.

احتفال بهيج في مدينة الرمادي

جلست العائلة مرة أخرى في منـزل أبي سعيد تشاهد التلفاز، بدأ فريق كرة القدم العراقي في هذه الأثناء يعود بموكبه المنتصر عبر دول الجوار العديدة للعراق، لقد رحب بهم، في كل من دبي والأردن، كثير من العراقيين المقيمين في منفاهم.

لقد تم إعادة عرض الأهداف مئات المرات، وبالتحديد الهدف الذي سجله الفريق العراقي في المباراة النهائية، وعلى الرغم من أن المباراة النهائية أقيمت قبل خمسة أيام إلا أن أسرة أبي سعيد وأقاربه لم يفقدوا حلاوة مشاهدة هذا الحدث، أما زيد فينظر إلى صور انتصار العراقيين الدولي والأول منذ سنوات عديدة.

يقول زيد إن الحكومة العراقية التي لا نعرف ممن تُوجَّه – هل من الولايات المتحدة الأمريكية أم من إيران – لم تتمكن من رسم السعادة في وجوه الناس بالعراق، ولكن هذا الفريق العراقي قد غمر قلوب جميع العراقيين بالفرح ، واستطاع أن يخلق ابتسامة ويسحرها على جميع الوجوه حتى الحزين منها، وبمجرد أن أطلق حكم المباراة صفارته معلناً فوز العراق، اندفعت مدينة الرمادي بأكملها إلى الشارع، حيث رقص الآلاف في الشوارع وغنوا واحتفلوا، وعلى خلاف العادة لم يتم بالطبع إطلاق النيران ابتهاجاً، لأن ذلك الأمر في الوقت الحالي غاية في الخطورة، ومن يدري فربما يرد الأمريكان بإطلاق النيران، كما حدث في أفغانستان أثناء الاحتفال بعرس؟

لقد شاركت الشرطة العراقية الجيش في الاحتفال، وعندما أقبلت مصفحة أمريكية للمشاركة أغلق الناس بموافقة الشرطة العراقية الشارع، ونزل سائق مصفحة أمريكي وبدأ يشارك الناس في الرقص، وهنا أخذ شاب عراقي صغير قشرة بطيخة واقعة على الأرض، وألقى بها على رأس الأمريكي، فما كان من الأمريكي إلا أن رجع بسرعة صاعداً إلى عربته، وضحك زيد، وقال:« إنّه عيد واحتفال العراقيين وليس للأمريكيين».

وسألت زيداً عن اللاعب المفضل له من بين لاعبي العالم لكرة القدم، فجاءت الإجابة أسرع من البرق: زين الدين زيدان، إنه أفضل لاعب وهو عربي الأصل ومسلم. وما رأيك في ضرب زيدان برأسه صدر مترازي في المباراة النهائية بين فرنسا وإيطاليا؟ لم يعجب ذلك الموقف في البداية زيد ولا رفاقه، لكن عندما عرف بأن اللاعب الإيطالي «مترازي» قد سبَّ أم زيدان وأخته، ووصفه بأنه إرهابي عربي، تعاطف معه زيد ورفاقه، قال زيد: «هل تعلم أحياناً أن هناك شعرة قد تقصم ظهر البعير، ما فعله «مترازي» بزيدان يفعله الغرب معنا نحن العرب يوميًّا، وضربة رأس زيدان بالنسبة له ذات دلالة رمزية، ولكن أنتم في الغرب لا تفهمون ذلك على كل حال».

لقد أعدت نساء المنزل مرة أخرى بالخارج، على عُشبَ الحديقة، وجبة طعام شهية، إنها العاشرة مساءً، وجلسنا نتلذذ بتناول الطعام في صمت، وسوف يقضي زيد ليلته معنا، وعليه فمن الممكن أن نجلس معاً ونتناقش طويلاً، ولكننا لن نتحدث عن السياسة والحرب، وإنما عن كرة القدم، وفجأة تحول زيد إلى شاب سعيد خالٍ من الهموم كسائر شباب العالم الآخرين، عندما يتناقشون بحيوية عن كرة القدم.

وعندما تمددت أخيراً على مرتبتي، كانت عقارب الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً، ولا زال يلعب بجواري أبو سعيد وأبو حامد وزيد الدومينو، وكل شيء يسير كالعادة، حيث انقطع التيار الكهربائي، ثم حلقت كلتا المروحيتين (الهيلوكوبتر) الأمريكيتين مرات عديدة فوق بيت أبي سعيد، كما حلقت طائرة استطلاع أمريكية بدوريتها المعتادة فوق المثلث السني، وتلألأت فوقنا كالعادة سماء مرصعة بالنجوم البهية اللامعة، وتألق القمر عبر قمم النخيل العالية، وهنا كنت أتمنى أن أنعم بنوم عميق لخمس ساعات إن شاء الله.

إخوة زيد

من المؤسف أنني لم أنم سوى أربع ساعات فقط، حيث أيقظني صوت المؤذن في تمام الساعة الخامسة، وأردت أن أستدير في نومتي على الجانب الآخر، ولكن أبا سعيد طلب مني أن أنهض من فراشي في التوِّ، حيث كان يبدو متوجسًا من شيء ما، ثم أردف قائلاً علينا أن نغادر المنزل في تمام الساعة العاشرة صباحاً، وهنا تفكرت بأنني لو أردت مواصلة الحديث مع زيد، فعليّ إذن أن أقوم بذلك الآن.

لقد ذاع في مدينة الرمادي خبر إقامة أجنبي «بالجزيرة»، حيث تلقى أبو سعيد إشارة من أحد رجال الشرطة المقربين منه بأن ثمة شيئًا يخيم في أجواء السماء، ولا يستبعد أبو سعيد أن ذلك قد يكون له علاقة بوجود بعض فلول العناصر الإرهابية لتنظيم القاعدة بالرمادي، لكن على كلٍّ لو علم الأمريكان عن زيارتي شيئاً لواجه أبو سعيد وأسرته بالتأكيد صعوبات جمة.. إن تواجد رجل من الغرب في مدينة الرمادي

دونما تصريح أو تخطيط من البنتاجون، يتحدث مع أناس بصورة عشوائية، إن هذا التواجد لحرى بأن يثير الريبة في صدور الأمريكان؛ فهذا شيء غير معتاد على الإطلاق، ويتنافى واستراتيجية علاقاتهم العامة، لذلك فعليّ أن أغير مقر إقامتي مؤقتًا.

نهضت من فراشي أتهادى إلى الدش كملاكم مُنْهَك، حيث أُعدّ لي فنجان كبير من القهوة، وبينما لم يسفر الصباح تمامًا، وبالتحديد في تمام الساعة الخامسة والنصف جلست مع زيد تحت شجرة من أشجار النخيل، وحملته على الحديث حملاً، وبدا تحت جفني أعين زيد سواد واضح؛ من المحتمل أنه بات يفكر طوال الليل دون أن ينام، في جميع ما حلَّ به وبأسرته في الشهور الأخيرة.

كان زيد يتحدث في ذلك اليوم ببطء شديد وروية، فهو يحاول بشكل ملحوظ أن يتحكم في مشاعره، حتى أنه أخذ يتنفس بعمق ويتوقف أثناء الحديث، بل ويطبق على كلتا شفتيه، وزيد هو الأخ الأكبر من بين ثلاثة أخوة، فأخوه هارون يصغره بعام، أما كريم فأصغر من زيد بعامين، وفي أبريل عام 2006م أقام هارون عدة ليالٍ عند عمه في وسط مدينة الرمادي، لقضاء إجازته الدراسية – حيث كان هارون يدرس الهندسة، وعمره آنذاك تسعة عشر عامًا – ويستمتع هارون بقضاء الاجازة قدر الإمكان في ظل ظروف الحرب الحالية.

وأضاف زيد : لم نكن نشارك في المقاومة العراقية مشاركة فاعلة، فكان هارون لا يساعد – كسائر شباب مدينة الرمادي – عناصر المقاومة، إلا إذا احتاجوا إلى مأوى أو معلومة، فلم يكن هارون ليصبح عضوًا نشطاً في المقاومة من تلقاء نفسه، وفي الرابع عشر من شهر

يوليو عام 2006 تأهب هارون في الصباح الباكر لمغادرة منـزل عمه والعودة إلى أسرته في الصوفية قبل أن يشتد الحر، وكانت عقارب الساعة قد تجاوزت السابعة صباحاً حينما انعطف هارون إلى الشارع الصغير الذي كانت تسكن فيه أسرته، حيث أخذ هارون يركل أمامه كرة صغيرة بالية كان قد وجدها وهو في طريقه إلى البيت.

كان هارون يحمل في يده اليمنى وردة بيضاء، قطفها عند إسفار الصباح ليقدمها إلى أمه، وبينما كان يسير هارون في الطريق ألقى السلام على أحد الشباب من الجيران، يدعى «جرير» الذي كان يسير على الجانب الآخر من الشارع، في تلك اللحظة بالضبط، وما أن تلفظ هارون بكلمة السلام حتى هزت أرجاء الشارع صوت إطلاقة نارية، فقبض هارون على مؤخرة رأسه بكلتا يديه غير مصدق أن الرصاصة أصابته، وجثا على ركبتيه ببطء شديد حتى سقط منكبا بوجهه على التراب، ظل ممددًا وسط الشارع وقد فارق الحياة ولم يزل ممسكا في يده اليمنى بالوردة الصغيرة البيضاء، التي كان يريد أن يهديها لأمه.

أما جرير فقد دلف في سرعة البرق إلى مدخل أحد المنازل المتهدمة لينجو بنفسه، وظل جرير جالسا هناك بلا حراك ساعة من الزمن، ثم رأى أن إحدى سيارات الإطفاء التابعة للمدينة حملت بعد مضي ساعة تقريباً جثمان هارون وانصرفت، ولا يُسمح في المدينة إلا لهذه السيارات أن تسير، فلو سار غيرها سوف يتم إطلاق النار عليه مباشرة، حتى وإن كانت سيارات الإسعاف نفسها، وتقوم سيارات الإطفاء في الوقت الحالي بأكثر من مهمة، فهي سيارة إطفاء وكذلك سيارة لنقل المرضى والموتى.

لقد سمع أيضا أناس آخرون من قاطني الشارع دوي الرصاصة، إلا أن أحدا لم يستطع التحرك من منـزله خوفًا على نفسه من أن يكون ضحية القناصة الأمريكان، ولم يجرؤ جرير على الخروج من مخبأه والإسراع إلى منـزل زيد إلا قرب العصر، وبمجرد أن أخبر جرير عن مقتل هارون، حتى امتلأ البيت عن أخره بصراخ اليأس والأسى والغضب، وخيَّم البكاء والعويل على جميع أفراد الأسرة غير مصدقين بموت هارون الذي كانوا معه البارحة عند عمه.

ثم انصرفت بعد ذلك الأسرة بأكملها؛ لكي يلقوا نظرة أخيرة على هارون في مشرحة الحي وحتى يعدوا له قبراً ويودعوه، لكنهم اكتشفوا عند وصولهم إلى المشرحة أنه قد تم دفن هارون منذ فترة طويلة بالفعل، فلا يمكن لغرف التبريد أن تعمل داخل المشرحة دون الكهرباء، لذلك يتم عادة دفن كثير من الموتى ، الذين يحملون يوميًّا إلى المشرحة بأقصى سرعة ممكنة.

ليس هناك وداع للميت، فلا تتمكن الأسرة عادة من المشاركة في صلاة الجنازة على ذويهم إن وجدت بالفعل، ورجع أفراد أسرة هارون إلى المنـزل وهم يبكون وينتحبون، وأخذ باقي أفراد العائلة – الوالدان والإخوة لمياء وميسون وزيد وكريم – يحتضنون بعضهم بعضاً من شدة الحزن على فراق هارون. وهنا توقف زيد عن الحديث، وشعرت بأنه يحتاج إلى استراحه؛ فقد أخفى عينيه بكلتا راحتيه حتى يخفي دموعه، وباتت جميع فرائصه ترتعد، ثم نهضت واقفاً من مكاني وتركته لبضع دقائق بمفرده، وحينما رأيت أنه قد استعاد وعيه جلست إليه مرة أخرى، فواصل الحديث بوجه يملؤه الإرهاق.

على الرغم من شدة الحزن على فراق هارون، حيث دام أسابيع طويلة، إلا أن الأخوين زيد وكريم عقدا العزم على التركيز على دراستهما، وكريم البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً قد أنهى لتوه مرحلة التعليم الثانوي، ويريد الالتحاق بالجامعة لدراسة علوم الزراعة، وفي الأسابيع التي تلت فراق هارون تقرب زيد من كريم أكثر، حيث كان زيدٌ يصطحب كريماً ليلعب معه كرة قدم، وكان زيدٌ يحرص على أن يلعب كريم معه في الفريق نفسه ما أمكن، وأحياناً كان يتنازل زيدٌ عن رياضته المفضلة ، ويذهب مع أخيه كريم إلى نهر الفرات ليسبحا معاً، حيث كان كريمٌ مولع بالسباحة.

وعندما بدأت الدراسة مرة أخرى في الخريف، أخذ زيد يرتب لهذا الأمر جيداً بحيث يستطيع أن يتدارس مع أخيه كريم الكتب الدراسية والمذكرات عصر كل يوم، فإذا ما سرح كريم ببصره بعيداً، أدرك زيدٌ أن كريماً يفكر في هارون فيقص عليه نادرة من النوادر، وهكذا كانت تمضي الأيام والشهور، وفي بداية عام 2007م اندلعت اشتباكات عنيفة في مدينة الرمادي ولحسن الحظ ظل منزل والد زيد قائماً، وفي مساء الخامس من يناير انفجر صاروخ ألقته طائرات الهليوكوبتر الأمريكية إلى جانب منزلهم، فدمر الصاروخ المولد الكهربائي الذي يمد منزلهم والمنازل المجاورة بالتيار الكهربائي.

هبت الأسرة في ذعر وفروا جميعاً متخفين بأقصى قدر من السرعة، من منطقة الاشتباك إلى منزل أحد الأعمام الذي يسكن في شارع يتقاطع مع شارعهم، لا يبعد سوى مئات قليلة من الأمتار، وعندما وصلوا هناك تذكروا أنهم قد نسوا أن يطفئوا المدفأة التي تعمل بالكيروسين،

وبالفعل قرر كريم أن يعود مرة أخرى إلى دارهم، ففتح الباب ونظر بحذر عن يمينه وشماله لكي يستكشف وضع القصف خارج المنـزل.

ثم هرول كريم مسرعاً، فناداه زيدٌ بأن يأخذ حذره، لأن طلقات المدفعية كانت تدوي في جميع أرجاء الشارع الصغير، وما إن تجاوز كريم ثلاثين متراً من منـزل عمه حتى خرَّ صريعاً، لقد مزقته طلقات المدفعية الأمريكية إلى أشلاء، وعلى الفور أراد زيد أن يهرع إلى خارج المنـزل لكي ينتشل جثمان أخيه، ولكنَّ أختاه أمسكتا به صارختين، فمعروف عن زيد أنه يكره العنف حتى في المدرسة التي كان يتجنب فيها أي مشاجرة، وكما أنه لا يعرف العنف أثناء اللعب بكرة القدم، ولكن ها هي الآن قد تبددت أمام عينيه جميع أسباب الأمان.

أراد زيد أن يخرج من البيت، وهو يصرخ ألماً وحزنا على أخيه.. يريد زيد أن يستعيد أخاه الأصغر، الذي سقط صريعاً في بركة من الدماء على قارعة الطريق، وعلى الرغم من أن طلقات المدفعية لم تزل تدوي في جميع أرجاء الشارع، إلا أن زيداً كان يريد الانقضاض على الأمريكان وأن يخنق أحدهم بكلتا يديه، ولكن أباه اعترض طريقه وتشبثت أمه بقميصه، وأمسك كل فرد من أفراد العائلة بتلابيب الآخر في عويل وصياح ملأه اليأس، وأضحى زيد يضرب الحائط بقبضتيه، وهو ينتحب قائلاً: «يجب أن أستعيد أخي، ربما لا يزال كريم على قيد الحياة»، ولكن أبويه وأختيه توجسوا خيفة من أن يفقدوه هو الآخر، كما فقدوا أخاه من قبل، فلم يتركوه يمضي.

وباتت الأسرة ليلتها تحملق من شباك المطبخ الصغير إلى خارج المنزل، فها هو كريم مستلق في بركة من الدماء على بعد أمتار، ومازال

إطلاق النار مستمرًّا في الشارع، ولقد أصابت باب المنزل عدة طلقات، ولم تسنح الفرصة بعد لانتشال جثمان كريم، وفي زهاء الساعة التاسعة صباحاً وصلت أخيراً سيارة الإطفاء، فدلفت الأسره محتمية بها إلى الشارع ولكن للأسف بعد فوات الأوان.. لقد فارق كريم الحياة، وهنا رفع زيد الجثة الهامدة لأخيه الأصغر على ذراعيه في حذر وحمله إلى سيارة الإطفاء، حيث وضعه في حنان تام على إحدى المحفات، ثم جلس إلى جانب جثمان أخيه ووضع رأسه على صدره و أخذ يبكي.

وهنا أبصرت زيداً وقد امتلأت عيناه بالدموع.. فوضعت يدي على كتفه، فنظر إليَّ والدموع تسيل على خديه، فأردت أن أنهض قائماً ولكن زيداً أمسك بي وتنفس الصُّعَدَاء عدة مرات وواصل الحديث.. يريد الآن أن يلقي بهذه القصة الأليمة وراء ظهره، ولا زالت ترتعش شفتا زيد ويتخلل شعره الكث بأصابع يديه، إنّ جراح قلبه التي أحدثها موت كريم منذ سبعة أشهر لم تلتئم بعد.

نقلت أسرة زيد جثمان كريم بعربة الإطفاء إلى أحد المساجد حيث صلوا عليه صلاة الجنازة المفروضة في الإسلام ودفنوه مع وقت الظهيرة، وهكذا عادت الأسرة إلى المنزل شاردة الذهن ومنكسرة، وتثاقلت خطوات والد زيد.. فقد تقدم به العمر في تلك الليلة سنين، ولم تتمكن أسرة زيد من دفن كريم إلى جانب أخيه هارون، فالأحكام العرفية لقوة الاحتلال تحظر دخول المركبات إلى الحي الذي يرقد فيه جثمان هارون.. إنها لأحكام صارمة لا تعبأ بالرغبات الخاصة.

لم تُحدثْ ليلة الخامس من يناير عام 2007 تغييرات على الأب فحسب، وإنما طالت آثارها ابنه الذي لازال على قيد الحياة، فقد صار

زيدٌ شخصاً آخر غير الذي كان، ويروي لي زيد هنا بصوت هامس: «لقد تبين لي بعد موت أخي الأصغر أنني لن أكتفي بمساندة المقاومة مساندة غير مباشرة.». وهكذا وصل زيد من جراء ما حدث إلى نتيجة مفادها أنه يجب عليه أن يقدم للمقاومة الكثير، شأنه في ذلك شأن معظم أصدقائه من أفراد المقاومة العراقية.

في هذه الأثناء بلغ عدد الموتى في مدينة الرمادي الآلاف، فينعي تقريباً كل بيت فقيداً له، وهنا يطرح عليَّ زيد هذا السؤال: «هل تعلم أن ملاعب كرة القدم تحولت في الرمادي إلى مقابر للموتى، لأن المدافن الرسمية ضاقت بالموتى؟»، إن زيداً يزدري تنظيم القاعدة الذي لايقاوم الأمريكان فحسب، وإنما يشن حرباً شعواء على كل مَنْ يعترض طريقه من الناس وزعماء العشائر والأطباء والمهندسين والعمال؛ لذا فإن زيداً لا يضع في اعتباره إلا حركات المقاومة الإسلامية المعتدلة أو المنظمات القومية المستقلة ،أو جناح المقاومة لحزب الوحدة العربية حزب البعث، لكن ليس لدى زيد أي تفضيل بين هذه المنظمات، فلا يعلم زيد إلا طريقاً واحداً وهو أنه يجب عليه أن يقدم شيئاً.

في قلب المقاومة

في الدقائق الماضية بقي أبو سعيد واقفاً خلفنا، ثم أمرني قائلاً: «لابد أن نذهب وإلا ستقابلنا بعض الصعوبات، وعلاوة على ذلك فلدينا بعض الارتباطات.»، لقد كانت الساعة التاسعة والنصف، فحزمت

أمتعتي ووضعتها في السيارة، ورافقنا زيد أيضاً. وبناء على طلب أبي سعيد، غطيت رأسي بالغترة والعُقَال وهو غطاء رأس عربي تقليدي .

وتوجهنا إلى قلب المدينة عبر طرق وعرة وشوارع مليئة بالحفر، ومررنا بعديد من نقاط التفتيش، ولما كنت مرتدياً الثياب العربية وجالساً في المقعد الخلفي لسيارة الشيفروليه فلم ألفت انتباه اي شخص، حتى شاربي المصفف بعناية، والذي كان يدغدغني على الدوام ساعدنا اليوم بشكل كبير.

وبالقرب من قلب المدينة - الذي يحظر على السيارات دخوله؛ حيث لا يمكن نقل الناس أو البضائع إلا في مركبات صغيرة ملونة ثلاثية الإطارات تسمى «طرطوره» - انعطف موسى في شارع جانبي صغير، يحتوي على بضعة بيوت تبدو كالقصور. وبمجرد أن توقف أمام أحدها، فتح باب الحديقة وكأن يداً سحرية قد فتحته، ثم انغلق خلفنا في الحال.

وفي مدخل الباب، استقبلنا عديد من الرجال، حسني الطلعة، تتراوح أعمارهم ما بين الأربعين والستين، وكانوا يرتدون دشداشات عربية بيضاء وغتر بيضاء وعقالات سوداء أي مثلي تماماً، وهمس لي أبو سعيد: « إن هؤلاء الأشخاص يعدون من كبار قادة المقاومة في محافظة الأنبار الصحراوية، وكان أكبرهم سنًّا أبا باسم الذي كان قائداً عسكريًّا ذا رتبة عالية، ولكن أبا سعيد لم يخبرني أي هؤلاء الرجال الخمسة هو القائد الأعلى، لقد كان عليّ أن أكتشف هذا بنفسي، وبدا أن أبا باسم هو فقط المضيف، وذهبنا إلى غرفة باردة الجو، وكان بها جهاز تكييف يعمل بمولد منزلي، وكان يعمل بطريقة جيدة، حتى أنني شعرت بالبرد، وقادني أبو باسم- الذي كان مثله مثل زملائه يغير محل إقامته كل

أسبوعين لدواعٍ أمنية- إلى أريكة قرب جهاز التكييف. وكانت الستائر مسدلة إما بسببٍ أشعة الشمس، أو ربما لدواعٍ أمنية. ولما تعودت عيناي الضوء الخافت، رأيت في واجهة الغرفة رجلاً في الثلاثينات من عمره برأس ضخم وشعر قصير، وكان مستلقياً على مضجع بسيط، كان اسمه «سمير»، وكان مصاباً بشلل رباعي. وبينما كان قادة المقاومة يتحدثون مع أبي سعيد، قص عليّ سمير كيف لحقت به هذه الإصابة.

في بداية عام 2006 كان هو وصديقه ياسر يقودان سيارتهم الميتسوبيشي على طريق الرمادي-بغداد الزراعي، لأنهم أرادوا أن يزوروا طبيباً في بغداد. وعلى أحد المعابر وجدوا أنفسهم في وسط اختناق مروري عند إحدى التقاطعات، فاضطر ياسر لأن يتوقف في التقاطع، وفي تلك اللحظة ظهرت سيارة همفي مدرعة من الشارع المقابل، وصدمت السيارة الميتسوبيشي وأزاحتها عن الطريق، فانقلبت سيارته وتدمرت تماماً، ومات ياسر في الحال ..أما سمير فقد حشر بين لوحة المفاتيح والمقعد المجاور للسائق، أما سيارة الهمفي فلم تصب بأذى، فكل ما حدث أن سائقها قد رجع بالسيارة إلى الخلف قليلاً، ثم أكمل طريقه، دون أن يلقي بالاً للسيارة الميتسوبيشي المدمرة، ولم يعرف سمير أبداً من كان يقود سيارة الهمفي تلك.

وأُخرج سمير من السيارة بواسطة أحد أجهزة لحام المعادن وقيل له في المستشفى إن الضلع الخامس في صدره قد كُسر، وأنه سيبقى طوال حياته مصاباً بشللٍ رباعيٍّ، ومنذ ذلك الحين لا يمر يوم دون أن يفكر في صديقه الميت، وإن كان جسده أيضاً في حكم الميت، وسألته: إن كان ناشطاً في المقاومة فيما مضى؟ فقال لي ضاحكاً: «إن كل

العراقيين كذلك.»، ولكنه لم يكن عضواً ناشطاً في المقاومة من قبل. ولكن بعض أبناء عمومته انضموا إلى المقاومة منذ بدايتها، ولهذا زُجَّ بتسعة منهم في سجن أبو غريب في عام 2004، وقتل أربعة منهم في محاولة للهرب في سبتمبر 2004. وكان الأمريكيون يستخدمونهم كدروع بشرية في الحرب، وكان هو شخصيًّا قد اعتقل لمدة شهر ونصف في عام 2004 في معتقل «أبو غريب»، وقال: «كانوا يعاملوننا كالحيوانات، فكانوا يضربوننا ويركلونا ويبصقون علينا ويصرخون في وجوهنا ليل نهار، وأرادو أن يجبروننا على أن نأكل من لحم الخنزير، وهذا يعارض أحكام القرآن، لكننا لم نفعل ذلك ولهذا لم نذق طعاماً طوال اليوم»، حتى الآن لقي ما مجموعه ستين فرداً من عائلته حتفهم ما بين إخوة وأعمام وأبناء عمومة، ولكن من قد يهتم بهذا في الغرب؟ فهناك لايجري إلا إحصاء القتلى من الأمريكيين، وبكل عناية.. أما العراقيون فلم يعد أحد يعتني بإحصاء قتلاهم بطريقة صحيحة.

ولا يخفف من جرم الولايات المتحدة الأمريكية أن كثيرًا من المدنيين العراقيين قد قتلوا على يد القاعدة والميليشيات الشيعية المتطرفة. وقال: «لقد جلب الأمريكيون هذا الوباء إلى بلادنا، فهم يتحملون المسئولية عن ذلك، فقبل الغزو الأمريكي لم تكن بلادنا تعرف لا إرهابيين ولا الحروب الطائفية». في الغرفة الكبيرة التي يوجد بها اثنا عشر رجلاً كانت الوجوه صارمة، وحاول أبو باسم أن يؤدي دور المضيف بجدية، فحياني تحية رسمية باسم عائلته وأصدقائه، فأنا أول غربي يأتي إلى الرمادي دون طائرة مروحية أمركية أو سيارة همفي أو عربة مصفحة، ودون متحدث صحفي عسكري أو حراس شخصيين،

أو يبيت في معسكرات أمريكية مشددة الحراسة، ولذلك فهو يود أن يشكرني من كل قلبه.

ولهذا، فقد حظيت بفرصة مؤكدة لكي أتعرف على الحقيقة، وأستغرب من أن عديدًا من الصحفيين الغربيين لا يستقون معلوماتهم عن أحوال الناس في العراق إلا من الضباط الأمريكيين تقريباً، ومن الواضح أنه ليست لدى البنتاجون أي مصلحة أو اهتمام في إظهار المدى الحقيقي للمأساة العراقية، وكان هذا مشابهاً لما حدث في بولندا عام 1943 ، عندما كان الصحفيون يرافقون القوات الألمانية إلى بولندا المحتلة، وكانوا يكتبون مقالات عن أحوال السكان البولنديين، اعتماداً على نزاهة المتحدثين الصحفيين العسكريين.

أوضحت لأبي باسم أن السفر كصحفي برفقة قوات الاحتلال هو الوسيلة الوحيدة لمعظم المراسلين ، لكي يحصلوا على صورة وافية عن الوضع في العراق، فهكذا يجري الحال في البلدان المحتلة، فرد عليَّ بهدوء: أن المثال الذي طرحناه يوضح أن الأمور تسير على نحو آخر، فقلت له معترضاً:« إنني لا أستطيع أن أفعل هذا أكثر من مرة خلال العام، وأنه قد لا يتسنى لي أن أرى كل شيء، فأنا نفسي اضطر بشكل دائم للوصول إلى حلول وسط، فقال أبو باسم: «أنت محق ولكنك أتيت إلى ضحايا هذه الحرب، أما الآخرين فهم يذهبون إلى الجَزّارين».

ومن خلال هذه التصرفات أصبح البنتاجون المحتكر الوحيد للمعلومات، فطوال الأربع سنوات ونصف الماضية، لم يتحدث صحفيٌّ واحد مع المقاومة العراقية، وعديدون منهم قد لا يعرفون أن هناك شيئًا يحمل هذا الاسم أصلاً، على الرغم من أن المقاومة العراقية

والقوات الأمريكية هما أكبر قوتان عسكريتان في العراق، فغالباً ما تتشابه «تقارير الجبهة» في الصحافة الدولية في أدق التفاصيل؛ فكثير من المراسلين يقتبسون كل ما يقوله الناطق باسم الجيش، ويتحدثون بحماس عن تحسنات في تزويد السكان بالكهرباء والماء والوقود.

في حين أن الحال على خلاف ذلك تماماً، فلم يقض أحد من هؤلاء الصحفيين بضعة أيام مع إحدى العائلات العراقية، ولكنهم يرددون حرفيًّا كالببغاوات ما يخبرهم به الضابط الأمريكي المرافق لهم، وبطبيعة الحال لم يعش هؤلاء الضباط مع إحدى تلك العائلات. إن التقارير الصحفية لهؤلاء هي مثار سخريتنا . لا وجود لذلك العالم المسالم الذي يتباهى به البنتاجون أمام وسائل الإعلام في بعض المدن العراقية وعلى الأخص في الوقت الحاضر، و لا ينتظر أن يوجد في المستقبل القريب. ولا يخص هذا الوضع مدينة الرمادي وحدها، بل يشمل العراق كله للأسف الشديد.

فرددت على أبي باسم بأنني أجد كلامه عامًّا جدًّا، لأني قرأت عديدًا من المقالات الموضوعية والمنصفة عن العراق في الصحافة الألمانية والأمريكية، وعادة ما أجد الصحفيين الحربيين على وجه الخصوص من المراسلين الشجعان؛ فهم يخاطرون بحياتهم من أجل مهنتهم، فلقد لقي حوالي 200 صحفي حتفهم حتى الآن في العراق، ولكني فكرت خفية أنه محق في جزء من انتقاداته، فنادراً ما تقوم وسائل الإعلام بالتدقيق الفعلي في الأخبار الواردة من البنتاجون، ولم تجلب طريقتي في الحصول على المعلومات - تلك التي أشاد بها بشدة – إلا مشكلات كبيرة لي في وطني.

فغيرت الموضوع وسألته عن الوضع العسكري في الرمادي، فأوضح لي أبو باسم أن الرمادي أصبحت مركزاً للمقاومة العراقية، بعد سقوط الفلوجة التي سويت بالأرض في عام 2004، وتمتد سيطرة المقاومة من المدينة إلى بعض المناطق المحيطة بها، وحظيت المقاومة منذ البداية بدعم ومساعدة جميع سكان المدينة الأربعمائة وخمسين ألفاً، وصرح القائد الأمريكي «جايمس ماتيس» ذات مرة:« بأنه إن سقطت الرمادي فلتذهب بقية المنطقة إلى الجحيم».[22]

ولقد كانت معنويات قوات الاحتلال الأمريكية منخفضة منذ البداية، ولقد ساعدت قبيلته العديد من الجنود الأمريكيين على الفرار من الخدمة العسكرية، فهم يهربونهم عبر الحدود إلى الأردن، ويدفع الجنود الأمريكيون ستمائة دولار للخروج من العراق، وبالإضافة إلى ذلك يتعين عليهم تسليم أسلحتهم وزيهم الرسمي، وهم يفعلون هذا عن طيب خاطر.

ولقد ساعد أبو باسم نفسه خمسة جنود أمريكيين على الهرب، حيث أتوا ليلاً إلى نقطة اللقاء المتفق عليها مسبقاً، وهناك ترجلوا من سياراتهم الهمفي وبدلوا ملابسهم وأرتدوا (الدشداشة)، وسلموا أسلحتهم بالإضافة إلى ستمائة دولار، وفي جنح الليل جرى تهريبهم إلى الأردن، وفي صباح اليوم التالي عاودت الطائرات المروحية البحث عن الجنود ، وحاولت الاتصال بهم ، ولما فشلت في ذلك دمرت سيارة الهمفي من الجو .

وتوضح الأعداد المتزايدة من المنتحرين، ضمن صفوف الجنود الأمريكيين العائدين23 ، من الحرب مدى إدراك الجنود بأهوال هذه

الحرب المجنونة، ولقد بثت وسائل الإعلام الأمريكية والعربية عديداً من التقارير عنهم، ويفوق هذا العدد عدد الجنود الأمريكيين الذين سقطوا في العراق . وعلى مدى سنتين ونصف استمرت المعارك الضارية في محيط مدينة الرمادي، وفي يونيو 2006 شن الأمريكيون كثيرًا من الهجمات الكبرى، واقتحموا مئات البيوت بزعم أنهم يمشطونها لاعتقال المتمردين والإرهابيين، ولقد قاموا بأعمال وحشية تفوق التصور، حتى أنهم كانوا ينسفون الأبواب بالقنابل، واستمرت حرب الشوارع في الرمادي لمدة شهر كامل.

تم قصف المدينة مرات عدة حتى أن أجزاء من قلب المدينة بدت لبعض الوقت كبيروت بعد الحرب الأهلية، فعلى سبيل المثال قُتل عديد من المدنيين في الهجمات الجوية في نوفمبر 2006، من بينهم أشخاص في إحدى مقاهي الإنترنت، وكان من بين الضحايا نساءٌ وأطفال. وكعادتها، أنكرت القوات الأمريكية هذا في بادئ الأمر، حتى ظهرت صور الجثث فبدأوا يتحدثون عن إصابات بسيطة. ووفقاً لخبرته.. فإن ما يعلنه البنتاجون عن أعداد الضحايا من العراقيين لابد أن يضاعف عشر مرات، لكي نقترب قدر الإمكان من العدد الحقيقي.

وكان واضحاً أن المقاومة العراقية متفوقة على القوات الأمريكية، ففي نهاية عام 2006 ، نشرت الصحافة الأمريكية تقارير سريةً تقول إن أمريكا فقدت سيطرتها العسكرية على الرمادي ، حتى جنود مشاة البحرية لم يكن لديهم أمل في النصر، لقد خسروا المعركة الدائرة على الرمادي منذ عامين ونصف.

لقد لعبت أهمية الرمادي كمركز للمقاومة العراقية، وقربها النسبي من بغداد، دوراً مهماً في جذب القاعدة،[24] فزحفت جماعاتهم على الرمادي وعاثوا في الأرض فساداً، وكثيراً ما أقام الأردني «الزرقاوي» في الرمادي وفي محيطها، وبسبب جنون العظمة نادت القاعدة بالرمادي كعاصمة لـ «جمهورية العراق الإسلامية المحررة».

وقام المئات من مقاتلي القاعدة بالمشاركة في المعارك الدائرة حول الرمادي، وفي البدء جرى تعاون محدود بين المقاومة العراقية والقاعدة، وسرعان ما لطخت القاعدة سمعة المقاومة العراقية، كما فعلت في بغداد، لأن قيادتهم لم تكن تستهدف العسكريين من الأعداء فقط، بل كانت لا تميز بينهم وبين المدنيين.. لقد حولوا الرمادي إلى غرب العراق المتوحش.

فطالما تباهت المقاومة بحرصها على حماية حياة المدنيين، وأشار أبو باسم إلى زيد قائلاً: «هذا الشاب هو خير مثال على هذا». وهنا احمر وجه زيد خجلاً، وكان ما قام به زيد من إلغاء عملية هجوم بسبب وجود رجل عجوز، بجوار مكان القنبلة المزروعة، قد تناهى إلى مسامع قيادة المقاومة. ويوجد على موقع يوتيوب حالة مشابهة موثقة بالفيديو، حيث كان أحد المقاومين يصوب بندقية تجاه جندي أمريكي، وكلما أراد أن يضغط الزناد يرى طفلاً يمر أمام الجندي، وبعد بضع دقائق تنازل المقاوم عن هدفه وقال لي: «إن بإمكانه أن يعرض عليّ هذا المشهد إن أردت..»، وهنا لابد أن أقر وليس للمرة الأولى أن ثورة الإنترنت قد وصلت إلى العراق.

وقال إنه لا يسمح لأي فرد من جماعته أن يقتل أحدًا من المدنيين، أما مقاتلو القاعدة الأجانب فهم لا يتورعون عن فعل هذا. وأكد أن هناك خطًّا فاصلًا بين المقاومة والإرهاب، وأن من يقتلون المدنيين سواء كانوا من القاعدة أو الميليشيات، فهم ببساطة قتلة، ففي الرمادي - وحدها - تتحمل القاعدة مسئولية عشرات القتلى من المدنيين، وهذه النسبة تفوق نظيراتها الموجودة في بقية مناطق البلاد.

ولقد وقفت مجموعات المقاومة في المدينة، جنباً إلى جنب، مع شيوخ عشائر الأنبار في مواجهة هؤلاء القتلة الأجانب لكي يطردوهم من الرمادي، وقد أزمعت نصف قبائل الرمادي تقريباً على إبرام اتفاق لوقف إطلاق النار مع الأمريكيين، ولقد انهالت الدولارات من أجل ذلك الغرض. وبالإضافة إلى ذلك، تم مؤخراً عقد مؤتمر في يونيو من عام 2007 في فندق « المنصور-ميليا» في بغداد، بالقرب من «المنطقة الخضراء»، ولقد شارك فيه بعض شيوخ عشائر الأنبار، واستهدف المشاركون في المؤتمر بتفجير ضخم، ولقي اثني عشر شخصاً حتفهم من جراء الانفجار،[25] وأوضح هذا التفجير أن اتفاق شيوخ الرمادي مع الأمريكيين يواجه معارضة كبيرة، وأن الأمر الوحيد الذي يتفق عليه الجميع هو الحاجة لمحاربة القاعدة.

وتذكرت فجأة أني كنت أردت أن أسافر إلى بغداد في يونيو 2007 ودونت في تأشيرتي أن محل الإقامة هو فندق «المنصور-ميليا» فقلت في نفسي«كان حظي سعيداً». وواصل أبو باسم قائلاً: «إنَّ التركيز على مواجهة القاعدة كان ناجحاً حيث طُرد كل الأشرار بما فيهم مقاتلي

القاعدة الأجانب، وحدث هذا بسرعة نسبيًّا، حيث أخرج لهم سكان الرمادي البطاقة الحمراء، فدون الحد الأدنى من المساعدات من السكان، لاتستطيع أي حركة مقاومة سرية أن تبقى على وجه الأرض».

وكذلك الأمر في بقية المحافظات العراقية حيث ووجهت القاعدة بالرفض من السكان، وسرعان ما تركها أعضاؤها العراقيون لتتحول إلى شراذم؛ لأن عقيدة احتقار الإنسان التي تعتنقها تلك المنظمة الإرهابية بعيدة كل البعد عن العراقيين، وقال: «لقد طفح كيل العراقيين من القاعدة، وعلاوة على ذلك.. فنحن نريد أن نحرر بلدنا بأيدينا، ولا نحتاج لمتطرفين أجانب لفعل ذلك.»، وأوضح أبو باسم أنه يعرف أن وقف إطلاق النار هذا قد أعطى فرصة للأمريكيين لالتقاط الأنفاس، ولكن هذا لا يساوي شيئاً أمام توفير الحماية التامة التي حققها وقف إطلاق النار للسكان المدنيين في الرمادي من القصف الأمريكي ومن جرائم إرهابيي القاعدة الطائشة في حق السكان المدنيين.

وتقوم جميع حركات التحرر في العالم، على مدار تاريخها، بعقد مثل تلك الاتفاقيات لوقف إطلاق النار، وخلال تلك الفترة تقوم المقاومة بإعادة تنظيم صفوفها، فليست المقاومة جيشًا نظاميًّا ولا ثابتًا، وإنما تتغير دائمًا صعودًا وهبوطًا، ولقد خبر الأمريكيين شخصيًّا هذا الأمر في ڤيتنام، وما تقوم به الحكومة الأمريكية من تسويق لوقف إطلاق النار، أمام الصحافة الدولية على أنه نصر كبير، لا يهم المقاومة في شيء. وتابع أبو باسم قائلاً: «نحن نعرف أن البنتاجون قد أرسل وفوداً من الصحفيين إلى قلب مدينة الرمادي؛ لكي يثبت نجاحه النهائي، ولن يصدر من جانب البنتاجون أي تحليلات منصفة ولا إحصائيات موثوق بها حتى الانتخابات الرئاسية في نهاية عام 2008».

«.. ولكن ما لم يظهره البنتاجون أمام الصحفيين المدعوين إلى الرمادي، هو أن منطقة «الأربع الكيلومترات» التي زعم أنهم يمكنهم التحرك فيها بحرية ، وهم يتمتعون بحماية سيارات الهمفي المدرعة، هي منطقة أحكمت قوات الأمن الأمريكية والعراقية إغلاقها. وللمرور من خارج هذا الطوق الأمني إلى داخله، لابد من المرور على ما لا يحصى ولا يعد من نقاط التفتيش سواء العسكرية منها أو الخاصة بالشرطة؛ مما يحتاج لساعات طوال، وأحياناً قد لا يمر المرء مطلقاً، ولكن هذا الاستعراض لا يهمنا في شيء فنحن لن نقبل أبداً وجود الاحتلال الأمريكي، ومن هنا يطالب ثلاثة أرباع العراقيين بانسحاب القوات الأمريكية، نحن لدينا الوقت أما الأمريكيون فليس لديهم مثل هذا الوقت، فلقد اضطررنا لتحمل الإنجليز لسنوات طوال بعد الحرب العالمية الأولى، ولكن الأمريكيين سيخرجون بأسرع من هذا بكثير، أبكر بكثير مما قد يظنون؛ فالمقاومة العراقية في كل مكان، فنحن نضرب في المكان والزمان الذي نراه مناسباً، وقد يحدث هذا في الرمادي غداً أو بعد عام، فنحن نعلم أننا سنكسب هذه الحرب، أما الأمريكيون فهم يعرفون أنهم سيخسرونها وأنهم سيخرجون. أمّا متى؟ ربما غداً، ربما بعد غد إن شاء الله».

وسألت أبو باسم: «ألا يشترك العراقيون في المسئولية عن تلك الأعمال الإرهابية المروعة التي يراها العالم كل مساء في نشرات الأخبار.»، فأومأ أبو باسم برأسه موافقاً، وقال إن هناك بالفعل إرهابيين بين العراقيين» في القاعدة و الميليشيات، ويقع على عاتق الاحتلال ذنب نصف عدد القتلى من العراقيين، ولكن يتم إخفاؤه وحسب تقديراته فإن حوالي 30% آخرين قتلوا على يد ميليشيات السياسيين الشيعة، وما بين 5% إلى 10% لقوا مصرعهم على يد القاعدة، أما الباقون فقد

لقوا مصرعهم على يد «الشركات الأمنية الأمريكية الخاصة»، وعلى يد منظمات الجريمة العادية، التي خرجت عن السيطرة،ولا يمكن لأحد البت في الأعداد الدقيقة.[26]

وكإحدى نتائج سياسة الاحتلال والإرهاب والمعاناة التي خلقوها ظهر أيضاً «التطهير الطائفي» حيث هُجِّر السنة من المناطق ذات الأغلبية الشيعية، وهُجِّر الشيعة من المناطق ذات الأغلبية السنية؛ وحتى في بعض قرى محافظة الأنبار قامت القاعدة بطرد الشيعة، لقد حدثت أشياء لا يستطيع أن يفتخر بها كعراقي، ولكنه سمح لنفسه أن ينوه إلى أنه - طبقاً للقانون الدولي- تتحمل قوات الاحتلال المسئولية عن حماية السكان، وقال: «نحن لم نضع أنفسنا في هذا الوضع الكارثي، وتتحمل الولايات المتحدة الأمريكية المسئولية القانونية والأخلاقية عن جميع ضحايا هذه الحرب، وليس فقط عن أولئك الذين قتلتهم بنفسها.»، وقال: «إن معظم الهجمات الانتحارية الإرهابية-التي تلاقي اشمئزازاً من الرأي العام العالمي- يتم تمويلها من الخارج، سواء من مقاتلي القاعدة الأجانب، أو من إيران، بل وأيضاً من عملاء الولايات المتحدة الأمريكية المأجورين».

فهو على سبيل المثال، لديه معرفة وثيقة بأحد المترجمين العراقيين، الذي عمل لمدة طويلة لدى القوات الأمريكية والاستخبارات السرية الأمريكية، وشركة «بلاك ووتر» «Black Water» وفي وقت ما حدث خلاف، وفقد الطرفان الثقة في بعضهما البعض، وفي أحد الأيام أمره أحد وسطاء الأمريكيين فجأة أن يسافر بسيارة رسمية إلى كركوك، حيث سيقابل أحد الوسطاء العراقيين بالقرب من ساحة

السوق، وبمجرد أن يصل إلى ساحة السوق، ينبغي عليه أن يتصل من هاتفه النقال برقم معين، وبعدها سيحصل على التعليمات التالية.

وانطلق المترجم فرحاً لحصوله على مهمة رغم الخلاف، وبينما هو في الطريق وجد أن موضوع استدعائه إلى ساحة السوق في كركوك يعد غريبًا، فلما وصل إلى كركوك ترك السيارة في موقع بناءٍ مهجور، وبعد أن ابتعد ببضع مئات الأمتار قام بالاتصال بالرقم الذي تسلمه، وفي اللحظة نفسهاالتي ضغط فيها على زر الاتصال الأخضر، طارت السيارة في الهواء، وارتفعت سحابة عظيمة من النار والدخان فوق موقع الانفجار؛ ولوكان ذهب إلى ساحة السوق المزدحمة بالناس حسب الاتفاق، لكان لقي مصرعه هو وكثير من الناس الأبرياء، ولذكرت وسائل الإعلام أن أحد الانتحاريين العراقيين قد فجَّر نفسه في ساحة السوق، ولتجددت نار الكراهية بين مجموعات السكان بل ولتزايدت، أما المترجم فهو الآن عضو في المقاومة ويعمل تحت قيادتها».

وخيم في الغرفة صمت مهيب، وحتى زيد كان ينظر مشدوهاً لأبي باسم، فحتى هذا الوقت لم يكن يعرف أي شخص من قيادات المقاومة في محافظة الأنبار، وكنت أنا نفسي مندهشاً من اصطحاب أبي سعيد له معنا في هذا اللقاء، وفي إحدى الغرف المجاورة، كانت النساء – اللواتي لم يتسنى لي أن أراهنَّ – يقمن بإعداد طعام العشاء، وكان في الطعام سمك شبوط مشوي، ذلك الذي أكلته بشغف قبل الحرب في بغداد على ضفة نهر دجلة، وأيضاً لحم مشوي و دجاج محمر، وكثير من الخضروات والبطيخ والحلويات.

ويتم تناول الطعام في العراق، كما في كل الدول الإسلامية تقريباً دون ملاعق وبشكل جماعي من أطباق كبيرة، وانتقى لي أبو سعيد خصيصاً قطعاً شهية من اللحم والدجاج، ورفعها إلى فمي بيده اليمنى - كأخ لي - ولما لم أكن معتاداً هذه الطريقة في تناول الطعام، رجوته أن يضع هذا الطعام الشهي في طبقي، ثم ودون أن يشعر أحد غطيتها برغيف خبز، على أمل ألا يلاحظ أي واحد منهم.

وبعد تناول الطعام أدوا صلاة العشاء وأخيراً واصلوا نقاشهم الذي لا ينتهي، وسألوني عن موقف الحكومات الأوروبية تجاه المقاومة؟ ولكني لم أكن أعرف، وأغلب الظن أن الحكومات الأوروبية نفسها لا تعرف وأوضح لي أبو باسم: أن بود المقاومة أن تقوم بعقد اتصالات مع الحكومات الأوروبية للتوصل لحل سلمي عادل في العراق؛ فقيادة المقاومة العراقية – والتي يبدو أن لديها علمًا بزيارتي – طلبت منه بصراحة أن يُحالَ إليَّ هذا الطلب، وسألت أبا باسم السني: إن كان سيقبل وجود حكومة مؤلفة من قبل الشيعة بعد انسحاب الأمريكيين والتي يأخذ فيها الشيعة – طبقاً لبنية السكان المحتملة – ثلثي حقائب الوزارة ويشغلون ثلثي مقاعد البرلمان... فأمعن أبو باسم النظر في مندهشاً، وسألني إن كان يتم توزيع حقائب الوزارة ومقاعد البرلمان في ألمانيا وأمريكا طبقاً للانتماء الطائفي؟ إن هذا يعد ضرباً من الجنون يليق بالعصور الوسطى، وأنا هنا أقتبس كل مزاعم الأمريكيين اقتباسًا حرفيًّا، أولئك الذين قادوا العراق إلى هذه الفوضى المرعبة، وكنت أعرف أنه ليس مخطئًا تمامًا، ولكني استفسرت منه على الرغم من هذا مرة أخرى: «ماذا سيحدث إن حدثت انتخابات حرة بعد انسحاب الأمريكيين، وأدت بسبب أو لآخر لأغلبية شيعية ساحقة؟ فأجاب:«إن

كانت هذه الحكومة الشيعية نزيهة ووطنية وانتخبت في انتخابات حرة، فمن البديهي أننا سنقبلها، وهذا مما لا يتسرب إليه شك.»

وأومأ الرجال في الجلسة برؤوسهم موافقين.

وتعد من مشكلات الحكومة الحالية - كما أشار أحدهم - أن نسبة كبيرة إلى حد ما من أعضائها يحملون جوازات سفر إيرانية، وأضاف:«نحن لا نريد حكومة إيرانية الإرادة وغالبية الشيعة في العراق لا يريدون هذا أيضاً.»[27] وهنا، وللمرة الأولى في هذا المساء ضحك أبو باسم، فأنا أعرف تمام المعرفة أنه بعد الغزو قام الأمريكيون بنشر خمسة وخمسين ورقة من أوراق اللعب، تحمل صوراً للرجال الأكثر نفوذاً، والمطلوبين من قيادات النظام السياسي والعسكري في عهد صدام حسين. وكان ستة وثلاثون منهم، أي الثلثين تقريباً من الشيعة، وهذا دليل قاطع على أن تقسيم العراق -المزعوم أنه أزلي- إلى طوائف متصارعة هو محض جنون جرى افتراؤه لتدمير العراق من الداخل، لأنه لا يمكن الانتصار عليه من الخارج.

سألت أبا باسم: «ما الذي سيحدث بعد انسحاب الأمريكيين من العراق؟» فأجاب أبو باسم باختصار وبجفاف: «إذا وجهّت المقاومة والسكان قواهم نحو مكافحة الإرهاب وطرد الميليشيات، سيتخلص العراق من تلك المشكلة سريعاً، وتشكل الرمادي خير مثال على ذلك، حيث لا يوجد حاجة للأمريكيين، فهو لا يمكنه أن يفهم هذه الحجة الغربية المتغطرسة: أنه لابد من بقاء الأمريكيين في العراق لمنع حرب أهلية، فهذا أشبه بطبيب مصاب بالطاعون والكوليرا ونقلها إلى بلد ما، ولما طلب منه أن يغادر البلد، أجاب بأنه لابد أن

يبقى، لكي يحارب الطاعون والكوليرا». وأضاف:«عندما ينسحب الأمريكيون ستفقد القاعدة أهم أعدائها، بل وأهم حججها، وسرعان ما سيترك الأعضاء المتبقون فيها من العراقيين قيادتهم الأجنبية، والأمر سيان فيما يخص ميليشيات السياسيين السنة والشيعة، فمعظمهم من الأذناب؛ وسرعان ما سيتم الانتهاء من البقية، فلايوجد في العراق جبال هندكوش، يمكن للإرهابيين أن يختبئوا بها.

وعلاوة على ذلك، فإن الحكومة الأمريكية تبالغ في حجم القاعدة، فلم يحدث أبداً أن وجد في العراق أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل أجنبي من القاعدة؛ بل إن عددهم لا يتجاوز ألفين وربما أقل، ولكن بوش في حاجة ماسة إلى القاعدة ليتمكن من البقاء في العراق، فالقاعدة هي السبب الوحيد الباقي له للاستمرار في الحرب، الذي سيتبخر في الهواء بعد أسابيع قليلة من انسحاب الأمريكيين، وقال: لقد أتت الفوضى مع الأمريكيين وسوف ترحل معهم، إن الانسحاب الفوري سيئ فقط بالنسبة للأمريكيين، أما للعراقيين فهو أمر جيد.[28]

وأوضح أبو باسم مبتسماً أنه بالإضافة لذلك.. فإن الانسحاب الأمريكي سيستمر على الأقل لمدة ستة شهور، وقال:« في ذلك الوقت، سنقوم بإعادة بناء جيشنا وشرطتنا، اللذين سيصبحان متعددي الطوائف والأجناس، وسيصبحان على وجه الخصوص ناجحين. ولقد هرب جزء كبير من الصفوة العسكرية والإدارية بسبب الأمريكيين، وسيعود عديد منهم عند انسحاب القوات الأمريكية. أما سبب عدم نجاح الولايات المتحدة الأمريكية في بناء جيش قوي وشرطة كفؤة فهو

واضح وضوح الشمس؛ لأن الجنود والشرطة الأكفاء يرفضون أن يتعاونوا مع الأمريكيين، فهم إما في الخارج أو في المقاومة».

فأعدت عليه سؤالي: «وماذا لو وصل الأمر إلى حد الحرب الأهلية؟»، فأمعن أبو باسم النظر إليَّ بحسم ، وقال: لا يمكن للفوضى في العراق أن تصبح أسوأ مما هي عليه الآن، ولكن إن حدث هذا، فالعراقيون قادرون على لجمه، نحن مجتمع عشائري، ولطالما قامت العشائر العراقية طوال تاريخها بإعادة توحيد أنفسها، وهكذا سيفعلون في المستقبل».

كان الوقت قد تجاوز نصف الليل بالفعل، فأخذت فراشًا وبحثت لي عن ركن هادئ في حديقة منزل أبي باسم، وبالفعل وجدت مكاناً شاعريًّا صغيرًا تحت إحدى شجيرات البرتقال في منطقة محاطة بالنخيل، ففي هذه الأوقات في العراق لا يحتاج المرء إلى وقت طويل في اختيار مكان نومه، ومن نظرتي الأخيرة على الحديقة رأيت أن الرجال لم يخلدوا للراحة بعد، حيث كانوا جالسين في أحد أركان الحديقة ويلعبون الدومينو مرة أخرى، وكان بعضهم يراقب بفضول، ولكن من منهم قائد المقاومة؟ فهذا شيء لم أعرفه حتى الآن، حتى عبدالله حفيد أبي باسم ذي الخمسة أعوام ، سمح له اليوم بالبقاء، وكان يتابع لعبة الدومينو بكل شغف، ووجد أنها أكثر تشويقاً من مناقشاتنا الطويلة.

زيد والمقاومة

كان الليل رائعاً، حتى أني نمت حتى الثامنة صباحًا، وقال أبو سعيد ضاحكاً إن كل المحاولات لإيقاظي قد باءت بفشل ذريع: لأن الكل حاول

هزي ودفعي دون جدوى، فقد كنت أواصل النوم مبتسماً، وعلى أي حال فقد حان الآن موعد الانطلاق، فمنذ الآن لابد أن نغير موقعنا كل ليلة، فلقد كانت زيارتي مثار حديث الناس.

ولكن كان لدي بعض الوقت لأستحم سريعاً وأغسل أسناني قبل الانطلاق، وسلكنا طرقاً مغايراً تماماً هذه المرة، وبعد رحلة قصيرة إلى الصوفية - حيث التقطنا بعض الصور- وجدنا أنفسنا مرة أخرى في بيت أبي سعيد ، وكان ذلك في حوالي الساعة الحادية عشرة ولما تساءلت متعجباً، كيف نعود إلى المكان نفسه الذي كنا مضطرين بالأمس إلى أن نتركه على وجه السرعة؟ فقال أبو سعيد ضاحكًا إذا كنت أنت لم تتوقع عودتنا فالآخرون أيضًا لن يتوقعوها ، ثم ذهب أبو سعيد مسرعاً إلى عائلته وإلى الصغير عليّ، ويغلب على الظن أنهم كانوا سبب عودته إلى البيت. ثم ذهبت مع زيد إلى غرفة الجلوس، التي عادة ما تكون مظلمة على مدار اليوم؛ وعلى خلاف العادة جلست عصابة الأولاد الأشقياء صامتين ، وكأن على رؤوسهم الطير، وهم يشاهدون قناة «الشرقية» العراقية الخاصة، التي تبث من دبي، وهي تذيع وصول لاعبي المنتخب الوطني إلى بغداد.

ولقد أقدم اللاعبون على خطوة جريئة ببقائهم في عاصمتهم لمدة ثلاثين ساعة كاملةً، وإن قضوا تلك المدة داخل نطاق المكان المسمى بـ«المنطقة الخضراء»، حيث تتحصن قيادة القوات الأمريكية والحكومة العراقية خلف تحصينات منيعة. ولقد كانت هذه الزيارة بالنسبة لبعض اللاعبين – الذين يرتبطون جميعاً بعقود احتراف خارجية- أول زيارة

للعراق منذ سنوات طويلة ، وفي المنطقة الخضراء لم يسمح إلا لقلة مختارة من العراقيين أن يستقبلوا منتخب بلادهم.

أما الأطفال من عائلة أبي سعيد وأبي حامد، فلم يكن الأمر ذا أهمية بالنسبة لهم، مع أن منتخبهم الوطني موجود في بلادهم ويبعد عنهم 110 كيلومترات فقط، لقد كان هذا ضرباً من الجنون، وهنا بدأ أحد الأولاد معركة بالوسائد وسرعان ما اندلع الجحيم في الغرفة.. بدأت المعركة وبدأ الكل يضرب بعضهم البعض بوسائد الجلوس، وفي لحظة واحدة عاد الهدوء سريعاً فلقد قام أكرم ابن أخو أبي سعيد ذو الثمانية عشر ربيعاً بأخذ هاتف عمه النقال خلسة وبدأ يلعب عليه ألعاباً مسلية، وتحلق الأطفال حول أكرم، الذي كان يعاود النظر بمزيد من الحذر نحو الباب ليرى إن كان عمه سيأتي ليبحث عن هاتفه النقال، وبعد حوالي نصف ساعة فقد الهاتف بريقه وجاذبيته فبدأ الأطفال يقصون على بعضهم البعض حكايات، وكانوا يتحدثون بصوت منخفض لأن زيداً كان نائماً جواري في تلك الأثناء؛ لأن الوقت كان مناسباً لأخذ قيلولة، فلقد كانت درجة الحرارة أربع وأربعون درجة مئوية في الخارج، ولكن الجو في غرفة الضيوف كان لطيفاً وعلى غير العادة كان جهاز التكييف يعمل.

ونظرت من مكاني إلى الممر، فرأيت مرآة معلقة على الجدار يبلغ ارتفاعها حوالي أربعين سنتيمتراً ومؤطرة بإطار ذهبي، ولم يكن يمر عليها أحد من الشباب دون أن يلقي نظرة على مظهره ويسرح شعره تارة للأمام وتارة للخلف، حتى أبي حامد، الذي لم يبق على رأسه

إلا شعيرات قليلة كان يربت على كل واحدة منها بحنان كلما مر على المرآة، فمن يعرف حتى متى سيتبقى على رأسه شيء ليربت عليه.

ويقع على يسار المرآة باب يؤدي إلى غرف عائلة أبي سعيد الخاصة؛ حيث تبقى النساء والأطفال طوال اليوم، وقد لاحظت أن الأطفال يختلسون النظر إليَّ من ثقب الباب ويتهامسون عليَّ فمتى يحصل المرء على فرصة لكي يرى طبيباً ألمانيًّا أمام ناظريه في الرمادي، ووددت لو أعرف عما يتحدثون ويتهامسون. ولما لاحظوا أني أراقبهم بدوري أرجعوا رؤوسهم إلى الخلف وعاودوا الاختفاء في غرفهم الخاصة، وبعد لحظات قليلة عاودوا النظر إليَّ من الزاوية.

وفي تلك الأثناء جلس إليّ أبو سعيد وقدم لي الشاي، فقبلته شاكراً. وبعدها بدقائق قليلة، لما جاءت زوجته، سألت أبا سعيد إن كان يسمح لي بأن ألتقط لهما صورة معاً، فأجاب أبو سعيد بود ولكن بحسم؛ بأن هذا غير ممكن بأي حال من الأحوال، ولكن زوجته كان لها رأي آخر فلقد ابتسمت لي ابتسامة قصيرة، وألحت على زوجها بلطف وحنان، وبعد دقيقتين اتضح الموقف، فلقد وافق أبو سعيد على أن ألتقط الصورة، وفي النهاية أمكنني حتى أن أصور زوجته مع ابنتها شهلة، ثم استعرضنا الصور على آلة التصوير الرقمية، ولقد كانت زوجته فرحة جدًّا، وقد غادرت الغرفة بسعادة قائلة لي بصوت منخفض: «شكراً».

وكان زيد قد استيقظ في أثناء التصوير، وأخذ يسخر من موافقة أبو سعيدعلى رأي زوجته بالتقاط صورة لهما، فقلت له مبتسماً: «هذا قدرنا» وأومأ زيد موافقاً، وسألته عن أعظم أحلامه، فقال لي: «السلام»، ولكنه تمنى أيضاً أن تكون له عائلة كبيرة لديها على الأقل اثنا عشر

طفلاً، وعلل ذلك قائلا:» لكي تعوض البيت عما فقده.»، وقال إن طفلين أو ثلاثة فقط في الأسرة هو أمر ممل، وقال إنه إن حباه الله هو وزوجته بأطفال فيسمي أول صبيين كريم وهارون، كأسماء إخوته، وعقب ذلك صمت طويل وظهر أثر الذكرى على وجه زيد كسحابة ثقيلة مظلمة.

وبعد برهة قصيرة، واصل كلامه قائلاً إن زوجته يجب أن تكون مهذبة، وبالطبع على قدر من الجمال، وأما ما يخص مسألة ارتدائها للحجاب: فهو قرار يخصها، وإن كان يرى هذا واجبًا فهو جزء من دينها، فالعقيدة شيء مهم بالنسبة له، ففي الصور التي رآها لمريم العذراء كانت ترتدي حجاباً، ولكنه لن يخوض مع زوجته نزاعاً حول ارتداء الحجاب، وبالتأكيد لن يجبرها على لبس العباءة السوداء.

ولم يكن يعارض أن يتخيل نفسه متزوجاً بشيعية أو كردية.. وردًّا على سؤالي عن نقطة مشابهة، وهل يمكنك أن تتزوج بأجنبية؟» أجاب:«سأفكر في الأمر، بطبيعة الحال إن كنت أحبها وهي تحبني، فما المانع؟» ، وأضاف ببعض الغضب، وقد أحس بإهانة:«آه منكم معشر الغربيين! فأحياناً تكون أسئلتكم سخيفة، فنحن لدينا أحلام كأحلامكم، فأنا أحلم بأسرة كبيرة وسيارة يابانية فخمة- فسياراتكم الألمانية غالية عليّ- وإن عملت بجد وحالفني التوفيق فلربما أمتلك بيتا صغيراً، فأنا أؤمن بأن الكد في العمل يوصل الإنسان إلى كل ما يريده».

كان زيد يعرف حق المعرفة أن تحقيق أحلامه لن يتم إلا في المستقبل البعيد؛ فالعراق في حالة حرب وأخواه قتلا، وهو نفسه أحد أفراد المقاومة، ويعرف أن كل يوم قد يكون يومه الأخير، حتى وإن كان

هناك وقف لإطلاق النار في الرمادي، فليس من المستبعد أن يستدعى في الصباح الباكر؛ ليشارك في هجوم في محيط مدينة الرمادي.

وسألته بماذا يذكره اسم الولايات المتحدة؟ فقال لي بأنه كان من المعجبين بالولايات المتحدة في طفولته بسبب تقدمها وقوتها رغم فرضها العقوبات القاسية على العراق، ولكن الحرب غيرت هذه الصورة تغييرًا تامًّا وقد حدث مثل هذا في جميع أنحاء العالم الإسلامي وقال:«نحن لم نفعل لهم شيئاً وعلى الرغم من ذلك فقد دمروا حياتنا وبلادنا»، فهو لا يتخيل أن بوسعه أن يسامح الأمريكيين على مقتل أخويه، فهو لن ينسى أبداً تلك اللحظات التي نزف فيها أخوه الصغير حتى الموت أمام عينيه، لن ينساه أبداً ما عاش.

ومن ثم طرحت السؤال الذي كان زيد يخشاه والذي كنت أنا شخصيًّا أخشاه: سألته متى كانت أول مرة اشترك فيها في هجوم ضد القوات الأمريكية؟ فأجاب بعد تردد طويل:« قبل أربعة أشهر، في أبريل/نيسان 2007». فبعد موت أخيه كريم، انضم إلى مجموعة مختلطة من البعثيين والوطنيين. وكل واحد من مجموعته متخصص في مجال معين: فواحد يخطط للهجوم، وآخر يستطلع المكان، وبعضهم متخصصون في تصنيع قنابل الشوارع وبعضهم في زرعها، وبعضهم متخصصون في استخدام القذائف المضادة للدبابات، أو مايسمى بالـ«آر بي جي»(قذيفة الدفع الصاروخي). وزيد هو المسؤول عن التفجير عن بعد، وقد عرف عنه أنه متخصص في هذا المجال. ويقوم زيد بتصنيع أجهزة التفجير عن بعد من هواتف نقالة قديمة وأجهزة التحكم عن بعد. وهذا ليس بالأمر

العسير. ولكن في نهاية الأمر.. فإن زيداً هو من يتخذ القرار على أرض الواقع إن كان سيفجر القنبلة أم لا.

وفي أثناء ذلك، كنت أنا وأبو سعيد وحدنا في غرفة الضيوف، فقد أخرج ابو سعيد الكل خارجاً، ووقف أبو حامد خارج الباب، ليتأكد من أن أحداً لن يدخل الغرفة، وسألت زيد: «ألَّا يرعبه أن يكون هو صاحب القرار في أن يموت شابًا أمريكيًا أو يبقى علي قيد الحياة ؟ فعضَّ زيد على شفتيه، وقال: «إن الجنود الأمريكيين لم يضعوا هذا الأمر في حسبانهم، عندما قتلوا أخويّ عن عمد». وأجاب أنه يعرف أن هناك في أمريكا من يعارض الحرب على العراق ولكنهم أعادوا انتخاب بوش، على الرغم من كل أكاذيبه، وعلى الرغم من مقتل مئة ألف عراقي، وكثير من الجنود الأمريكيين.

وقال إنه يعلم أن هناك عديدًا من الجنود الأمريكيين المحترمين في الرمادي،وأن عديدًا منهم يعارضون الحرب، ففي مرة اعتقل الجنود الأمريكيون فتىً عراقيًّا وأوسعوه ضرباً، فجاء ضابط أمريكي وأنقذه من بين أيديهم، واصطحبه إلى مكتبه الصغير ونظّف جروحه وعقمها وضمدها، وكم يود زيد أن يقابل هذا الضابط ولو لمرة واحدة عندما يحل السلام، وهو يتمنى ألا يصاب هذا الضابط بأي مكروه.

وأهم ما يشغل باله هو ألا يصاب أحد من المدنيين أو يلقى حتفه، فحياة المدنيين بالنسبة له مقدسة، فهو يقول إنه لو أتيحت له الفرصة لنسف مقر قيادة الجيش الأمريكي بالرمادي بالكامل وذره في الهواء، فلن يفعل ذلك إن كان هذا سيؤدي لمقتل مدنيٍّ واحد، فقتل المدنيين هو أكبر الكبائر، وهو يقول: «قتل إنسان بريئ أسوأ ألفٍ مرة من هدم

الكعبة في مكة» ، فهو لم ولن يجرح أو يقتل مدنيًّا أبدًا، وحتى المدنيين من دول أخرى أو أديان أخرى فالقرآن يحرم هذا تحريماً، وقد بدا أن هذه النقطة تهم زيد إلى أبعد مدى . وتلك كانت بؤرة حواري مع معظم العراقيين الذين تحدثت إليهم. وقد أوضح زيد- بحسم وجدية - أنه مقاوم وليس إرهابيًّا.

ويقول: «إن ما يفعله هو مجرد دفاع عن النفس، وهذا لابد أن يكون مشروعاً، فهو لن ينتظر حتى يقتل الأمريكيين أخواته وأبويه. فعند نقطة معينة تصبح المقاومة واجبةً لا مجرد حق مشروع.»، وقد اتضحت لديه تلك الصورة مؤخراً بعد مقتل أخوه الثاني. وأضاف زيد بكل هدوء: «لا يجب على المرء أن يقف مكتوف الأيدي وينتظر متى يقتل أخوته أو أخواته أمام ناظريه ، لا أحد في كل العالم يقبل ذلك.»

في أحد أيام أبريل 2007 انطلق زيد وأربعة من رفاقه ليلاً إلى موقع سبق استكشافه في شارع العشرين.. وقبل صلاة الفجر حفروا حفرة في جانب الشارع ،وزرعوا متفجرة، ثم ردموا الحفرة بعناية وغطوها بالرمل، وكانوا يطلقون على قذيفة المدفع هذه اسم : «النمساوية»، لأنها صنعت أصلاً في النمسا من أجل مدفع نمساوي، أما القذيفة المقلدة المصنوعة في العراق فتبلغ حوالي 60 سنتيمتراً طولاً ويبلغ قطرها 17,5 سنتيمترًا.

واختبأ زيد خلف جدار حجري على بعد مائة متر تقريباً، ومن موقعه أمكنه أن يطل على المكان الذي زرعت فيه المتفجرة.. ومن ثم انتظر مرور القافلة العسكرية، والتي تمر كل صباح بهذا الموضع من شارع العشرين.. اضطر زيد لأن ينتظر مدة ساعتين، ومرت هاتان الساعتان عليه وكأنهما دهر كامل، على حين بغتة وفي تمام الساعة السابعة

والنصف، لمح في الأفق أول سيارة همفي رملية اللون، وكان يعلم أنه في غضون دقيقة واحدة، سيتعين عليه أن يضغط على المفجر الذي تبلغ مساحته 4×6 سنتيمتر والذي صنعه بنفسه. ويقول زيد إنه يتذكر تلك اللحظات كما لو أنها عرض بالحركة البطيئة ، فقد اقتربت سيارات الهمفي من موقع القذيفة ، ولمدة ثانية واحدة شاهد زيد وجوه الجنود الأمريكيين الشباب، الذين يجلسون في سياراتهم الهمفي المدرعة مرتدين خوذاتهم، وهم يعلمون تمام العلم أنهم يسيرون في أخطر شارع في مدينة الرمادي. وكان واضحاً أن خوفهم لم يكن يقل عن خوفه من أن يموتوا في هذه الحرب المجنونة، ولكنهم ربما ينفّسون عن توترهم بالنكات، ويستمدون الشجاعة من بعضهم البعض. ولكن زيدًا فكر في الجنود الأمريكيين للحظة واحدة ، ثم خطرت له صورة أخويه كريم وهارون، وهما راقدان في بركة من دمائهما، وتذكر كيف التصقت به أخواته وأبواه، وكيف ضرب بقبضته الحائط الذي يفصله عن أخوه.

كانت سيارات الهمفي على بُعد عدة أمتار عن المكان الذي ينبغي أن يحدث به الانفجار، وشعر زيد برعشة تسري في أوصاله، واغرورقت عيناه بالدموع، عندما تذكر هارون وكريم، ولهذا لم يعد يرى سيارات الهمفي بوضوح ، وقال لنفسه:«يجب أن أفجر الآن» وأغمض عينيه ولكنه لم يستطع أن يفعلها، ثم قال لنفسه: «فجِّر وأرحني» ثم ولمرة أخيرة « فجِّر»، ومرت آلاف الصور أمام عينيه، وفي النهاية ضغط على المتفجر، فلم ير كيف طارت أول سيارتين من الرتل في الهواء وارتفعت سحابة عظيمة من الدخان غطت شارع العشرين، وكيف سقطت على الأرض أجزاء من السيارتين اللتين قذف بهما في الهواء، كما لو كان عرضاً بالحركة البطيئة. وكان كل ماسمعه هو دوي الانفجار القوي والمكتوم،

ثم لاذ بالفرار وسلك الطريق المعد للهرب الذي كان قد اختاره بعناية من قبل؛ لأنه بعيد عن نقاط التفتيش سواء الأمريكية منها والعراقية. وجرى زيد كما لم يجر من قبل ، حتى خرج من قلب مدينة الرمادي، ثم حاول أن يتنفس بطريقة أعمق وأن يمشي بطريقة طبيعية.

ولما وصل إلى البيت، ذهب واجماً إلى غرفة النوم، التي كان يقتسمها مع أخويه، والتي يسكنها وحده الآن، وكان والداه في محل البقالة الصغير المجاور. واستلقى زيد على فراشه، ودفن وجهه في الوسادة، وحاول أن يهدئ من روعه وأن يرتب أفكاره.. ولكنه لم يفلح فكل مرة كانت تعاوده صور الجنود الأمريكيين الشباب، وصورة الانفجار الذي سمعه وأخيراً صورة هارون وكريم.

وفي العاشرة صباحًا أتت أخته لتوقظه ، فأشار إليها بأنه لا يريد أن يزعجه أحد، وبقي مستلقياً حتى العصر. ولما سألته إمه إن كان يشكو من شيء، هز رأسه نافياً وعاود دفن رأسه في الوسادة، ولم يستيقظ إلا في المساء لكي يلتقي بالأعضاء الآخرين في مجموعته، حيث كان الكل موجوداً حسب الاتفاق، وقد بقي رشيد عقب الانفجار في نقطة مراقبة حصينة، وقال: «إن سياراتي همفي دمرتا بالكامل، وأن ثلاثة جنود أمريكيين على الأقل لقوا حتفهم وآخرين كثر قد أصيبوا».

وقال: «إنه قد جاءت إلى موقع الهجوم سيارات همفي أخرى، وعدة سيارات إسعاف عقب الانفجار، وقد اقتحم الجنود الأمريكيون البيوت المحيطة وأَمَّنوا المحيط عسكريًّا. وكعادتهم فقد اعتقلوا بعض الفتيان الأبرياء الذين ليس لهم علاقة بالهجوم من قريب أو بعيد. ومن ثم وصلت مركبات خاصة قامت بنقل سيارتي الهمفي المدمرتين ونظفت

مكان الانفجار قدر الإمكان لكي تمحو آثاره. وأنصت زيد للتقرير دون أن ينبس ببنت شفة. ولما أراد زملاؤه أن يهنئوه بأول نصر عسكري، استدار زيد ومضى ، فهو لم يكن يريد أن يتحدث مع أي شخص.

ثم ذهب زيد إلى ضفة الفرات، إلى تلك البقعة المرتفعة بعض الشيء، والتي كان كريم يقفز منها في الماء. ومكث هناك فترة طويلة، وكان ذهنه فارغاً بشكل لا يصدق؛ فهو الآن جزء من تلك الحرب التي يكرهها، ويعرف أنه لا يوجد طريق للعودة. ولكنه عرف هذا متأخراً بعد موت كريم أمام ناظريه.

جلسنا أنا وأبو سعيد وزيد صامتين في مواجهة بعضنا البعض، وكان بودِّي أن أطرح ألف سؤال، ولكني رأيت الحزن والمرارة في عيني زيد.. حزناً ومرارة تفوق الوصف .. كنت أعرف أنه قد بقي سؤال لأطرحه على زيد، من أجلي ومن أجل كل من سيقرأ قصته من الناس. سألت زيد: ألا يفكر.. ولو لبرهة قصيرة، في آباء الجنود الأمريكيين، الذين يقتلهم في الحرب، والذين قد يكونون هم وأبناؤهم معارضين للحرب؟

فأطال زيد النظر إليّ وسألني بدوره: «وهل فكر هؤلاء ولو لبرهة قصيرة في عائلتي؟ هل تفكر العائلات الأمريكية أو أي فرد في الغرب في الأعداد التي لا تعد ولا تحصى من العائلات العراقية التي فقدت أطفالها وإخوتها وآباءها؟ لماذا ينبغي عليّ أن أفكر في عائلات أولئك الجنود الذين قتلوا إخوتي؟ هذا شيء ليس بوسعي أن أفعله ولا أود أصلاً أن أفعله. لقد داسوا أرضنا بالدبابات وحطموا حياة أسرتي، لم يكن لديهم شيء ليبحثوا عنه هنا أصلاً. ونهض زيد وغادر

الغرفة، وتبادلنا أنا وأبو سعيد النظرات صامتين . وبعده أتى إليّ علي الصغير بكرته المثقوبة . وأراد أن يلعب معي، ولكني لم أكن في مزاج يسمح لي باللعب.

عائشة

وفجأة كانت عائشة زوجة أبي سعيد واقفة بجوارنا ورأت كيف غادر زيد الغرفة منقبض الوجه ومتوتراً، وبطبيعة الحال فقد سمعت جزءاً من الحوار، وكلمتني بصوتها الحنون، ولكن أبو سعيد لم يترجم، بل حاول أن يُفهمها أن الحوار مع زيد هو شأن خاص بالرجال. وبحنان ، ولكن بحسم، أوضحت عائشة لأبي سعيد أنه مخطئ، ورجته أن يترجم وقالت: إن هذه الحرب تخص الرجال كما تخص النساء، فهن في نهاية الأمر أمهات أولئك المقاومين. وهكذا رضخ أبو سعيد وقام بالترجمة.

بدأت عائشة حديثها بهدوء، قائلة:«أنا وأميرة أم زيد صديقتان حميمتان، وكما تعرف فأنا أيضاً لدي خمسة أطفال، وكثيراً ما نتحدث عن أسرنا، ولطالما بكت أم زيد منذ أن فقدت هارون وكريم، وهي خائفة على زيد لأنه الآن ابنها الوحيد، فهي تخشى أن يقتل في أحد الأيام كما قتل أخواه من قبل.

ولكن أكثر ما يحزنها، هو أن زيداً قد انهار من الداخل؛ فلقد بقي زيد لمدة أسابيع بعد موت كريم لا يذوق طعاماً إلا القليل، ولا يكلم أحداً إلا فيما ندر. لقد تحول زيد إلى إنسان مختلف تماماً..إنسان حزين ومنطوٍ. فيما مضى كان زيد فتى مرحاً، أما الآن فهو يكاد لا يضحك

إلا فيما ندر ، ودائماً ما تراوده الكوابيس، ويستيقظ من نومه صارخًا وغارقًا في عرقه.

وواصلت عائشة:« قد يبدو لك زيد رجلاً راشداً، ولكنه في الحقيقة مجرد طفل، لم يتقبل فقدان أخويه ولا القتال في المقاومة ولا المعاناة التي يعيشها الناس في الرمادي. فزيد لم يعرف طوال حياته سوى الحرب والمعاناة: من الحرب العراقية الإيرانية ، ثم حرب الخليج عام 1991 [29]، ثم العقوبات الاقتصادية، وفي النهاية الحرب المستمرة منذ 2003. ولطالما رأى الفتيان والأطفال يموتون أمام ناظريه، إما من الحرب أو من الجوع، ولم يعش في حياته إلا ساعات قليلة من الراحة وخلو البال».

حتى ابني الصغير علي شهد حرباً في سنوات حياته الأربع، فماذا سيصبح عندما يكبر؟ ماذا سيحدث إن لقي أبوه أو أحد إخوته حتفه في وقت ما على يد الأمريكيين؟ كلنا نعرف أن الحرب في الرمادي ستستمر، فهل سينجو من هذا؟ أم أنه سيصبح عضواً في المقاومة بدوره؟ بماذا أنصحه إن أراد أن يشارك في القتال في أحد الأيام؟ هل أقول له ألا يفعل؟! ماذا ينبغي علينا نحن معشر الأمهات أن نقول لأبنائنا؟

ألا تستطيع أن تقول لأصدقائك الأمريكيين، أن يتوقفوا نهائيًّا عن وضع أبنائنا أمام هذا الاختيار المخيف : إما أن يتفرجوا على مقتل عائلاتهم مكتوفي الأيدي، أو أن يفجروا أنفسهم. ألا تستطيع أن تقول لهم أن يوقفوا هذه الحرب التي تحصد أرواح جنودهم الشباب، وأرواح أبنائنا دون أي هـدف؟! لاتكـاد توجد الآن أم فـي العـراق لا تبكي أبناءها أو أطفالها، ماذا اقترفنا نحن بحق الأمريكيين؟

واحتقن وجه عائشة، فأحاطها أبو سعيد بذراعيه، وأضافت بصوت منخفض: « أنا لا أقصدك بهذا الكلام، ولكن ربما يمكنك أن تساعدنا، ولو بشيء صغير، فمن المؤكد أن هناك أمهات في بلدك وفي أمريكا يفهمننا نحن الأمهات العراقيات.» ، قالت ذلك وهي تبكي بصوت محبوس.

واحتجت إلى بضع دقائق لكي أستوعب ما قالته لي عائشة، وكذلك أبو سعيد، وخرجنا إلى الحديقة صامتين؛ حيث كان الأولاد قد بدأوا يتناولون طعام العشاء، فمن يعرف؟ متى سيأتي عليهم وقت طيب كهذا. وبعد الطعام أدى الرجال صلاة العشاء ووقفت بجوارهم هذه المرة وصليت معهم ، ولكني صليت صلاتي الخاصة. إن كان الإله موجودًا، وأنا على يقين أنه موجود، فهو لن يفرق بين مسلم ومسيحي ويهودي. دعوت الله ويهوه والرب أن يساعد الناس في العراق، وأن يحل عليهم السلام، وشكرته على السلام الذي ننعم به في الغرب، ولكنني لا أعرف ما الذي جعلنا نستحقه.

استلقيت على فراشي لحوالي ساعة، وأنا أعرف أنني لن يمكنني أن أنام الليلة جيداً. لأن كثيرًا من الأفكار سيروادني.. أفكار عن هارون وكريم وأخرى عن زيد، وعن ذلك اليوم في أبريل 2007 ، حيث اشترك زيد لأول مرة في هجوم عسكري. وعن عديد من الجنود الأمريكيين الذين ماتوا، وأولئك الذين سيموتون في مدينة الرمادي، وعن العدد المتزايد من المدنيين العراقيين، الذين لقوا حتفهم على يد الجنود الأمريكيين، وأولئك الذين قتلتهم القاعدة، أو فرق الموت التي تتبع السياسيين المتعطشين للسلطة والنفوذ، وعن أولئك الذين سيفقدون حياتهم، وعن المصابين بإصابات خطيرة والمعوقين من الجانبين.

وعلى الرغم من تعبي الشديد، أحسست بتوتر وقلق شديدين. حتى إنني كنت أرتعش خوفاً كلما صدر صوت مرتفع عند باب الفناء. وكانت آخر مرة شعرت فيها بهذا الإحساس لدى زيارتي لأفغانستان في الثمانينات، عندما كانت الطائرات المروحية السوڤييتية تحلق فوق رؤوسنا، وكنا نضطر أن نختبئ في حفر الحقول أو تحت الأشجار. وأيضًا عندما كنت في الجزائر عام 1960 أثناء حرب التحرير الجزائرية، عندما قضيت بضعة أيام لدى عائلة عربية. وكنا حينذاك ننصت خائفين، عند سماعنا صوت سيارة تقف في الشوارع، أو عند سماعنا أصوات عالية بشكل مفاجئ.

والليلة خيم جو موحش ومخيف، وكانت الطائرات المروحية تعاود التحليق فوق البيت مراراً وتكراراً، وكأنها تبحث عن شيء معين في الجوار. ولقد دام هذا لفترة طويلة، حتى غرقت في النوم في النهاية، وحلمت بأشياء مرعبة، واستيقظت مرارًا وتكرارًا، وفي وقت ما عندما كان الجو نصف مظلم، وقف أبو سعيد بجواري ، وقال:

« يجب أن نمضي على الفور، فلقد اتفقت بعض الجماعات أن تزورنا الليلة، ولقد ثارت حولك شائعات كثيرة، لأن عديدًا من الناس قد رأوك، ولقد حكى أطفالنا لأطفال الجيران متباهين: أنه يسكن لديهم أجنبي يتحدث الإنجليزية، والناس في الرمادي لم يروا أجنبيًّا منذ سنوات دون مرافقة أمريكية.»

ومما زاد الطين بلة أن هناك بعضا من إرهابيي القاعدة الأجانب موجودون حتى الآن، ومن ثم لابد وأن نرحل على وجه السرعة. فلا بديل لك عن تغيير المكان، وتمتمت وأنا شبه نائم:« أنه قد بقي لي يومان

لأقضيهما في الرمادي، فما رأيته حتى الآن لا يعد إلا صورة خاطفة، فمازلت بحاجة للكثير من الوقت لكي أفهم كل شيء». ولكن أبا سعيد كان صارماً، لأن الوضع أصبح حرجاً.

لقد شدد الأمريكيون من إجراءاتهم، لأنهم مقبلون على معارك ضارية، ففي المسافة بين الفلوجة والرمادي أسقطت طائرة مروحية من طراز شينوك. وقرب مدينة الرطبة، اصطدمت دورية أمريكية بلغم لدى عبورها لجسر على الطريق السريع، ولقد تدمرت المركبة بالكامل وتضرر الجسر بشدة، ووضعت جميع وحدات الجيش الأمريكي في الرمادي في حالة تأهب. وبينما أنا مازلت أقاوم الإرهاق، أجرى أبو سعيد مكالمة مقتضبة، وسمعته يتحدث بلهجة غاضبة ويتلفظ بكلمات منهــا « ألماني» و « القاعدة » و « مداهمة » . واعتذر لي أبو سعيد بأنه لن يستطيع تحمل مسؤولية حمايتي بعد الآن؛ فحزمت أمتعتي وأنا مثقل بالنعاس، فلا أريد أن يعتقل مضيفي في عملية مداهمة أمريكية في الأنبار، ولا أن أضعهم في وضع يهدد حياتهم. فلقد كان أبو سعيد محقًّا في هذا تماماً، وعلى الرغم من ذلك.. فكنت أود أن أبقى وقتاً أطول، فما زال لدي آلاف الأسئلة التي لم أجد لها إجابة بعد ، ولكن أبو سعيد قال، وهو ينفخ من الغيظ:« لابد أن نرحل في التو واللحظة. فبعد ساعة لن نستطيع الخروج من هنا..فهيا عجِّل»، فذهبت مستسلماً إلى السيارة، ولم أتناول قهوة الصباح .

كان موسى قد أدار محرك السيارة بالفعل، ورأيت أبا سعيد جالساً في السيارة، وبقيت عائلته في البيت هذه المرة ، فلم يكن لدى أبو سعيد أي وقت لكي ينظم سفر زوجته أو أي من أبنائه معنا، وبمجرد أن

دخلت السيارة وجدت زيداً واقفاً أمامي، وقال بصوت منخفض:« ربما آتى لزيارتك في ألمانيا عندما تنتهي الحرب. فهل تسمح لي بذلك؟» فقلت له وأنا أشعر بوخز في ضميري لأني سأترك كل هؤلاء الناس في مأساتهم :« على الرحب والسعة . اتَّصل بى إن واجهتك أنت وعائلتك أي صعاب، وأعد أنني سأحاول أن أساعدك »، فرحل زيد صامتاً.

لن أنسى هذا الشاب أبداً ما حييت، ولا دموع الناس الذين التقيت بهم في الرمادي. يالها من حرب ملعونة وغير شريفة وباطلة ولا تنتج إلَّا خسرانا. لقد استأت جدًّا عندما فكرت أنه مازال هناك أناس في الغرب يتحدثون عن « نصر في العراق» ويحلمون به، وخجلت من اللامبالاة التي نتابعُ بها مأساة العراق ؛ فنادراً ما خجلت من نفسي، كما خجلت من تلك الأيام في الرمادي.

أغلقت باب السيارة خلفي، وألقيت نظرة أخرى على المرج الصغير حيث تنام عائلة أبو سعيد الكبيرة بكل سلام، وهم متدثرون بأغطيتهم، وانطلق موسى بأقصى سرعة يسمح بها الطريق الوعر.

العودة إلى سوريا

كان موسى يتخذ دائما في سفره طرقاً ملتوية حتى يتجنب نقاط التفتيش قدر الإمكان. بعد نصف ساعة تقريباً، كنا قد غادرنا «الجزيرة» وانطلقنا على الطريق السريع المؤدي إلى دمشق، ولاحظت أن استعجالي في أمر الرحيل كان سببًا في لبسي لحذاء أبى سعيد، بدلًا من حذائي الذي نسيته في منزله، كما نسيت أشياء أخرى.

وبينما كنت ألوم نفسي على هذا التقصير ، توقف موسى فجأة بعد خروجنا مباشرة من مدينة الرمادي، فقد لحقت بنا ثلاث سيارات نقل عسكرية ملونة باللونين الأزرق والأبيض تابعة للشرطة، يعلو كلَّ سيارة منها شرطي أو شرطيان عراقيان مقنعان، يتوارى كلٌّ منهما خلف مدفع رشاش، ومرت السيارات الثلاث ببطء، حتى استقروا في النهاية أمامنا؛ ورغم القتامة التي كست زجاج السيارة، حاول رجال الشرطة الملثمون أن يعرفوا مَنْ بداخل السيارة، وهنا صوبوا مدافعهم الرشاشة نحونا.

وأدركت هنا أن سوء حظ قد حالفنا، ولكن على الرغم من ذلك أخرجت الكاميرا، وهنا أنتابت أبو سعيد المسكين موجة غضب ، فوضعتُ بكل حذر الكاميرا بجانب المقعد، وبدا جلياً أن التوتر قد خيَّم على كل مَنْ كان بالسيارة، لدرجة أن السائق موسى الذي لم يتفوه من قبل ولو بكلمة واحدة، طلب مني راجياً عدم التقاط أى صورة فوتوغرافية، فأومأت إليه موافقا وربتُّ على كتفيه، فما أردت أن يفقد هو الآخر أعصابه.

في هذه الأثناء، أوقف موسى السيارة مراعيا المسافة المطلوبة بيننا وبين سيارات النقل العسكرية العراقية، وهي مسافة 150 مترًا تقريبًا، إلا أن سيارات الشرطة التي تثير الذعر بما تحمل من مدافع رشاشة ظلت واقفة أمامنا بما يقرب من خمسين مترًا، ثم وجدنا أنفسنا بعد ذلك أمام تقاطع كبير غير مدركين إلا شيئاً واحداً؛ وهو أن هؤلاء الرجال المسلحين بالعتاد الثقيل لهم الحق – مثل الجنود الأمريكان تماماً – في إطلاق النار مباشرة، بمجرد إحساسهم بأي نوع من أنواع التهديد.

وعلى التقاطع الواقع أمامنا ظهرت يميناً ويساراً أربع سيارات نقل عسكرية ثقيلة أخرى، كان عليها أشخاص متجهمون قد استتروا خلف مدافعهم الرشاشة، وكانت هناك على الطريق المعاكس سيارتان أخريان مسلحتان تسليحا ثقيلا، فأصبحت هناك تسع سيارات نقل عسكرية ثقيلة تسد الشارع.

وفجأة ارتدت إلى الخلف سيارة الشرطة، التي كانت تقف أمامنا على بُعد خمسين مترا، ارتدت إلينا، وهي لا زالت تصوب مدافعها الرشاش نحونا، حينئذ تجمد الدم في عروقي، ثم توقفت السيارة أمامنا على بُعد أمتار قليلة، وهنا صرخ أحد أفراد شرطة السيارة الملثمين إلينا وهو يلوح بيديه الغليظتين في اتجاهنا.

وبوجه شاحب يشوبه الانفعال، قال أبو سعيد الجالس أمامي للسائق موسى: «ارجع إلى الخلف! ارجع إلى مسافة الأمان!»، وبالفعل رجعنا بسرعة قدر الإمكان إلى الخلف مسافة مائتي متر، فهنا لا يساوم المرء على متر واحد، فالأمان هو الأمان، وتمنيت لو أن هؤلاء الأشخاص المقنعون أمامنا يصوبون مدافعهم الرشاشة في اتجاه آخر غير اتجاهنا، حتى تنقضي هذه اللحظات، وفجأة ظهرت على الطريق المعاكس قافلة عسكرية، تقوم السيارات العسكرية التسعة المسلحة تسليحاً ثقيلاً بتأمينها، وهنا تنفسنا جميعاً الصعداء.

وأمر أبو سعيد، الذي كان في ثورة غضبه، موسى بأن يظل واقفا حتى تمر السيارات المسلحة. خاصة بعدما تمّ أمس تفجير دورية استطلاع على الجسر، وبالتحديد فوق هذا الطريق السريع. وباللهجة نفسها همس إليّ أبو سعيد غاضباً بأنه يتوجب عليّ إخفاء هذه الكاميرا

الملعونة، فكل من بالسيارة بدا شاحب الوجه، وليس هذا مرجعه إلى قصر ليلتنا أمس فحسب، وإنما إلى هذا الموقف المتأزم.

استطعنا أن نكمل السير بعد نصف ساعة من مرور قافلة الإمدادت العسكرية، فانطلق موسى بأقصى سرعة ممكنة، وقام بإغلاق التكييف، لأن التكييف – كما يقول موسى - يمكن أن يكون سببًا في سخونة المحرك؛ نتيجة للسرعة العالية ونوعية البنزين الرديئة، حيث أراد موسى أن يخرج من بلده بأقصى سرعة ممكنة.

ولم يبق أمامنا إلا أربعمائة وخمسون كيلو مترا، ومازال توتر لا يُطاق يخيم على من بالسيارة الشيفروليه، وبينما كنت أتصبب عرقاً أخذت أنظر الى خارج السيارة، حيث الصحراء العراقية بما فيها من حطام لسيارات محترقة، فكم من العراقيين والأمريكيين ماتوا على هذا الطريق؟

واصل موسى استماعه لخطب ولآيات من القرآن الكريم تلهب الوجدان، بينما نام أبو سعيد، أما أنا فقد انتهيت من شرب أول قارورة ماء أثناء تدويني لبعض الملاحظات، وبعد خمس ساعات ونصف، أي في تمام الساعة الثانية عشرة، اقتربنا من نقطة الحدود العراقية، وكانت في وداعنا لافتة بين حطام السيارات مكتوب عليها باللغة العربية: «شكرًا لزيارتكم»، وجال بخاطري أنني لن أرجع إلى هذا المكان في القريب العاجل ؛خاصة في ظل الظروف الراهنة.

وبعد نقاط التفتيش المعتادة، عبرنا السياج البالغ طوله خمسة كيلو مترات في المنطقة الحدودية الواقعة بين البلدين، ثم مررنا بمخيمات اللاجئين الفلسطينيين، حيث تنبعث منها رائحة مشكلات العالم

المتراكمة والبائسة، كيف يرى أطفال هذه المخيمات – عندما يكبرون – أولئك الذين أخرجوهم من ديارهم إلى هذا المكان الموحش، وكيف يكون انطباعهم عن أولئك ، الذين رفضوا أن يؤؤهم في بلادهم، بل كيف يفكرون في أولئك الذين تسببوا في هذه المعاناة؟

وبعد بضع دقائق ظهرت لافتة أخرى مكتوب عليها: «أهلًا وسهلًا بكم في سوريا»، وهنا سقطت عن كاهلي الهموم الثقال.. أخيراً أصبحت خارج العراق، تاركاً ورائي كل شيء ، فلم يعد يتوجسني خوف من السيارات المصفحة، ولا من الدبابات الأمريكية، ولا من الطائرات الاستطلاعية، ولا من طائرات إف 16، ولا من رجال الشرطة العراقيين الملثمين، كما زال الخوف من دوي التفجيرات التي تقوم بها القوات المسلحة الأمريكية المسيحية أو الانتحاريون المسلمون، ولم تعد هناك هدنة في منطقة لا تتعدى أربعة كيلو مترات مربعة، يتم فيها رغم هذه الهدنة تفجير السيارات وإطلاق النار على طائرات الاستطلاع وإسقاطها على الأرض، يا له حقًّا من شعور بالاسترخاء!

ورغم أنني لم أعرف للخوف طريقاً أثناء أسفاري السابقة، إلا أن الخوف قد تملكني وأنا هنا بالعراق.. كنت خائفا خوفًا لم أره في حياتي من قبل، فكم كانت طويلة وثقيلة تلك الأيام الخمسة التي قضيتها في هذا البلد، الذي يعاني من ويلات الحرب، وما كنت أحلم أو أتخيل أبدا أن يتملكني هذا القدر من الراحة والاطمئنان عند دخولي إلى الأراضي السورية.

كان التفتيش على الحدود السورية عند الخروج من العراق أصعب مما كان عليه عند دخولنا إلى العراق، فقد توجب علينا أن نذهب إلى

قائد حرس الحدود، وقد كان ضابطا أنيقا يبلغ من العمر حوالي أربعين عاما، وظن الضابط أن أبا سعيد يمزح معه عندما أخبره بأنني كنت في مدينة الرمادي، وبين له أنني طبيب، كنت أحاول التزود بصورة حية من واقع الأحداث عن أوضاع الناس هناك، فقال الضابط مبتسماً:«لا يمكن لألماني أن يسافر إلى هناك أو لأي أجنبي غيره دون مرافقة عسكرية تحميه».

وأخبره أبو سعيد عن وقف إطلاق النار، ولكن الضابط أطلق العنان لضحكاته الرنانة ، وسأل مستنكراً: « وقف إطلاق النار في محافظة الأنبار؟! كم عدد القتلى كل ليلة؟ عشرة بدلا من عشرين؟! هل تعلم كم كان عدد القتلى في الطريق السريع المؤدي إلى الرمادي أسبوعيًّا؟ في شهر يوليو وقعت في هذا الطريق أكثر عمليات الهجوم بالقنابل، وهو أمر لم يشهده هذا الطريق منذ بداية الحرب».

وظل أبو سعيد يبرهن على صدق كلامه بشتى الطرق، وأعتقد أن أبا سعيد يخشى أن تعيدني القوات الحدود السورية إلى العراق مرة أخرى، ولكن الضابط الذي يشبه بشعره الأسود الممثل «بيتر ألكسندر» مازال لا يصدق كلام أبي سعيد، وعن نفسي فلم يساورني في الحقيقة أي قلق أو خوف، حيث أعاد إلينا جوازات السفر، ثم رفع سماعة التليفون ، بعد أن سمح لنا بالانصراف.

ذهبنا منشرحي الصدر إلى سيارتنا، وهناك وجدنا موظفا آخر في انتظارنا، وهو فيما يبدو مَنّ اتصل به قائد حرس الحدود، وللأسف كان علينا أن نقوم بزيارة إلى رئيس مصلحة الجمارك، بدا على أبي سعيد أنه يفكر فيما ينتظره هناك، ورغم أننا أعطينا الموظف ما هو معتاد

من بقشيش، إلا أن ذلك لم يمنعه من الذهاب بنا إلى إدارة الجمارك، وبدت الهموم واضحة على جبين أبو سعيد، فقال لي – وقد أخذنا الموظف إلى رئيس المخابرات –:« عليك أن تستمر في التظاهر بأنك طبيب، وإلا ازدادت الأمور سوءًا».

وكان أبو سعيد محقًّا، فقد استقبلنا رئيس المخابرات بالفانلة في مكتب صغير.كان يبلغ من العمر حوالي خمسة وثلاثين عاما، ويبدو بشعره البُني الغامق كما لو أنه أوروبي الأصل، شرح أبو سعيد لرئيس المخابرات أنني طبيب، ثم قدَّم له دعوة وزارة الداخلية العراقية وجواز السفر.. كان أبو سعيد يكلم الضابط، والأخير ينصت ولا يفعل شيئًا سوى الضحك، ولكنه ، هو الآخر، لم يصدق أبا سعيد، فيما يقول وسأل مندهشاً: هل يُعقل أن ألمانياً كان داخل محافظة الأنبار في شهر أغسطس/آب؟ إنها لقصة نادرة، ما سمعت بها من قبل.»، وبما أن الضابط ليس بمقدوره إرجاعي مرة أخرى إلى العراق، فقد أعاد إلينا جوازات السفر.

وقال الضابط مبتسما إن لديه رجاءً صغيرا، وهو أن أحد موظفيه يعاني من آلام حادة في الحلق، ويريد مني أن أكشف عليه طالما أنني متواجد معهم الآن، وصحت قائلاً: يا له من سوء حظ، إلا أني تدبرت الأمر، وعزمت عزماً أكيداً على تحويله مباشرة إلى المستشفى، إذا كانت حالته حرجة.

وولجنا حجرة صغيرة جوها ساخن للغاية، رغم ما بها من تيار هواء عاصف، ثم دخل علينا بعد فترة من الوقت رجل سوري بدين، قصير شعر الرأس، يبلغ من العمر قرابة خمسة وعشرين عامًا، فأشار الرجل إلى حلقه، فأمرته بفتح فمه، ففتحه فأخذت مسطرة صغيرة، وضغطت

بها على لسانه إلى أسفل، ورأيت أن الحلق ملتهب وعليه طبقة بيضاء، فهو لا يعاني من شيء آخر غير التهاب اللوزتين.

وهنا تذكَّرتُ وصفة منزلية، كانت أمي تعدها لي ،عندما كنت أعاني من التهاب كهذا، وطلبت منه أن يتغرغر بملح كل ساعتين. وبعد أن قام أبو سعيد بترجمة علاجي وتشخيصي سأل الرجل مندهشا: «بأي شيء؟ بملح!»، لا يوجد هنا ملح، فقلت له: «إذا لم تجد في الصيدلية ملحاً، فخذ قبل أن تذهب للفراش قرصًا من الأسبرين، وضعه في الماء ثم تغرغر به مرة تلو الأخرى، ثم ابلعه بعد ذلك، فهذا يفيد في التهاب اللثة». ورغم أن الرجل لا يعاني من أي الآم في اللثة، إلا أنه أومأ برأسه شاكرا إياي، ثم أمرته بإحكام غلق الباب؛ لأن بالحجرة تيار هواء شديد يمكن أن يكون سببا في مرض أي شخص، فقام الرجل يعانقني ويشكرني أكثر من مرة، أما أنا فعليّ أن أتوجه بخالص شكري إلى أمي رحمها الله، والتي كانت لديها وصفة منزلية لكل أَلَم أَلـمَّ بي، واستعجلني أبو سعيد، مبديا لي فكرة وهي أن أستبدل بدكتوراه القانون دكتوراه في الطب؛ إذ لم تعد الأولى ذات نفع الآن.

حنان

سافرنا منشرحي الصدر إلى دمشق، لم يتحدث أحد.. كان الكل صامتًا، حتى موسى سائق السيارة لم يتلفظ بكلمة واحدة، وهنا سألته، عن سبب قلة كلامه، فنظر موسى إلى الطريق بتركيز عال وظل على صمته، ثم قال لي بصوت هامس: «كنت في الماضي أعشق الحديث عن حياتي ، عندما كنت سائقا في الشرطة العراقية في بغداد، ثم جاءت

الحرب وجاء معها البؤس والشقاء، ولكن عندما أروي لك هذه الحادثة فسوف يتضح لك كل شيء عن هذا الشقاء».

«..كانت لي عمة في بغداد اسمها حنان، مات عنها زوجها في سن مبكرة، كانت عمتي حنان قصيرة القامة، إلا أنها كانت جميلة جدًّا، لم تتزوج بعد وفاة زوجها وظلت في حزنها أمداً طويلاً، ثم قررت بعد ذلك أن تضفي على حياتها معنى جديدًا، فقررت منذ ذلك اليوم أن تكون في خدمة أسرتي أخويها سالم وجميل.

في تمام الساعة السادسة من كل صباح، كانت تبدأ بأسرة سالم المكونة من تسعة أفراد، فتقوم بغسل ملابسهم وكيها، ثم تعد الطعام لهم، كل شيء يجب أن يكون في غاية اللمعان من شدة النظافة والنظام، ثم تذهب ليلاً إلى عائلة جميل لتقوم بالشيء نفسه، وكانت في شغل دائم، فهي لا تكاد تُرَوِّح عن نفسها، ولم يكن أي عمل بالنسبة لها كثيرًا.

ومع مرور السنين ، بدت عليها آثار العمل الشاق، وظهرت التجاعيد في وجهها، ولكن على الرغم مع تجاعيد وجهها، إلا أنه كان يبدو مشرقاً من شدة الحب الذي يكنه لها الجميع، وكانت سعادتها البالغة تكمن في أن تقوم بعمل زوجتي أخويها، وتساعدهما وتضفي السعادة على عائلتيهما، كما كانت تقرأ ليلاً للأطفال والأحفاد، وتقص عليهم القصص وتحكي لهم شيئا من حياتها، وكانت حنان في قمة سعادتها؛ لأنه أصبح لها بدل العائلة الواحدة عائلتان.

وذات يوم وبالتحديد في خريف 2006 كانت حنان في طريقها إلى المدينة كي تتسوق لكلتا العائلتين، وكانت حنان في ذلك الوقت قد ناهز

عمرها الستين وانحنى ظهرها شيئًا قليلًا. وبينما هي في السوق دارت مواجهات عسكرية بين القوات الأمريكية وقوات المقاومة في المنطقة التي يسكن فيها أخواها.. استدعت القوات الأمريكية على أثر ذلك الطائرات، التي ما لبثت أن حولت المكان إلى دمار وخراب، وهنا سمعت حنان دوي الانفجارات ورأت الدخان يتصاعد، فأسرعت مهرولة إلى البيت، وهي تحمل أكياس التسوق الثقيلة؛ لأنها كانت تتسوق لعائلتين كبيرتين، تحتاجان إلى كثير من المواد الغذائية.

ولما وصلت حنان وهي تلهث إلى حيث يقطن أخوها سالم مع أسرته، رأت من بعيد ما فعلته القنابل ببيته من دمار وخراب، وسقطت أكياس التسوق من أيدي حنان، التي هرولت إلى رُكام البيت وهي تصرخ؛ وهنا كان يقف الجيران أمام البيت يندبون بأيديهم ويسبون ويلعنون، وصاحت حنان في يأس: «أين سالم؟ أين زينب؟ أين أولادي؟»، صرخت في الجيران الذين وقف بعضهم يشير إلى الأنقاض، وبعضهم انصرف والدمع يذرف من عينيه.

ألقت حنان بنفسها على الأنقاض، وحاولت أن ترفع الحجارة وتحدث نقبًا، ولكنها أدمت أصابعها دون جدوى، وجلست مرة أخرى باكية صائحة على الأنقاض، التي وارت أطفالها وأحفادها وعائلتها؛ ثم هالت حنان بالتراب على رأسها، وحاولت أن تموت كما ماتت أسرتها، وبعد ساعة من العويل قامت وقد أنهكها التعب وجلبت الأكياس، وجلست مكسورة الخاطر بجوار حائط صغير كان أمام البيت المدمر، وغطت وجهها بغطاء رأسها الأسود، وهكذا ظلت جالسة تبكي وتصرخ حتى الليل.

طلب الجيران من حنان أن تأتي معهم إلى بيتهم؛ حتى يتمكنوا من تقديم الطعام لها، إلا أنها أبت وفضلت الجلوس بجوار أطفالها وأحفادها وأسرتها، ولم تلمس يداها زجاجة الماء التي وضعها أهل الخير بجوارها، ولما أرخى الليل سدوله.. أقبل إليها إمام الناحية وسألها أين تريد أن تقضي الليل، فأجابته بصوت يكاد لا يسمعه أحد، أنها ستذهب إلى جميل، وهمَّ الإمام أن يرد عليها، إلا أنه لم ينطق ببنت شفة ثم أعرض عنها، وهو يمسح الدموع من عينيه، وتنفس بعمق، ثم ضغط على قبضة يديه، وتوجه إلى حنان، وهو يحاول أن يحافظ على تماسكه وقال لها: «لا يمكنك أن تذهبي إلى جميل، فقد حلَّ الدمار بالبيت ومات جميع مَنْ فيه».

رفعت حنان عباءتها من على جبينها ببطء وغير مصدقة لما يقول، أرادت أن تقرأ وجه الإمام، حتى يتبينَ لها أن ما قاله الإمام ليس صحيحاً، وهنا صرخت حنان يائسة وقالت: «لا، لا يمكن أن ما تقول صدقاً.»، وتضرعت حنان ، وقد بُحّ صوُتها إلى الإمام متوسلة بألا يكون ما قاله صدقاً، وقالت: «إن جميل لازال حيًّا وسأذهب إليه كما تعودت، ولن يمنعني من ذلك أحد أبداً.»، أجابها الإمام:« لم يعد ممكنا أن تذهبي إليه.. لم يعد جميل على قيد الحياة، فقد لقي الجميع حتفهم».

أطلقت حنان صرخة مدوية وألقت بنفسها على الأرض، تضرب الأرض بكلتا راحتيها وتهيل التراب علي وجهها، ثم ظلت في مكانها جاثمة، وبعد ساعة تقريبا حملها الإمام مع بعض أصدقائه إلى بيته، وهنا أزالت زوجة الإمام بحرص التراب من ثيابها، وحاولت أن تنظف يديها ووجهها، ثم أحضرت لها شيئا تأكله، بيد أن أيدي حنان لم

تلامس طعاماً قط، وظلت مستمرة في نحيبها، حتى أتى في وقت متأخر من الليل بعض أقربائها، وطلبوا منها أن تعود معهم إلى دارهم؛ لكن الأمام قال: إن حنان في استضافتي أنا وأهل بيتي. أما حنان فقد كانت منهارة جدا فلم ترد عليهم جميعاً؛ وظلت حنان في بيت الإمام، لا تأكل ولا تشرب، مستمرة في بكاءها ونحيبها، وبعد ثلاثة أيام انقطعت عنها الأنفاس فماتت حنان، إذ لم يعد في استطاعتها أو في إرادتها فعل أو تقديم أي شيء.

شدد موسى قبضته على عجلة القيادة ووجه نظره إلى الأمام، فلم تذرف عيناه دمعة واحدة، فمثل هذه القصص والحكايات عاشها آلاف العراقيين، وذكر لي قائلاً: إن الناس الذين رأيتهم في مدينة الرمادي لم يقصوا عليك إلا جزءا صغيرا مما يعانونه، قلْ لأصدقائك من الأمريكان بأنهم لم يدمروا بلدنا فحسب، بل إنهم حطموا كذلك قلوبنا، واستراح موسى شيئا قليلا، ثم أضاف هامساً: لقد كانت حنان من أحب العمّات لقلب زيد.

ومن بعيد لاحت في الأفق ملامح مدينة دمشق، فأخذ موسى ينطلق مسرعاً بالسيارة، فسوف يقضى موسى وأبو سعيد ليلتهما في مدينة دمشق، ثم يتوجهان في الصباح الباكر عائدين إلى مدينة الرمادي التي يفقد فيها الناس كل شيء، حتى الأمل.



الفصل الثاني
الفرضيات العشرة

الفِكْرُ الغربي ليس أبدع ما أنتجته البشرية
كلمة أخيرة ذات رؤية شخصية خالصة

«لِمَاذَا تَنْظُرُ القَذى الذي فِي عَينِ أَخِيكَ، وأَمَّا الخَشَبةُ التي فِي عَينِكَ فلا تَفْطِنُ لها» عيسى الناصري،

إنجيل لوقا (الإصحاح السادس، آية : 41)



مقدمة

قمت برحلات عديدة في سبيل إعداد وتجهيز هذا الكتاب[1]، كما قرأت كثيرًا من الكتب. لقد أردت في البداية الاقتصار على قراءة كتاب «الكتاب الأسود للجهاد» وكتاب «الحروب الصليبية الجديدة» اللذين ألفهما «جيلس كيبل»Gilles Kepel ، الخبير الفرنسي في شؤون الإرهاب، حيث كان من المفترض أن يقدما لي أحدث المعلومات والمناقشات حول الوضع الراهن للإرهاب، غير أنني كلما تعمقت في القراءة أكثر، تبين لي أنني لا أعرف إلا القليل.

ثم واصلت قراءاتي وأخذت في تعميقها أكثر فأكثر، فوجدت أن هناك كتبًا تُحزن مَنْ يقرأها مثل كتاب «الاستعمار والطرد» لـ «أوليفييه ولو كور جراندميزون»

Olivier Le Cour Grandmaison[2] وكتاب «شهامة سان أرنو» لـ «فرانسوا ماسپيرو» François Maspero [3] ، والتقيت شخصيًّا مع بعض الكتاب، منهم على سبيل المثال «جراندميزون»، وهو أستاذ فرنسي دمث الخلق نشط ومملوء شبابًا وحيوية، والتقيت كذلك مع «چان پول سارتر» الذي عاصرته عندما كنت طالبًا في باريس عام 1960م، حيث كتب «سارتر» مقدمة كتاب «فرانز فانون» Frantz Fanons وعنوانه «المعذبون في الأرض» .

وسرعان ما تبين لي أنني إذا أردت أن أقف على حقيقة الصراع بين الغرب والعالم الإسلامي، فعليَّ أن أقرأ القرآن الكريم والتوارة والإنجيل قراءة تامة ومفصلة؛ وانتهزت من أجل ذلك كل دقيقة فراغ ، سواء أكنت جالسًا في السيارة أم الطائرة أم أثناء قضاء إجازة، وحتى أثناء وقت ممارستي الرياضة في قاعات التدريب.

قرأت أجزاءً كثيرة من القرآن الكريم ، وأنا أتصبب عرقًا من فوق دراجة ثابتة للتدريب، حتى أن زوار قاعات التدريب أخذوا ينظرون إليَّ بشيء من الريبة، فربما اعتبروني مجنونًا، فكيف يمكن لأحد أن يقرأ القرآن الكريم في إحدى قاعات الرياضة ؟

وأهم درس خرجت به من قراءاتي ورحلاتي أن النقاش الحالي حول محاربة الإرهاب يبتعد كليًّا عن جوهر الموضوع ، وعليه فمن يحصر «الحرب على الإرهاب» بإجراءات مثل مراقبة وتفتيش صفحات الإنترنت، والتجسس الإلكتروني على الإسلاميين ، أو مراقبة الذين أسلموا من المواطنين الغربيين ، فإنه لم يدرك بُعد المشكلة وحقيقتها[4].

لن نتغلب على الإرهاب إلا إذا أزلنا أسبابه، وليس معالجة ظواهره العارضة .

إن السبب الرئيسي للإرهاب في العصر الحالي هو الطريقة غير الإنسانية ، التي يتعامل بها الغرب مع العالم الإسلامي منذ مئتي عام تقريبًا . لا يجوز الاستمرار في احتقار الشعوب، ولن نتغلب على الإرهاب إلا إذا تعاملنا مع الدول الإسلامية بعدل وإنصاف ، مثلما نريد ونحب أن يُعاملنا الآخر تمامًا.

لقد لخصت ما تعلمته من قراءاتي ورحلاتي في عشر فرضيات، إنها ليست فرضيات أكاديمية، وإنما تعبّرعن رؤياي الشخصية للأشياء ، حاولت فيها ببساطة أن أرى أحداث المائتي سنة الأخيرة في الشرق الأوسط ، من وجهة نظر الإنسان المسلم، وليس من وجهة نظر الإنسان الغربي فقط.

وفي بداية بحثي، نقبت وفتشت بتركيز شديد حتى أجد تعريفًا مقبولاً وشاملا لظاهرة الإرهاب، فلم أجد . لقد حاولت الأمم المتحدة منذ عشرات السنين الوصول إلى اتفاق لتعريف هذا المصطلح وفشلت ، وينطبق الشيء نفسه على مصطلحي «المقَاومة» و «حرب التحرير» . فمن يعتبره البعض مُقَاوِمًا أو مُحَارِبًا من اجل الحرية يعتبره الآخرون إرهابيًّا .[5]

لقد وصف «إدوارد بيك» Edward Peck، الذي كان نائب رئيس فريق عمل البيت الأبيض لشؤون الإرهاب في عهد الرئيس الأمريكي «رونالد ريجان» Ronald Regan، صعوبات وضع تعريف يمكن استخدامه لمفهوم الإرهاب بالكلمات الساخرة الآتية: «لقد وضعنا ستة تعريفات للإرهاب، تمَّ رفضها جميعًا؛ لأننا عندما نقرأ هذه التعريفات قراءة دقيقة، يتبين لنا أن الولايات المتحدة الأمريكية نفسها متورطة في مثل هذه الأعمال»[6] .

لذلك وضعت لنفسي تعريفًا ذا طابع شخصي خالص، اعتمدته منهجًا لي طوال حياتي السياسية ؛ فالإرهاب بالنسبة لي هو محاولة غير مقبولة لتغليب مصالح سياسية باستخدام القتل أو سوء معاملة المدنيين الأبرياء، فَمَنْ يقتل أو يجرح مدنيين أبرياء عمدًا ليفرض رؤيته للعالم على الآخرين، فهو عندي إرهابي، حتى وإن كان رئيس دولة، فلا يحق لنا أن نزن الظلم بمعايير مزدوجة. .

إن فرضيّاتي مركّزة ومترابطة، فهي تتضمن مجموعة من الحقائق التاريخية ، والتي دونها لا يمكن فهم الصراع بين الشرق والغرب ناهيك عن إمكانية حله . كما تحتوى هذه الفرضيّات على تعميمات أردت الإشارة إلى إشكالياتها صراحة ، فعندما أتحدث عن الغرب، أقصد

بذلك على وجه الخصوص القيادة السياسية للدول الغربية الكبرى؛ لأن هناك دولاً غربية لم تلطخ أيديها على الإطلاق لا بالاستعمار القديم ولا الاستعمار الجديد ، كما أن هناك عددًا لا حصر له من رجال الغرب، الذين سعوا وعملوا بحماس شديد على مر العصور ؛ للدعوة لمعاملة المسلمين معاملة عادلة ومنصفة.

ومن بين التعميمات استخدام مصطلح «العالم الإسلامي» الذي لا يراعي تنوع المجتمعات الإسلامية . ولكن على الرغم من ذلك استخدمت هذا المصطلح ؛ حتى أتمكن من شرح وبيان الخطوط العريضة للعلاقات الكائنة بين الشرق والغرب بصورة مفهومة . فعلى الرغم من الخصوصيات ، التي لا تعد ولا تحصى للدول الإسلامية منفردة، فلا بد لنا أن نُقِرَّ للأسف بأن هناك صراعا عميقًا ومتأصلاً بين الغرب والعالم الإسلامي،

وأنا على يقين تام بأن فرضياتي سوف تكون مثار نقد، وأنا على استعداد لقبوله، وأملي أن تتضح أمور كثيرة أثناء النقاش . لقد حان الوقت لنفتح أعيننا؛ لأن سياستنا الراهنة تجاه العالم الإسلامي لا مستقبل لها.

الفرضية الأولى

الغرب هو أكثر عنفًا من العالم الإسلامي : ملايين المدنيين

كانوا ضحايا الحقبة الاستعمارية على العالم العربي.[7]



لقد كان المؤرخ والسياسي الفرنسي الكبير «ألكس دي توكڤيل» Alexis [8] de Tocqueville من أوائل المدافعين بحرارة وحماس عن الحرية الشخصية، التي كان يراها تتقدم دائمًا على مبدأ المساواة؛ فهو يرى أن عدم المساواة هي بإرادة الخالق [9] ، ولذلك فلا عجب من عدم تأييد رجل الدولة المتنور هذا ، أسوة بغالبية أقرانه المعاصرين له ، لمبدأ المساواة بين الأجناس .

في أهم كتاب نُشر له عام 1835م بعنوان «حول الديمقراطية في أمريكا»، طرح «توكڤيل» تساؤلاً يعبر عن حال تلك الحقبة من الزمن، فقال : «لا يسع المرء ، حينما يتابع أحداث العالم ، إلاّ أن يقتنع بأن الأوروبيين بالنسبة لغيرهم من الأجناس البشرية الأخرى كالإنسان بالنسبة للحيوان ، فهو يسخرهم لخدمته، وحين لا يتمكن من إخضاعهم له يقوم بسحقهم.» [10] . ولذلك لم يجد هذا المفكر الليبرالي «أي سبب لمعاملة المسلمين وكأنهم مساوون لنا». [11]

وبهذا المبدأ تحديدا تعامل الغرب مع العالم الإسلامي طوال المئتي سنة الأخيرة. فخلال استعمار فرنسا للجزائر ، على سبيل المثال ، طوردت العائلات والأسر المسلمة وكأنها ضباع وذئاب وثعالب جرباء [12]؛ وكانت الاستراتيجية التي أراد بها السادة المستعمرون في القرن التاسع عشر كسر شوكة المقاومة المعادية لرسالتهم الحضارية [13]، تتمثل في تطبيق شعاراتهم الآتية: «دمرْ، طاردْ، أرهبْ» (انظر: «أوليڤييه لو كور جراندميزون» [14] Olivier Le Cour Grandmaison).

لقد استخدم الاستعمار في الجزائر الغازات أكثر من مرة لإبادة

قبائل كاملة ، اتخذت الكهوف والمغارات ملجأ لها (انظر: «إنفوماد» Enfumades [15])؛ حيث كتب العقيد الفرنسي «لوسيان فرانسوا دي موتاناك» Lucien-François de Montagnac [16] – في هذا الصدد – رسالة من قلب الجزائر في عام 1842م قال فيها ما نصه: «إننا نقوم بالقتل وبالخنق، حتى إنَّ صرخات اليائسين والموتى باتت تختلط بثغاء الحيوانات ؛ وربما تسألونني عما نفعله بالنساء، إننا نحتفظ ببعضهن كرهائن، ونقايض أخريات بالخيول، وأما الباقيات فيبعن كالحيوانات في المزاد [17]؛ ومن أجل أن أبعد عن نفسي التردد أو الرحمة ، كنت أحتفظ ببضعة رءوس مقطوعة ، إنها ليست رءوس نبتة الخرشوف، وإنما هي رءوس بشر.» [18]

وصف الكاتب الفرنسي المقيم في الجزائر «لوي دي بوديكور» Louis [19] de Baudicour إحدى هذه المجازر الكثيرة بقوله: «قَطَعَ أحد الجنود ذات مرة، بدافع التسلية ، ثدي إحدى النساء، وفي مرة أخرى حمل جندي آخر طفلاً من قدميه وأخذ يحطم رأسه بالجدار تحطيمًا» [20]؛ وقد تحدث «ڤيكتور هوجو» Victor Hugo عن الجنود الفرنسيين ، الذين كانوا يتقاذفون الأطفال فيما بينهم، بحيث يتلقى فريق منهم هؤلاء الأطفال برءوس حرابهم [21] ؛ وكانت مكافأة مَنْ يأتي بأذنين محفوظتين في ماء مالح مائة قطعة نقدية، أما مكافأة مَنْ يأتي برءوس مقطوعة فأكبر من ذلك بكثير، كما كانت عظام العربي تستخدم كفحم حيواني . (قارن: «أوليڤييه لو كور جراندميزون» Olivier Le Cour Grandmaison[22])

ورغم كل ذلك ، فقدكان نابليون الثالث يرى أن يد الله ترعاهم في هذا العمل، حيث قال ما نصه: « فرنسا سيدة للجزائر؛ لأن الله أراد ذلك.» [23]، ولكن الجزائريين كانت لهم رؤية أخرى مغايرة ، لقد دفعوا ثمنًا باهظًا من الدماء من أجل نيل حريتهم ؛ حيث دَمَّرت القوات الجوية الفرنسية وحدها في حرب الاستقلال في الفترة ما بين عامي 1954م و1962م، ثمانية آلاف قرية جزائرية بقنابل النابالم.[24]

ومن جانبها أيضًا قامت جبهة التحرير الوطنية الجزائرية المعروفة باسم «FLN» [25]، بأعمال إرهابية مماثلة، وقد أشار إلى ذلك «ألبير كامو» Albert Camus، [26] غير أن تلك الأعمال لا تقارن إحصائيًّا - بأي حال من الأحوال - بأعمال عنف المستعمِر؛ حيث قتلت قوات الاحتلال أثناء فترة التبشير الحضاري تلك التي امتدت قرابة مائة وثلاثين عامًا، وفقًا للتقارير الجزائرية ، أكثر من مليوني جزائري بينما تتحدث التقديرات الفرنسية عن أكثر من مليون قتيل جزائري ، ومائة ألف قتيل فرنسي.[27]

أما العراقيون الذين استعمرتهم بريطانيا فلم يكونوا أحسن حالاً ، فقد وصمهم «ونستون تشرشل» Winston Churchill بـ«نكران الجميل» [28]؛ بسبب ثورتهم ضد الاضطهاد البريطاني عام 1920م، وكان جزاؤهم أن أمر «ونستون تشرشل» بقصفهم بالأسلحة الكيماوية، وكان هدف القصف - حسب تعليقه - هو «تدمير روحهم المعنوية العالية»[29] بينما صرح «هارس» Harris، قاذف القنابل والأب الروحي لما يُسمّى بـ«القصف المعنوي»، بكل فخر بعد الهجوم الجوي قائلاً: «لقد أضحى العرب والأكراد يعرفون الآن المعنى الحقيقي للقصف، بإمكاننا محو

قرية كاملة من على الأرض في غضون 45 دقيقة،» [30] .كما كانت عمليات القصف بالقنابل تعتبر وسيلة ناجحة لجباية الضرائب في العراق [31].
ولقد استقال «ليونيل تشارلتون» Lionel[32] Charlton، الضابط في السلاح الجوي الملكي، من الخدمة عام 1924م بعدما رأى بِأُمّ عينه الضحايا المشوهين في إحدى المستشفيات [33] ، وليته علم أن بلاده ستقصف العراق مجددًا بعد 80 عامًا من هذا التاريخ.

وفي ليبيا ، كان المستعمرون الإيطاليون يلقون من طائراتهم في ليبيا غاز الفوسجين والخردل على المقاومين والمدنيين على السواء ، وكانوا يضعون شيوخ القبائل في الطائرات ليُلْقوا بهم من على ارتفاعات شاهقة؛ وجرى اعتقال أكثر من مائة ألف مدني في معسكرات صحراوية، ولقي نصفهم حتفه بشكل مأساوي ؛ واحتجز المستعمرون فتيات ليبيات لاستخدامهن كجاريات جنس لجنود المستعمر[34] ، واستخدم الإسبان كذلك الأسلحة الكيماوية ضد مقاومة القبائل في المغرب ، التي كانت آثارها مفزعة أيضًا.

لقد كان المثال المحتذى في معاملة الغرب للعرب هو استراتيجية الإبادة التي مارستها أمريكا ضد الهنود الحمر [35]. كما كان جنون التفوق العرقي والعنصري للمدنية والحضارة الغربية في ذلك الوقت بلا حدود ، ولقد قسّم «جوستاف لوبون» Gustave Le Bon – مؤسسُ علم النفس الاجتماعي والمناضلُ ضد «خرافة المساواة» [36] – البشرَ إلى أربع طبقات: طبقة سكان أستراليا وأمريكا الأصليين ويمثلون «العِرق البدائي»، و«طبقة السودِ» ويمثلون «العِرق الدونيّ»، وطبقة العرب

والصينيين ، ويمثلون «العِرق المتوسط»، أما الطبقة الهندو-أوروبية» فتمثل العِرق الأعلى والسامي». [37]

حتى بعد الحرب العالمية الثانية استمر الغرب ، على الأغلب ، يعامل المسلمين على أنهم من أدنى الطبقات، حيث كان يعتبرهم «من إحدى طبقات القرود الأعلى نسبيًا» (انظر «چان پول سارتر» -Jean Paul Sartre. [38]) وهذا التعامل طبقوه خلال حروب التحرر من براثن الاستعمار وخلال الهجمات الاستعمارية لتأمين طرق المواد الخام وفي قضية فلسطين، وكذلك في الحصار الاقتصادي الذي فرضته أمريكا وبريطانيا العظمى على العراق . لقد مات من جراء هذا الحصار وتلك العقوبات «المخالفة للأعراف» [39] - حسب وصف الفاتيكان ، وطبقًا لتقارير اليونيسيف - أكثر من مليون ونصف مليون عراقي، من بينهم قرابة خمسمائة ألف طفل.[40]

إن حرب العراق الراهنة هي مثال آخر على مدى امتهان وإهانة الغرب للعالم الإسلامي؛ فقد قُتل آلاف المدنيين عند دخول القوات الأمريكية العراق . وتَسَاقطَ كثيرٌ من هؤلاء المدنيين جراء قنابل اليورانيوم المنضّب[41] ، ليتحولوا بذلك إلى أصحاب عاهات مستديمة. ولقد توصلت دراسة إحصائية نُشرت في المجلة الطبية المتخصصة ، والمعروفة باسم «لانست» Lancet قام بها أطباء أمريكيون وعراقيون محايدون، إلى أنه ، لغاية يونية 2006م أكثر من ستمائة ألف عراقي تعرضوا للموت بسبب العنف حتى ؛ نتيجة الحرب والفوضى التي سببها الاحتلال الأمريكي للعراق ؛ حيث قتلت قوات التحالف تحت قيادة أمريكا بشكل مباشر قرابة 31% منهم ، بينما قُتل % 24 بسبب العنف

الطائفي والعمليات الانتحارية، وكان الجاني غير محدد في قرابة 45 % من القتلى . وحسب «لانست» ، فإن عددًا كبيرًا من هؤلاء القتلى بالرصاص وقع ضحية «المشاركة المباشرة للجيش الأمريكي في عملية القتل» [42].

وتوصلت دراسة لمعهد الأبحاث البريطاني المستقل المعروف باسم ORB ، ونُشرت في خريف 2007م إلى أن عدد القتلى تجاوز مليون عراقي ، ومثلهم من الجرحى. وتقول الدراسة إن 50% من العائلات في بغداد فقدت واحدًا من أفرادها.[43] هذا بينما تقول أرقام «منظمة مراقبة حقوق الإنسان» المعروفة باسم Human Rights Watch بأن صدام حسين تسبب في كل فترة حكمه للعراق التي دامت 23 عاما، في موت 290.000 عراقي مدني [44].

وعلى الرغم من تراجع عدد القتلى في العراق منذ خريف عام 2007م، إلا أنه لا زال يموت ، في صيف عام 2008 وحسب تقديرات الخبراء الأكثر تواضعا ، قرابة 3000 عراقي مدني كل شهر بسبب فوضى هذه الحرب؛ إن هؤلاء يشكلون ضعف من ماتوا في أحداث 11 سبتمبر 2001م داخل مركز التجارة العالمي . ولقد ذكر كوفي عنان ما نصه: «إن الشعب العراقي يعيش اليوم وضعًا أسوأ مما كان عليه الحال تحت حكم صدام» [45]. ولا نظن أن هناك من بين العراقيين مَنْ يقول، وهو مسرور: « عظيم، لقد تمَّ تدمير بلدنا ومات أكثر من مليون مواطن، وتشرد أكثر من أربعة ملايين ونصف وبلغت نسبة وفيات الأطفال أعلى معدلاتها في العالم، ولا تتوافر الكهرباء ولا الماء والدواء إلا بالكاد، وتجاوزت نسبة البطالة والتضخم قرابة % 50، حتى إن الإنسان لا يتمكن من المشي في

طرقات العراق إلا بالكاد، ويعيش الناس في أحياء تفصلها عن بعضها البعض جدران عازلة ؛ لأن الجنرال الأمريكي بيتريوس [46] يقول : «إن الجدران العازلة الجيدة تخلق جيرانا جيدين» ، ورغم ذلك فإن الثمن مستحق لأن صدام ولّى .

إن المستفيد الوحيد من هذه الكارثة هي إيران والإسلاميون المتطرفون. ولذا لم تكن غريبة نتائج الاستفتاء الذي أجرته وكالتا الأنباء الـ BBC والـ ABC – والذي يقول إن قرابة 86% من العراقيين – بجميع أطيافهم – يطالبون بانسحاب القوات الأمريكية؟

خلال المئتي سنة الأخيرة ، لم يقمْ بلد إسلامي بالهجوم على الغرب ولو لمرة واحدة. إن القوى من أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية كانت دائمًا هى المعتدية [47]، حيث قُتل الملايين من المدنيين المسلمين منذ بدء الحقبة الاستعمارية . إن الغرب هو صاحب السبق دائمًا في قائمة القتل المحزنة بنسبة أكثر من عشرة إلى واحد . والنقاش الدائر حاليًا حول العنف المزعوم من جانب العالم الإسلامي يقلب الحقائق التاريخية رأسًا على عقب؛ لقد كان الغرب وما زال أكثر عنفًا من العالم الإسلامي، وعليه فليس عنف المسلمين ، وإنما عنف الغرب هو مشكلة عصرنا الحالي [48].

الفرضية الثانية

سياسات تجار الحروب الغربيين جعلت من غير المستغرب تزايد
شعبية المتطرفين المنسوبين إلى الإسلام .



من أجل فهم التطرف الإسلامي على المرء أن يرى العالم ولو لمرة واحدة من منظار أحد المسلمين ، ففكرنا الغربي ليس أبدع ما أنتجته البشرية . عندما يتابع الشاب المسلم الأخبار في التلفاز فإنه يرى يوميًّا النساء والأطفال والرجال المسلمين يقتلون في العراق وأفغانستان وفلسطين ولبنان والصومال وفي غيرها من البلاد الإسلامية بأسلحة غربية ، وعلى أيدى تحالف وجنود من الغرب، ولذا فإنه لا بد وأن يتأثر بما يرى ويشاهد.

إن ما يدعو إلى السخرية أن تتساءل العقول الغربية باستغراب عن سبب انحدار ثم سقوط الحضارة العربية «التي سادت العالم عسكريًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا، في يوم من الأيام» (هانس ماجنوس إنسنسبرجر[49]) Hans Magnus Enzensberger. لقد كان للغرب دور أساسي في ذلك الانحدار والسقوط ؛ فهو المحتل الذي دمّر ونهب واستنزف دماء سكان هذه البلدان قبل انسحابه منها .

لقد كانت نسبة الذين يقرأون ويكتبون في الجزائر عند بدء الاستعمار في عام 1830م أعلى بنسبة % 40 من فرنسا وإنجلترا [50]، وفي عام 1962م عند انسحاب القوات الفرنسية كانت هذه النسبة أقل من %20 [51] . لقد سرق الاستعمار من العالم العربي أكثر من مائة عام من التقدم، وقد عبّر «توكفيل» Tocqueville بأسف عن هذه الحقيقة بقوله : «لقد انطفأت الأنوار، حيث جعلنا المجتمع الإسلامي أكثر فقرًا وجهلاً وبؤسا وأقل إنسانية.»[52]

لقد عاث الاستعمار الغربي فسادًا في جميع أنحاء العالم تقريبًا؛ إلا أنه لم يتوقف إلى يومنا هذا عن هياجه الجنوني في الشرق الأوسط

الغني بالنفط؛ وهذا هو الذي يميز هذه المنطقة عن غيرها من مناطق العالم، ويجعلها أرضا خصبة للإرهاب.

الإرهاب ليس ظاهرة إسلامية وإنما هو ظاهرة عالمية؛ فقد وجد في كل زمان واستخدم من جميع الأطراف ؛ فإلى جانب الإرهابيين العرب الذين كانوا يقتلون المستوطنين اليهود، كانت هناك أيضًا «منظمات إرهابية صهيونية» كمنظمة «إرجون» التابعة لمناحيم بيجن ، وتلك التابعة لإسحاق شامير «مناضلون من أجل حرية إسرائيل» التي تفاخرت بصفتها الإرهابية [53] . لقد استخدمت هذه المنظمات وسائل إرهابية في حربها ضد البريطانيين والعرب من أجل «إسرائيل حرة » [54].

غالبا ما يقال في النقاش الحالي عن ظاهرة الإرهاب: «ليس كل المسلمين إرهابيين، ولكن كل الإرهابيين مسلمون» . وهذا خطأ فاضح؛ فَحتى 11 سبتمبر 2001م كانت حركة «نمور تحرير التاميل» الهندوسية في سيريلانكا هي المنظمة الإرهابية الأكثر قتلاً ودموية في العالم[55]؛ لقد اغتالت هذه الحركة آلاف المدنيين الأبرياء؛ حيث طوّرت من عملياتها الانتحارية الإرهابية إلى درجة الكمال، وتم تقليد عملياتها في جميع أنحاء العالم حتى في أدق التفاصيل، وخاصة في منطقة الشرق الأوسط . ونمور التاميل يقومون بإلقاء القنابل ويقتلون حتى يومنا هذا؛ ولكنهم لا يقتلون الغربيين ؛ ولذلك لا تذكر عملياتهم إلا على هامش نشرات الأخبار.

من أصل 48 منظمة صنّفها الاتحاد الأوروبي رسميًا عام 2006م على أنها منظمات إرهابية ، هناك 36 منها لا علاقة لها بالإسلام [56] . وتحمل هذه المنظمات الإرهابية المعادية لـ «الإمبريالية» و«الرأسمالية»،

تحمل وزر قتل أعداد لا تحصى من المدنيين في دول أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا السوداء؛ ولكن هذه المنظمات لا وجود لها في الوعي العام الغربي ألبتة ؛ لأنهم لا يقتلون أناسًا ينتمون إلى بيئتنا ومحيطنا الثقافي.

بعد النهاية الرسمية للحقبة الاستعمارية في منطقة الشرق الأوسط حلّت محلها، في الغالب ، حكومات عميلة ذات تبعية مالية وعسكرية للمستعمر، حيث أضحت هذه الحكومات بمثابة قطع الشطرنج تحركها القوى الغربية الكبرى في إطار لعبتها الجغرافية السياسية؛ أما الذي لا يريد المشاركة في تلك اللعبة، فيتمّ تلقينه درسًا بأن للشعوب حقًّا في تقرير مصيرها، ولكن فقط عندما لا يتعارض مع المصالح الغربية؛ فمفهوم الحرية لم يعنِ في يوم من الأيام التحرر منّا. ولنتذكّر هنا ما وقع للسيد «محمد مصدق» [57] رئيس الوزراء الإيراني الذي انتخب انتخابًا ديمقراطيًّا عام 1951م ، ثم قامت المخابرات الأمريكية والبريطانية بالإطاحة به بعد سنتين من انتخابه؛ وسُميت هذه الواقعة «بالقانون المصدّقي»، فمَنْ يُخالف هذا القانون، يتم تغييره بانقلاب ، أو يتعرض لحملة إعلامية مكثفة ويتحول إلى « مارق» [58]. إن استخدام الإعلام لصناعة «الأشرار» هو إحدى تخصصات السياسة الخارجية الغربية، والرئيس «القذافي» مثال حي يؤكد ذلك ، مثلما يؤكد أن صفة «الشرير» يمكن إبطالها في أي وقت.

أما صدام حسين ، فقد غُيّر لقبه من «شريك» إلى «مارق» . وقد كان بإمكانه إلى اليوم أن يفعل ما يريد، لو أنه بقي شريكًا للولايات المتحدة الأمريكية؛ فمجزرة الدجيل[59] بقتلاها البالغ عددهم 148 قتيلاً ، والتي

أُعدم بسببها، حدثت عام 1982، حينها كان صدام حسين لاعبا أساسيا في الشرق الأوسط، وكان يخوض عام 1982م حربًا بدعم غربي ضد إيران الخميني ، بعدها بعام أي عام 1983م قام «دونالد رمسفيلد» Donald Rumsfeld بزيارة صدام كمبعوث خاص للرئيس الأمريكي، على الرغم من علمه التام بموضوع الدجيل [60]! كيف لا وقد كان صدام رفيق سلاحنا نحن الغرب ضد التطرف الإسلامي، حيث أمدّته كل من ألمانيا بقطع للأسلحة الكيماوية، وفرنسا بطائرات حربية، والولايات المتحدة الأمريكية ببيانات الأقمار الصناعية عن المواقع الإيرانية[61]. لم يكترث الغرب يومًا بحقوق الإنسان ولا بالديمقراطية في الشرق الأوسط .. إنه كان وما زال يحارب من أجل النفط.

إن اللاإنسانية الوقحة التي تمارَس باسم حقوق الإنسان، والتي تذكّر بها كل يوم الصورُ الدموية من العراق وأفغانستان وبلاد إسلامية أخرى، تترك آثارها العميقة والمؤلمة في الذاكرة الثقافية للمسلمين؛ لقد أصاب «صموئيل هنتينجتون» Samuel Huntington ،في هذه على الأقل، عندما قال: «لم يُخْضِع الغربُ العالمَ بسبب تفوق أفكاره أو قيمه أو دينه، وإنما بتفوقه في استخدام العنف المنظّم ، وغالبا ما ينسى الغربيون هذه الحقيقةَ بينما لا ينساها غير الغربيين قط» [62] . كيف للعالم الإسلامي أن يؤمن بقيمنا حول كرامة الإنسان ودولة القانون والديمقراطية، بينما لا يرى منا إلا الاضطهاد والإذلال والاستغلال؟ هل يبدو غريبًا إذا ازداد تقبّل الناس للمتطرفين؟ بل هل يبدو عجيبًا أن يقوم بعض الناس يومًا ما بالرد ، عندما يرون أسرهم تسحقها كل مرة آلاتنا التدميرية؟ لا أحد يولد متطرفا .

وعلى الرغم من كل ذلك.. فإن المودة وكرم الضيافة، التي لا تزال تقدم للزوار من الغرب في بلاد المشرق العربي، غاية في الرفعة والسمو؛ فدون أية عقبات يستطيع المرء، ليس فقط في سوريا ذات الصبغة العلمانية، وإنما أيضًا في إيران الثيوقراطية، يستطيع المرء أن يزور المعالم الدينية كالكنائس والمعابد اليهودية والمساجد؛ حيث إن معظم المسلمين يبدي احترامًا لليهودية وللمسيحية أكثر منا نحن. وعلى الرغم من رفض المسلمين للسياسة الخارجية الأمريكية .. إلا أنهم يُبدون إعجابهم بأشياء كثيرة في الغرب، حيث يفضل الشباب المسلم لبس الأحذية الرياضية الغربية (المُقَلَّدة) والجينز والتيشيرت، فهم يرغبون – مع الحفاظ على دينهم – أن يكونوا مثلنا في كثير من الأمور؛ أحرارًا وعصريين وديمقراطيين على طريقتهم، ويودون كذلك أن يحبوا أمريكا ؛ لو استطاعت أمريكا – التي كانت في يوم من الأيام الأمل الكبير المنشود للمستضعفين في الأرض– تغيير سياستها الخارجية الدموية.

إن العالم الإسلامي مغاير تمامًا للصورة التي تقدمها لنا وسائلُ الإعلام المرئية الغربية، عندما تَخرج علينا بصور مشوهة من إنتاجها لرعاع مهووسين ضد الغرب. ففي سبتمبر/أيلول 2001م ، عرضت كثير من محطات التلفاز صورًا لأطفال فلسطينيين وهم يهللون فرحين، عقب الاعتداءات على مركز التجارة العالمي ، ولكن الصور كانت مدبَّرة – وطبقًا لتقارير الصحيفة الإسرائيلية «هآرتس» Haaretz – فقد قدَّم أحدُهم للأطفال في هذه الواقعة بعض الحلويات حتى يهللوا أمام الكاميرا.[63]

لا تقوم المظاهرات «العفوية» المعادية للغرب في البلاد العربية فى الغالب ، إلا عندما ينظمها القائمون عليها تنظيمًا دقيقًا، فيتم إخراجها بشكل دقيق وبالتنسيق الكامل مع القنوات المرئية الغربية، وبمجرد إغلاق كاميرات التصوير يتم عادةً نقل «متظاهري التلفاز» إلى بيوتهم بالحافلات نفسها، التي تم شحنهم فيها إلى مكان التظاهر مع الإغداق عليهم بقليل من «البقشيش».

وعلى العكس مما هو عندنا ، فإن ظاهرة «معاداة الأجانب» لا وجود لها على الإطلاق في العالم الإسلامي. لربما نحن أكثر تفوقًا من البلدان الإسلامية اقتصاديًّا وتقنيًّا، أما إنسانيًّا فلا.. وفيما يتعلق بالإيثار والاعتزاز بالأسرة وكرم الضيافة فبإمكاننا أن نتعلم كثيرًا من المسلمين؛ ولكن هذه المودة يمكن أن تنقلب – كما حدث في العراق – إلى غضب مستعر، إذا ما أراد الغرب أن يدوس بأقدامه على حقوق المسلمين. لقد وصف «چان پول سارتر» Jean-Paul Sartre هذا الإحباط المدمر للذات في عام 1961 أثناء حرب التحرير الجزائرية بهذه الكلمات: «هذا الغضب المكبوت يدور في دائرة مغلقة، ويكون وبالاً على المستضعفين أنفسهم؛ ولكي يتخلصوا منه يبدأون بالاقتتال فيما بينهم، ثم تتناحر القبائل فيما بينها، لأنها لا تقوى على مهاجمة العدو الحقيقي ، وعلى المرء أن يثق بأن السياسة الاستعمارية ستذكي نار العداء بينهم؛ إن فيضان العنف العارم يجرف ويحطم كل الحواجز، وكما يحدث في اللعب بعصا الصيد المعقوفة «البومرنج» في أستراليا، حيث تدور العصا وتعود إلى نقطة انطلاقها؛ فالعنف يعود الآن علينا ليفتك بنا، وأما نحن فلا ندرك – باستثناء النزر اليسير – أنّ سهامنا هذه ردت إلى نحورنا ».[64]

ألا يتشابه ذلك تمامًا مع الحالة في العراق في عام 2008م؟ لقد سلبت «قوى التحالف» من العراقيين كل شيء يسمح بأن يجعلهم يتصرفون «بنبل» و«تعاون» و«طيبة» بالشكل الذي نحب أن نرى نحن أنفسنا عليه. هذا «التحالف» قوَّض للعراقيين كل مقومات دولتهم، ومرغ كرامتهم وإباءهم في التراب، ثم نشر الفتنة فيما بينهم وأشعل نارها بطريقة منهجية ، فلماذا إذًا هذا النفاق الذي يعبر به الغرب عن استغرابه بالقول أن استراتيجيته كانت ناجحة بالفعل، ولكن إحباط العراقيين هو الذي يجعلهم يتحولون أحيانًا إلى تدمير بعضهم بعضًا؟

إن مقولة «لا يمكن أن يحدث عندنا مثل هذا» هي مقولة عبثية وتثير الاشمئزاز من فرط عنصريتها ، فلو رجعنا بذاكرتنا إلى الوراء، عندما انقطع التيار الكهربائي في ولاية «نيويورك» عام 1977م ، وعندما حدث الإعصار المدمر في ولاية «نيو أورليانز» في 2005م، لوجدنا أن هذين الحدثين كانا كافيين لإطلاق عمليات نهب على نطاق جماهيري واسع، وكذلك لوقوع عمليات قتل واغتيال؛ وعليه فإن عبارة«الإنسان ذئب على أخيه الإنسان» لـ«توماس هوبس» (Thomas Hobbes) لا تنطبق على المسلمين وحدهم، وإنما تشمل اليهود والنصارى أيضًا.



الفرضية الثالثة

الإرهابيون المرتدون لعباءة الإسلام قتلة، والوصف نفسه ينطبق على القادة المتخفّين بعباءة المسيحية، الذين يشنون الحروب العدوانية المنتهكة للقانون الدولي.



إن الاعتداءات التي نفذها إرهابيون عرب منذ أواسط التسعينيات ضد المرافق الغربية تعتبر - من وجهة نظرهم - ردًّا على «عمليات النهب والقتل المنظم» المتواصلة التي يرتكبها الغرب ، لقد أودت هذه الاعتداءات – بما في ذلك الاعتداء على مركز التجارة العالمي – بحياة حوالي 5000 مدني غربي؛ وهي بلا شك مرفوضة أخلاقيًّا؛ فالغاية لا تبرر الوسيلة؛ لذلك فقد نددت جميع الحكومات الإسلامية بما فيها سوريا وإيران [65] بالاعتداءات على مركز التجارة العالمي، حتى أن حزب الله[66] وحماس [67] نددا بذلك أيضًا ، ولقد وضع الناس الورود بحزن بالغ وتأثر عميق أمام مبنى السفارة الأمريكية في كثير من الدول الإسلامية [68]؛ فالإرهابيون الذين يقتلون الأبرياء، ليسوا من المدافعين عن الحرية، ولا هم من رجال المقاومة، ولا من المجاهدين ولا الشهداء .. إنهم قتلة.

وفي الوقت ذاته ، أليس الذين يقفون خلف الحروب العدوانية غير الشرعية هم أيضا إرهابيون وقتلة ؟ إنهم قتلة لجنودهم أيضا [69].. ألا يجب على المرء عند الحديث عن 5000 غربي قتلتهم القاعدة، أن يتحدث أيضًا عن مئات آلاف من العراقيين المدنيين، الذين قتلتهم حرب جورج بوش غير الشرعية؟ ألا تنطبق المعايير القانونية، التي نسقطها على «صدام حسين» و«سلوبودان ميلوسيفيتش» و«عمر البشير»، أيضًا على رؤساء الحكومات الغربية؟ لماذا لا تجرؤ النخبة الغربية حتى على مجرد طرح السؤال حول وجوب مثول جورج بوش وتوني بلير أمام محكمة جنائية دولية بسبب حربهما على العراق المبنية على الأكاذيب؟[70] أم هل يطبق القانون الدولي على غير الغربيين فقط؟ بل لماذا لم يَمْثُلِ المنتصرون أمامِ المحكمة بسبب جرائم حروبهم؟

لقد ورد في حيثيات حكم محكمة نورمبرج لمجرمي الحرب: «إن إشعال حرب عدوانية هو أكبر جريمة دولية، كونها تختلف عن غيرها من جرائم الحرب ، بأنها تنطوي على كل شرور جرائم الحرب مجتمعة .» [71]وقد علَّق رئيس فريق الإدعاء وهو الأمريكي «روبرت جاكسون» Robert Jackson وقتها قائلاً: « يجب ألا ننسى مطلقًا أن المعيار الذي نحاكم به المتهمين اليوم سوف يكون هو المعيار الذي سيحكم به التاريخ علينا غدًا.»[72]

وكما ذكر «پيتر أوستينوف» Peter Ustinov، فإن «الحروب العدوانية هي إرهاب الأغنياء»؛ والطفل العراقي لا يرى فرقًا، بين أن يُمَزّقَ أشلاءه انتحاري «مسلم» أو قنبلة «مسيحية»؛ إن هذا الطفل يرى «جورج بوش» و«توني بلير» إرهابيين، تمامًا كما نرى نحن «بن لادن» .[73]

وغالبًا ما تبرَّر الأرقام العالية للضحايا المدنيين من جراء العمليات العسكرية بدعوى أنها «أضرار جانبية» ليست مقصودة لذاتها؛ وهذا الادعاء باطل، على الأقل إزاء القصف الجوي، الذي يروّج على أن موت المدنيين الناجم عنه هو أمر مبرر ضمنيًّا عمومًا ، ولكن الأنظمة القانونية المتطورة تعتبر ذلك نوعًا من سبق الإصرار مع الترصد[74]. أضف إلى ذلك أن معظم عمليات القصف بالقنابل غير مجدية؛ وعمليات القوات البرية هي أكثر فعالية ، ولكنهم لا يلجأون إليها ؛ لأنها توقع عددا أكبر من الضحايا في صفوف المهاجمين ؛ وهذا قد يقود بدوره إلى خسائر في أصوات الناخبين؛ ولهذا يفضلون إلقاء القنابل الانشطارية واعتبار موت المدنيين بسببها أمرًا مبررًا ضمنًا . إن إلقاء الطيار القنابل الانشطارية من قمرته الآمنة هو أجبن شكل من

أشكال إرهاب الأقوياء، وعليه فخرافة الحرب النظيفة هي أكبر كذبة صنعتها البشرية . وكما يذكر «إراسموس ڤون روتردام» Erasmus von Rotterdam فإن الحرب حلوة فقط للذين لا يذوقون مرارة مآسيها.

إن المقاومة المسلحة ضد حروب الاحتلال الخارجة على القانون الدولي لا تكون شرعية إلا إذا التزمت بالقانون الدولي الإنساني المطبق في النزاعات المسلحة . إن الهجمات الانتحارية ضد المدنيين من أتباع الأديان والمذاهب الأخرى – كما نراها يوميًّا في العراق ودول أخرى – هي إرهاب، ولا علاقة لها بالمقاومة المشروعة، ومما لا شك فيه .. فإن الاعتداءات الأكثر إثارة ضد المدنيين في العراق كانت في غالبيتها موجهة من الخارج، وهذا ما صرح به الناطق باسم القوات المتعددة الجنسيات في العراق الجنرال «كيڤن بيرجنر» Kevin Bergner بتاريخ 11/7/2007م قائلاً: «إن 80% إلى 90 % من الانتحاريين قد قدموا من خارج العراق».[75]

ولهذا لا بد من التفريق بشدة بين هذا الإرهاب ضد المدنيين الموجه من الخارج غالبًا ، والمقاومة العراقية المشروعة ، التي تجمع العراقيين بمذاهبهم كافة ضد الاحتلال الأجنبي، ولا يمكن لأحد أن يسلب من العراقيين حقهم في المقاومة، فهي حق لكل الشعوب لا يرتبط بزمان ، ولا يمكن المساس به، ومنصوص عليه في المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة . إن الغالبية العظمى من الشعب العراقي تؤيد المقاومة التي ترفض صراحةً الاعتداءات ضد المدنيين ، ولا يشارك في هذه المقاومة المسلمون من السنة والشيعة فحسب، بل أيضًا المسيحيون [76]، حتى إن عدد مقاتلي المقاومة من المسيحيين العراقيين أكثر من مقاتلي

القاعدة . كما تقاتل النساء في صفوف المقاومة العراقية المتعددة الأديان والمذاهب[77]. لماذا يستغرب البعض هذه الحقائق ؟ ماذا كنا سنفعل لو شاهدنا الدبابات المعادية في شوارعنا ؟ لماذا نعتبر مقاتلي المقاومة ، الذين يقفون بجانبنا «مقاتلون من أجل الحرية»، ونعتبر الآخرين إرهابيين؟

لقد خسر العراقيون الحرب الإعلامية منذ أمد بعيد، فهناك يوميًّا - وبشكل متواصل - حوالي 50 عملية عسكرية لقوات الاحتلال ضد المدنيين العراقيين ، وأكثر من ذلك من هجمات المقاومة على قوات الاحتلال وحلفائها[78] ؛ أما عدد العمليات الانتحارية ضد المدنيين .. فهي واحدة أو اثنتان أو ثلاث يوميًّا ، ومع ذلك .. فإن وسائل الإعلام المرئية لا تبث إلا صور هذا الإرهاب الانتحاري الفظيع الموجّه من الخارج، وكأنه نمط معركة العراقيين ضد الولايات المتحدة الأمريكية [79] . إنهم بذلك ينقلون صورة مشوهة تمامًا عن الوضع في العراق [80] ؛ فالحرب الحقيقية لا نراها، لأن البنتاجون يفرض عادةً سيطرته التامة على الإعلام في العراق المحتل ، ويستثمر تلك السيطرة إلى أقصى حدّ.

وبالتأكيد .. فإن المقاومة السلميّة كتلك التي انتهجها «المهاتما غاندي» أو «مارتن لوثر كنج» مفضلة على المقاومة المسلحة ، حتى وإن كانت المقاومة المسلحة مشروعة ، فعلى سبيل المثال حقق نبي الإسلام محمد (ص) انتصاره الباهر في الحرب الدينية بين مكة والمدينة ، عندما أدهش خصومه المكيين بظهوره مع أنصاره العزل من السلاح

أمام أبواب مكة طالبًا الدخول إلى الأماكن المقدسة [81]. إن المقاومة السلمية المنبثقة من قوة العقيدة قد تمنح المقاومة العراقية مصداقية أكبر، لكن ألَمْ يعطِ الغرب الانطباع للعالم ،على مدار قرون ، بأن القوة المتوحشة هي الوحيدة القادرة على الوصول إلى الأهداف؟

الفرضية الرابعة

المسلمون ليسوا أقل تسامحًا من اليهود والنصارى ؛ كما
كانت لهم مساهمة كبرى في الحضارة الغربية



لم يكن المسلمون هم الذين اخترعوا مصطلح «الحرب المقدسة» ، ولم يشاركوا في الحملات الصليبية تحت شعار: «الرب أراد هذا» (انظر: أوربان الثاني) Urban [82] II ، والتي قتلت أكثر من أربعة ملايين مسلم ويهودي [83]. ولم يأت من الإسلام أولئك الذين خاضوا «في الدماء حتى الركب» في القدس ، قبل أن يتوجهوا «سعداء وباكين من الغبطة» إلى قبر المسيح المخلّص ، كما يروي لنا ذلك التاريخ المعاصر [84].

لم يستعمل الإسلام في تاريخه قطُّ كلمة «مقدس» لأي حرب من الحروب ؛ فالجهاد معناه في الإسلام «بذل السعة وبذل الجهد في سبيل الله» (انظر هانس كونج[85] Hans Küng)، وأن هذا الجهد قد يعني المشاركة في حرب للدفاع عن الأرض فقط ، بل لم يرد ذكر الجهاد في القرآن الكريم قطُّ بمعنى «الحرب المقدسة» ؛ فالحروب لا تكون «مقدسة» على الإطلاق؛ بل السلام العادل هو وحده المقدس [86].

كذلك لم يكونوا مسلمين أولئك الذين ذبحوا قرابة 50 مليونًا من البشر باسم استعمار أفريقيا وآسيا، ولم يكن المسلمون هم الذين أشعلوا نار الحربين العالميتين الأولى والثانية وتسببوا في هلاك 70 مليونًا من البشر؛ وأيضًا لم يكن المسلمون، بل نحن الألمان الذين قمنا ، بخسّة، بقتل ستة ملايين مواطن يهودي من الأصدقاء والجيران في انتهاك منظّم للحضارة [87] . لا توجد حضارة في القرون الماضية أكثر عدوانية ودموية من الحضارة الغربية، ويحقُّ للمرء هنا أن يتساءل: متى شرَّف الساسة «المسيحيون» الدين المسيحي، دين المحبة الرائع؟

لا يمكن لأحد أن ينكر أن التوسع الإقليمي للممالك الإسلامية بين القرنين السابع والسابع عشر – كتوسع القوى الأوروبية في الفترة نفسها – قد تم في غالبه بالسيف، وقام المسلمون أحيانًا بمجازر

لا يمكن تبريرها، ولكن الفاتحين المسلمين لم يحاولوا بطريقة منهجية إكراه النصارى واليهود على الإسلام أو طردهم أو إبادتهم؛ عندما أعاد صلاح الدين فتح القدس بعد معركة مريرة في عام 1187م ، لم يطلب الثأر ومنح السكان المسيحيين الحرية لقاء فدية وأعفى فقراءهم منها. لقد كان التسامح مع النصارى واليهود قانون وفخر المدنية الإسلامية [88]؛ وبقيت تحت الحكم الإسلامي شعوب كاملة على دينها المسيحي أو اليهودي، بينما قامت محاكم التفتيش «المسيحية» بحرق المخالفين لدينها على أكوام الحطب.

عندما أرسى القائد المسلم طارق بن زياد في عام 711م سُفُنَهُ على شواطئ شبه جزيرة إيبريا، بدأت فترة ازدهار علمي وحضاري على مدار سبعة قرون، مازالت الحضارة الغربية تستفيد من إشعاعها إلى اليوم. ففي الأندلس ، أكثر دول أوروبا رقيًّا في ذلك الزمان ، تطوَّرَ تعايش فريد في نجاحه بين المسلمين واليهود والنصارى. وصار حال اليهود تحت الحكم الإسلامي أحسن بكثير منه تحت الحكم «المسيحي»؛ ولكن عندما فتح الملك «المسيحي» فرديناند الأراجوني 1492م في إطار إعادة السيطرة على مملكة غرناطة، آخر معقل إسلامي في إسبانيا، بدأ بمطاردة اليهود بأسلوب لا يعرف الرحمة ولا الهوادة؛ فقد قام بطرد مئات الآلاف من اليهود ، الذين كانوا يتمتعون لمئات السنين بالرفعة وحازوا أرفع المناصب، بل كانوا يعيشون مع المواطنين المسلمين في انسجام وتوافق تام.

فرَّ معظم اليهود إلى البلاد الإسلامية في محيط البحر المتوسط، ولم تبدأ الشروخ في العلاقة بين المسيحيين واليهود والمسلمين في البلاد الإسلامية إلا بفعل الاستعمار، وبشعور بعض المسلمين أن اليهود

والنصارى جزء من وحشية الاستعمار الإمبريالي الغربي، وكان للنزعة القومية في القرنين التاسع عشر والعشرين دور في ذلك، وما كانت المأساة الأرمنية إلا نتيجة للتعصب القومي وليس الديني [89].

ولم ينقل المسلمون لنا في عصر التنوير الأندلسي الكنوز المغمورة للحضارة والفلسفة الإغريقية الرومانية فحسب، بل أبدعوا أيضًا علومًا جديدة؛ حيث يعود الفضل إليهم في البدء بعلم البصريات التجريبية، واختراع الأسطرلاب ، وعلوم الفلك ومدارات الكواكب، وأجزاء مهمة من علم الطب الحديث وعلم الصيدلة. ولهذا – وإن كنا نحن الغرب لانريد أن نصدق هذا – فإننا نعيش اليوم في حضارة ، ذات صبغة يهودية ومسيحية وإسلامية.[90]



الفرضية الخامسة

حب الله وحب الغير تعاليم جوهرية في الكتاب المقدس، وهي
في القرآن الكريم مبادئ أساسية أيضًا



عند مقارنة النصوص ، يبدي لنا القرآن الكريم تسامحًا لا يقل عما هو موجود في العهدين القديم والجديد، إلا أن الإله وأنبياءه يعبرون أحيانًا بطريقة تعكس طابعًا حربيًّا .يذكر العهد القديم في سفر العدد، الإصحاحات 31، 7 و15 و17: «فَتَجَنَّدُوا عَلَى مِدْيَانَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ وَقَتَلُوا كُلَّ ذَكَر... وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «لماذا أَبْقَيْتُمْ كُلَّ أُنْثَى حَيَّةً؟... فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلاً بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا.[91]»

في العهد الجديد وبالتحديد في إنجيل متى 01،43 يُروى عن عيسى قوله مجازًا: «لاتَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا.» [92] وفي كلماته التي ألقاها على المأدبات ، صرح البروتستانتي البليغ «مارتن لوثر»: «إن المرء لا يحتاج مع الزنادقة إلى كثير سؤال وجواب، بل يهلكون على أكوام الحطب، على صاحب الدين أن يزيل الشر من جذوره، وأن يغسل يديه بدماء الأساقفة والبابا.»[93]

ولا يقل عنفًا عن ذلك ما ورد في القرآن الكريم:

﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [94]

سورة النساء،آية 98

إن المتطرفين وخطباء الكراهية في الشرق والغرب يكادون يتجاهلون دائمًا السياق التاريخي لتلك النصوص، فموسى وعيسى ومحمد لم

ينشأوا في فراغ تاريخي، بل في عالم شغوف بالحرب. وبالمناسبة ، فإن التأمل السطحي قد يظهر العهد القديم من خلال مقولاته التاريخية على أنه الأكثر دموية بين الكتب الثلاثة المقدسة، أكثر دموية من القرآن الكريم.

لكن كل عارف بالعهد القديم يعلم أن أكثر تعاليمه أهمية – بعد الوصية بحب الله والقسط – قوله: «بَلْ تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ.» (سفر اللاويين، الإصحاحان 18، 19) [95]. وكذلك الأمر عند المسيحيين، فإن حب الغير والإقساط إليهم أهم وصيتين بعد حب الله (إنجيل متى، الإصحاحات 5، 6 و10).[96]

وبالنسبة للمسلمين فإن القرآن الكريم يطلب الإحسان إلى :

﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ ﴾

(سورة النساء، آية : 36) [97]

وكذلك في الإسلام فإن الوصايا العشر لها صلاحيتها بما فيها النهي عن القتل [98]، باستثناء الوصية بيوم السبت ؛ لأن الرب لا يحتاج تبعًا لفهم الإسلام إلى يوم للراحة بعد خلق الكون [99] كما يقرر العهد القديم.وهكذا فإن القرآن الكريم يطالب «بإنسانية أكثر وبعدل أكبر» (انظر «هانس كونج» Hans Küng.)[100]

إن المعضلة الأساسية في نقاش الغرب حول القرآن الكريم تتجسد في أن الجميع يتحدثون عن القرآن ولكن لم يكلف أحدهم نفسه جهد وعناء قراءته؛ إن النصوص القرآنية ذات الطابع الحربي عنيت - كما بَيّنَ وزير الأوقاف المصري محمود زقزوق محقًا - «صراحةً بالحروب الدينية السالفة بين مكة والمدينة، أي بأهل مكة والمدينة في ذلك الوقت فقط.»[101]

ورد في القرآن الكريم:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

(سورة العنكبوت في الآية 46) [102]

رغم أن هذا الإله يسمى بالعبرية «يهوا» وبالعربية «الله» ،كما يسميه كذلك المسيحيون العرب[103]. نحن جميعًا أبناء إبراهيم. ألا يكون ذلك نوعًا من الشرك بالله، عندما يسيء اليهود والمسيحيون والمسلمون استخدام الكتاب المقدس والقرآن الكريم كأسلحة، من أجل أن يلقِّن بعضهم الآخر تصوراتهم حول هذا الإله الواحد؟

إن الإرهاب ليس من الدين بأي حال من الأحوال ، فلا يوجد إرهاب «إسلامي»، كما لم يكن الإرهاب في شمال إيرلندا يومًا ما «مسيحيًّا» أو «كاثوليكيًّا»؛ والإرهابي الذي يعتمد الوسائل الشيطانية، لا يمكنه اتخاذ الله ذريعة لأفعاله، إن الذي يوجد، إنما هو إرهاب مقنع بعباءة الإسلام، وهو لا يؤدي إلى الجنة ، مثله مثل الحروب العدوانية المقنعة

بالمسيحية أو بالديمقراطية، بل مثواه النار؛ والقول بأن العنف مشكلة دينية، إنما هو وهم يروّجه الملحدون . لقد أجرم البشر قبل وبعد ظهور الأديان، فجرائم الإبادة الجماعية للنازيين، وتلك التي نفذها الشيوعيون الصينيون والسوفييت، هي دليل مفجع على أن الإنسان هو أشرس الخلائق ، بالدين ومن دونه [104].

إن الافتتان المرعب بإرهاب الانتحاريين الحالي يرتكز على مغالطتين: الأولى منهما مغالطة بعض الساسة الغربيين، الذين مازالوا يسفكون الدم المسلم بنسبة 1 إلى 10؛ والثانية مغالطة التفسير الخاطئ للقرآن الكريم من أولئك الذين يقفون وراء الإرهاب ، ويقدمون للشباب المسلم فهمًا باطلاً، بأن ما عليهم إلا أن يفجروا أنفسهم كانتحاريين، حتى يصبحوا شهداء في سبيل الإسلام.

الفرضيّة السادسة

معاناة السياسة الغربية تجاه العالم الإسلامي
سببها الجهل المريع لأبسط الحقائق



لا يكاد أحد في الغرب يعلم أن هناك قرابة 30 كنيسة في طهران، وأن الأطفال المسيحيين يتلقون دروسهم الدينية الخاصة بهم، كما أن في طهران سبعة معابد يهودية، ويدرس قرابة 4000 طفل يهودي في مدارس يهودية خاصة بهم، وهناك قصّابون للحم اليهودي الحلال «الكوشر»، ومطاعم لمأكولات «الكوشر»، وهناك أيضًا مستشفى يهودي، تبرع لها منذ فترة قصيرة الرئيس الإيراني المشاكس محمود أحمدي نجاد [105].

ولليهود البالغ عددهم قرابة 25000 نسمة ممثلهم في البرلمان الإيراني، وللمسيحيين كذلك [109]، ولقد أصدر آية الله الخميني نفسه عام 1979م – أي بعد الثورة بوقت قصير – «فتوى» تنص على حماية اليهود، حتى أن كلمات فتواه تُقرأ في كثير من المعابد الإيرانية ، والتي يقول نصها: «إننا نحترم الأقليات الدينية، التي هي جزء من أمتنا، حيث إن الإسلام يحرم اضطهادهم.»[107]

فالعلاقات بين اليهود والفرس كانت جيدة منذ القدم، فالذي حرر اليهود عام 538 قبل الميلاد من السبي البابلي كان ملكًا فارسيًّا، اسمه «كورش الأكبر» [108]، ويسميه الكتاب المقدس: «الراعي المحبوب ومسيح الرب» [109]، وطبعًا لا يتمتع اليهود والمسيحيون «كأهل ذمة» في إيران بالحقوق والواجبات السياسية نفسها كالمسلمين؛ ولكن هل نمنح ، نحن أهل الغرب ، المسلمين حقوق المسيحيين واليهود نفسها في الحياة اليومية ؟ وهل تمنح إسرائيل مواطنيها العرب في ممارساتها اليومية الحقوق نفسها ، التي تمنحها لمواطنيها من اليهود ؟

في الحقيقة أدلى أحمدي نجاد بتصريحات مسيئة «معادية للصهيونية»

ومعادية لإسرائيل [110]، ولكن هذه المواقف العدائية، الغنية بالحمق السياسي والفقيرة إلى الفهم التاريخي، لاتجد تأييدا لها من الشعب الإيراني، حتى أن القيادة الدينية في إيران وبخت أحمدي نجاد عدة مرات بسبب هذه المواقف [111]. والواقع أن هذه التصريحات المعادية للصهيونية لا يمكن اعتبارها حقدًا على اليهود أو معاداة للسامية . إن يهودًا أرثوذكس كجماعة «ساتمار الحسيدية» هم أيضا يرفضون إقامة دولة إسرائيل قبل «قدوم المسيح»، وبذلك يتخذون موقفًا «معاديًا للصهيونية»[112].

لم يحدث على الإطلاق – سواء في إيران أو في البلاد الإسلامية الأخرى – عداء حقيقي للسامية وملاحقة واضطهاد لليهود من قبل الدولة مثلما حدث لليهود في أوروبا .لقد فرَّ خلال فترة الحكم النازي كثير من اليهود الأوروبيين عبر إيران إلى فضاء الحرية، إن اليهود في إيران مواطنون محترمون، فالمدير اليهودي للمستشفى اليهودي في إيران، «تشياماك مرساتغ»Ciamak Morsathegh، علَّق على ذلك بعبارة محرجة لأوروبا، عندما قال: «العداء للسامية ليس ظاهرة إسلامية، بل أوروبية.»[113]

هذا ليس تبريرًا للاستفزازات السيئة لأحمدي نجاد، الذي يحاول عن طريق ضوضاء السياسة الخارجية صرف الانتباه عن فشل سياسته الداخلية؛ فصحيفة «الجمهورية الإسلامية» الإيرانية المحافظة قد آخذته بحق في فبراير/شباط عام 2007م على نبرته «المسيئة» ، والتي وصفتها الجريدة بأنها وَلَّدتْ لدى الرأي العام الدولي– دون أي مبرر– «انطباعًا بالعدائية»، وطالبته أن يتوقف عن «ثرثرته وعن غوغائه» [114]. أما الملالي المسؤولون عن النظام القمعي في إيران ، فقد فقدوا –

بشكل جذري – شعبيتهم لدى الشباب الإيراني ، ولا ينظر إليهم الآن، إلا كعبء من بقايا الماضي يعيق حركة التقدم . إن حماس الثورة الدينية في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات آخذ بالانطفاء منذ أمد طويل[115].

قبل أحمدي نجاد، وطيلة ثماني سنوات، كان محمد خاتمي رئيسًا للحكومة في إيران، هذا الرئيس الذي كان منفتحًا على العالم ومستعدًّا للإصلاح، وكان مع الديمقراطية وحقوق الإنسان ويقف إلى جانب تحسين حقوق المرأة؛ ولكن الحكومة الأمريكية لم تكن راضية عنه ؛ لأنه كان مفكرًا مستقلاًّ ولم يكن دمية تابعة[116]، لذلك لم تعطه الولايات المتحدة الأمريكية الفرصة. وكان إخفاق خاتمي السياسي خارجيًّا وداخليًّا أحد الأسباب الرئيسية لامتناع فئة واسعة من الإصلاحيين ، من الطبقة الوسطى ، عن المشاركة في انتخابات عام 2005م ؛ مما أدى إلى الفوز المفاجئ لأحمدي نجاد ، وهكذا كان الغرب يُعَدُّ مسؤولاً عن صعود الديماجوجي الثرثار هذا .إن إيران ، صاحبة هذه الحضارة العظيمة وذات الشعب العريق والجدير بالحب ، تستحق حكومة أكثر انفتاحًا على العالم، وأكثر تسامحًا، وأكثر احترامًا لحقوق الإنسان، ولكن ألا ينطبق هذا على بعض الدول الغربية أيضا ؟!

إن الجهل الغربي بالعالم الإسلامي يظهر – بوضوح – في مسائل بسيطة، وأقلّ تعقيدا من المشكلة الإيرانية، وخير دليل على ذلك هو التصنيف المنتشر انتشارًا واسعًا في أوروبا للحجاب الإسلامي على أنه «رمز لاضطهاد المرأة»[117] . أما الأمريكيون فيبدون أكثر تسامحًا منا في هذه المسألة ؛ حيث وصفت وزارة العدل الأمريكية التعصب الذي يظهر من خلال منع الحجاب، بأنه «غير أمريكي ومستنكر أخلاقيًّا»[118].

أجرت الصحيفة الألمانية الأسبوعية «دي تسايت» استفتاءً من باب التسلية بشأن الحملة الصليبية من أجل أوروبا خالية من الحجاب ، وجاء فيه « ومن يسأل خمسًا من النسوة المسلمات ، اللاتي يرتدين الحجاب سوف يحصل على خمس رسائل أو إجابات مختلفة، فالأولى ترتدي حجابها إرضاءً لله؛ أما الثانية، فإنها ترتديه لأنه مناسب جدًّا لأزيائها الحديثة المشتراة من محلات H&M؛ بينما ترتدي الثالثة الحجاب للتظاهر من خلاله بأنها ليست من المتحررات؛ والرابعة ستُرجع سببه إلى عادات القرية؛ أما الخامسة فترتديه تحدّيا لأمها المتطرفة في علمانيتها ، والتي تمنعها منه [119]، وبالطبع فليس من المقبول الإكراه على ارتداء الحجاب؛ ولكن ألا ينطبق ذلك أيضًا على الإجبار على خلع الحجاب؟

فضلاً عن ذلك ، فإن النقاش الدائر حول إكراه الفتيات على الزواج، أو ختان المرأة، أو جرائم الشرف، يتضمن درجة كبيرة من الجهل، فلا يوجد نص صريح في القرآن الكريم أو في السنة النبوية [120] عن تلك الأعمال المرفوضة تمامًا والعدائية ضد المرأة، بل إن أصلها يعود إلى عصر ما قبل الإسلام الوثني ذي الصبغة الذكورية.

وتعود بعض هذه الممارسات ، كختان النساء المروّع في العصر الفرعوني، إلى عصور ضاربة في القدم بآلاف السنين، فهذا الانتهاك الوحشي لحقوق المرأة لا يمارس في بعض البلدان الإسلامية كمصر والسودان فحسب، بل وأيضا في بلدان ذات أغلبية مسيحية كأثيوبيا وكينيا ، وتكون ضحاياه - عادةً - من المسلمات والمسيحيات ويهوديات الفلاشا ومن معتنقات الأديان الأخرى، وهناك ما يُعرف للأسف بجرائم الشرف

التي تنتشر كذلك بين المسيحيين، وفي البلدان المسيحية كالبرازيل والأرجنتين وفنزويلا [121]، حتى أن معظم الحكومات الإسلامية والمسيحية تحارب بصدق هذه الجرائم وتلك العادات غير الإسلامية محاربة قانونية.

ونجد في بعض البلدان الإسلامية «تشجيعا ودعمًا للمرأة» في بعض المجالات ، أفضل مما هو عليه الحال في الغرب، ففي مصر نجد مثلاً أن 30 بالمائة من أساتذة الجامعات من النساء، بينما يصل عددهن في ألمانيا إلى 15 بالمائة فقط [122]، وفي إيران تصل نسبة الطالبات في الجامعات إلى أكثر من 60 بالمائة، لدرجة أنه تقرر وضع حصة دنيا للرجال بنسبة 30 في المائة [123]. كما أن لرئيسات الحكومات تاريخًا في البلاد الإسلامية، هو أكثر عراقة منه في الغرب.

على الرغم من كل ذلك، فهناك الكثير الذي يجب فعله في جميع البلاد الإسلامية من أجل حصول المرأة على حقوقها الكاملة ، وعلى الأخص في بلدان نقيم معها شراكة مثل السعودية وأفغانستان وكذلك إيران ، ولكن هذه ليست مشكلة الإسلام فحسب، وإنما هي مشكلة السياسة والأنظمة الاجتماعية ذات الصبغة الذكورية العقيمة . إننا نرى في الغرب أن «بيوت النساء» الخاصة والعامة، التي تنشأ لإيواء النساء اللواتي يتعرضن للضرب والأذى آخذة في الازدياد ، وهذا خير دليل على أن العنف عندنا مستشرٍ ضد النساء، حتى أنه أصبح وضعًا اجتماعيًّا مزريا، لم نستطع التغلب عليه بعد.

إن من الأفضل لنا أن نهتم بشؤوننا وندرس وضعنا بعمق ، فحتى عام 1957م كان كل رجل ألماني يستطيع بفضل «قوامته القانونية» أن يقرر

السماح لزوجته بالعمل من عدمه[124]، أما في سويسرا فقد كان الرجال هناك يرفضون حتى عام 1970م حق النساء في الانتخاب ، كما أن كلا العهدين القديم والجديد يطالبان بخضوع المرأة لإرادة الرجل (قارن سفر التكوين : الإصحاحين 3، 16 ، والرسالة إلى كورنثوس الأولى : الإصحاحين 14، 34 وما بعدهما)[125].

ومن أراد التغلب على الكراهية والتعصب ، فعليه أن يتغلب أولاً على جهله.إن لكل إنسان الحق في أن يكون له رأي خاص ، ولكن ليس لأحد التفرد بحقائق خاصة به . ما الذي يمنعنا من السفر إلى سوريا أو إلى إيران، لنكوّن رأيًا خاصًّا بنا حول هذا العالم الغريب ذي الخطر المزعوم؟ إن الطرقات في دمشق وطهران أكثر أمنًا منها في ولاية «نيويورك» أو «ديترويت»، وطبقًا لإحدى إحصاءات الأمم المتحدة، فقد وقعت عام 2006م في الولايات المتحدة الأمريكية 5.9 جريمة قتل لكل 100000 نسمة، أما في إيران فقد كانت هذه النسبة 2.93، وفي سوريا بلغت 1.4؛ إن معظم البلدان الإسلامية أكثر أمنًا من الولايات المتحدة الأمريكية ، حتى أنها أكثر أمنًا من سويسرا، التي وصلت نسبة القتل فيها إلى 2.94 جريمة لكل 100000 نسمة[126].

لماذا لا نبدأ بحوار الحضارات في إطار محيطنا الشخصي؟ لماذا لا نقيم تبادلاً للطلاب بين البلدان الإسلامية والمسيحية - وربما حتى مع إسرائيل؟ لماذا لا نفتش في روائع الأدب العربي أو في أدب الأديب الألماني «جوتهولد إفرايم ليسنج» Gotthold Ephraim Lessing[127] من عصر التنوير، الذي سرد في عمله المسرحي المعروف باسم «ناتان الحكيم» قصته المشهورة «مَثل الخاتم»، حيث يورّث فيها

أحدُ الأباء (الرب) أولادَه الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام) - الذين يُكِنّ لهم الحب نفسه - لكل واحد خاتمًا، حيث يتمتع الخاتم الأصلي بخاصية أنه يجعل صاحبه «صالحًا أمام الرب وأمام البشر»، أما الخاتمان الآخران فكانا مقلَّدين؛ وهكذا أراد الإخوة الثلاثة من أحد القضاة أن يكشف لهم عمَّن يحمل الخاتم الأصلي، فأصدر القاضي حكمًا حكيمًا، بيَّن فيه أن حامل الخاتم الأصلي هو من يستطيع أن يكسب حب الناس من حوله.

وترى المستشارة الألمانية «أنجيلا ميركل»، أن أجمل عبارة في هذه المسرحية هي التي يطلب فيها المسلمُ صلاحُ الدين من ناتانَ اليهوديَّ أن يكون صديقه [128].

ألا يمكننا جميعًا أن نتعلم من هذا المثل اليهودي السفاردي وحلمه في التنافس السلمي للأديان؟

الفرضيّة السابعة :

على الغرب معاملة العالم الإسلامي بعدالة وسخاء كما يعامل إسرائيل ؛ فالمسلمون مثل اليهود والنصارى قيمة وأهمية.



إن مزيجًا من التعالي والكراهية والجهل يدعو كثيرًا من الغربيين إلى الاعتقاد بأن الإسلام دين متعطش للدماء ؛ وبالتالي .. فإن المسلمين إرهابيون بالفطرة ومعادون للديمقراطية وللمرأة ولليهود وللمسيحيين. وهكذا رأينا صديق الرئيس الأمريكي جورج بوش ومستشاره الديني «فرانك جراهام» Frank Graham، يصف الإسلام قائلاً: «إن الدين الإسلامي هو دين منحطّ وشرّير» [129]. أما «بيل أوريلي» Bill O'Reilly الذي يعد محط إعجاب المحافظين الأمريكيين على شاشة التلفاز فقد قال عن الإسلام: «ليس بإمكاننا دائمًا التدخل في العالم الإسلامي، ما يمكننا فعله، هو أن نقصفه، حتى يصبح أثرًا بعد عين.» [130]، بينما تعلق محللة التلفاز الأمريكية «آن كولتر» Ann Coulter على الإسلام والمسلمين قائلة: «إن علينا احتلال بلادهم، وقتل قادتهم، وتحويل شعوبهم إلى المسيحية، وعلينا كذلك أن نتوقف عن التملق لهم، ونقصف سوريا لنعود بها إلى العصر الحجري، ثم ننزع سلاح إيران إلى الأبد؛» [131].. وهناك قائمة لا حصر لها لمثل هذه التصريحات.

لو تخيّل المرء للحظة أن «جراهام» و «أوريلي» و«كولتر» وضعوا في تصريحاتهم السابقة عبارة «اليهودية» بدلا من «الإسلام» و«إسرائيل»؛ بدلاً من «البلدان الإسلامية»، ألا تندلع من جراء ذلك عاصفة عاتية من الاستنكار؟ لماذا يجوز لأحدهم اتهام المسلمين ودينهم بأمور فاشية، ولا يجوز مجرد التفوه بها عن المسيحيين واليهود؟[132] يجب علينا التوقف عن شيطنة الإسلام والمسلمين ؛ فهذه النظرة ليست مخجلة فحسب، ولكنها تضر بمصالحنا أيضًا.

علاوة على ذلك ، فإن زيادة تعميق الشرخ بين الشرق والغرب يُعرِّض على المدى القريب أو البعيد أمن إسرائيل للخطر . إن الصداقة ، وليس العداء ، هي خير ضمان لأمن إسرائيل على المدى البعيد، حتى تضمن لملايينها الخمسة من اليهود البقاء والتعايش في سلام مع جيرانهم من العرب ، البالغ عددهم 300 مليون نسمة [133]. وللوصول الى هذا الهدف ، يجب على الغرب أن يقدم مساهمة عادلة ، ويجب ذلك على إسرائيل أيضا.

لم يحقق اليهود مكانتهم المعنوية من خلال الانتصارات العسكرية أو بسبب مواهبهم الكثيرة والمثيرة للإعجاب، بل حازوا على مكانتهم المعنوية وخصوصيتهم ؛ بسبب خشيتهم من الله ولحكمتهم ولإنسانيتهم ولإبداعاتهم الخلاقة، وأيضا من خلال نضالهم الطويل والشجاع بكثير من الدهاء من أجل العدالة وضد الاضطهاد ، ولعله أمر مفهوم أن تسعى إسرائيل ، بعد حصول الهولوكست ، لضمان قوتها العسكرية ، وأن تدافع عن مصالحها المشروعة بشدّة وبقسوة ؛ إلا أن الإفراط في استخدام القسوة دون العدالة هي استراتيجية مآلها الفشل، فعندما لا تقوم دولة إسرائيل إلا بالتدمير، فهي ستدمر نفسها بالنتيجة ، ويجب على إسرائيل – كما يجب كذلك على الغرب كله – الاستثمار في تحقيق العدالة بقدر الاستثمار في السلاح على الأقل.

إن معاملة الفلسطينيين الحالية لا تتوافق مع القيم الأخلاقية ولا مع خصوصية الشعب اليهودي، فكل معجب بالثقافة اليهودية لا يمكنه تجاهل حقيقة هذا التعامل.

وعلى الفلسطينيين أن يغيروا كذلك من سياستهم، فالغرب محق حين يطالبهم بالتخلي عن العنف تجاه إسرائيل، ولكن ألا يجب عليه

أيضًا، أن يطالب إسرائيل بالتخلي عن العنف تجاه الفلسطينيين؟ لقد قتل – طبقًا لبيانات منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية «بيت سليم» – في عام 2007م في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني 13 إسرائيليًّا، وفي المقابل سقط 381 من القتلى الفلسطينيين على أيدي قوات الأمن الإسرائيلية.[134]

إن المصالحة بين اليهود والعرب ممكنة، مثلما حدث في معجزة الصلح بين الألمان والفرنسيين، فهناك الكثير الذي يجمع بين اليهود والعرب سواء من الناحية الدينية أو الثقافية أو التاريخية، أكثر مما يعيه أو يدركه غالبيتهم، ولقد عبر عن ذلك بصدق رئيس إسرائيل «شمعون بيريز» قائلاً: «إنهم ينتمون بإبراهيم وموسى إلى نفس الأبوين» [135]. لقد طوردوا معًا على مر مئات السنين، ولم يحدث ذلك أثناء الحروب الصليبية أو خلال حملة إعادة السيطرة في الأندلس، وإنما طبقت حكومة فيشي الفرنسية، على سبيل المثال ، ضد اليهود قوانين التمييز العنصرية نفسها التي جربتها قبل ذلك «بنجاح» مع الجزائريين (انظر «أوليڤييه لو كور جراندميزون» Olivier Le Cour Grandmaison).[136]

تقع على عاتقنا نحن الألمان مسؤولية تاريخية تجاه إسرائيل وحقها في البقاء فيما مضى وفيما هو آت. إن للشعب اليهودي – بسبب تاريخه وبعد كل الذي مرّ عليه عبر آلاف السنين – الحق في وطن آمن في فلسطين. ولكنّ ، ولهذا السبب تحديدا ، تقع على عاتقنا أيضًا مسؤولية تاريخية تجاه الفلسطينيين، فهم يدفعون ثمن الوزر الذي تحمله ألمانيا إلى الأبد بفعلة الهولوكست، ألم يكن عالم السياسة اليهودي «ألفرد

جروسر» Alfred Grosser محقًّا ، عندما قال : «الذي يريد أن ينقض عنه أوزار هتلر، فعليه أن يدافع كذلك عن الفلسطينيين»؟[137]

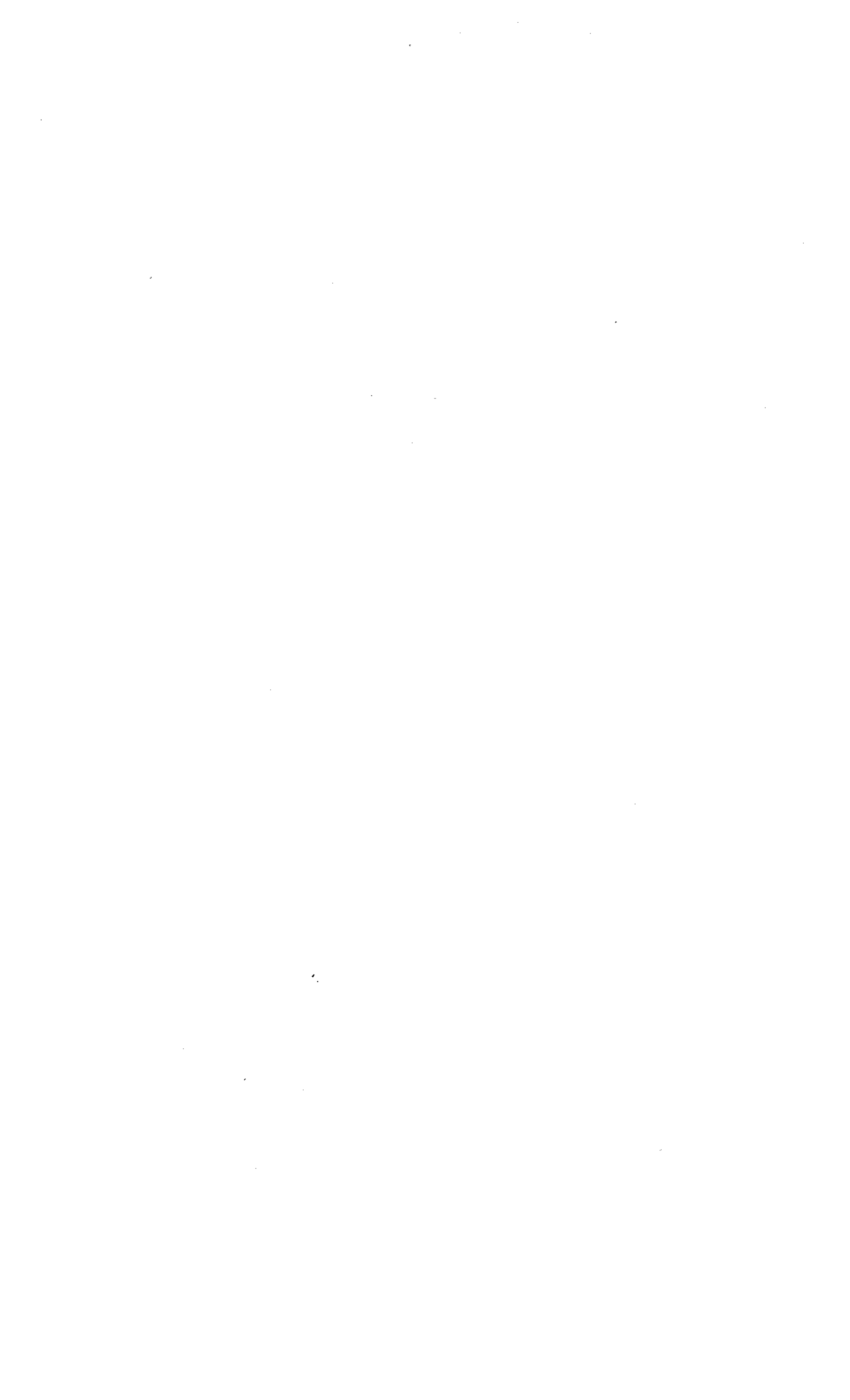
وتتلخص عبرة الهولوكست الحقيقية في وجوب عدم وقوفنا بعد اليوم متفرجين مكتوفي الأيدي عندما نرى البشر يُضطهدون وتُنزع منهم حقوقهم ويُذلّوا . لقد كان لزامًا علينا وقتها أن نتدخل لصالح اليهود عندما كانوا ضعفاء، وليس اليوم بعد أن غدوا أقوياء وأصحاب نفوذ ؛ فالشجاعة المتأخرة هي الشقيقة الانتهازية للجبن. إنها حقًّا مسرحية غريبة، عندما نرى بعض الساسة الغربيين يزدادون - عامًا بعد عام - عزمًا وبسالة في «النضال» ضد ظلم الماضي، بينما تراهم فاقدين النطق حيال ظلم اليوم[138]. إنّ السكوت على الظلم هو ظلم بحد ذاته.

إن التحدي في عصرنا الحاضر يتجسد في المساعدة على تضميد الجراح النازفة في الشرق الأوسط؛ فأوروبا مطالبة بتقديم ضمانات عسكرية لأمن إسرائيل ، ومطالبة أيضًا بتقديم ضمانات مماثلة لإقامة دولة فلسطينية قادرة على الحياة . إن علينا أن نبني الجسور وليس الجدران، وعليه .. فإن قيام دولة فلسطينية يدعمها الغرب ، وتعترف بحق إسرائيل في الوجود ضمن حدود عادلة ، وتعارض كل أشكال الإرهاب، يمثّل بداية حقيقية للشرق الأوسط ، وبداية لعلاقة شاملة ، يقيمها العالم الغربي مع العالم الإسلامي.

الوضع الحالي يجب ألاّ يستمر .. «الحرب على الإرهاب» ضد البلاد الإسلامية كأفغانستان والعراق فاقت نفقاتها حتى الآن 1.6 تريليون دولار ؛ لتصبح أكثر كلفة من حرب فيتنام[139]، فالأمريكيون ينفقون سنويًّا على الحرب في العراق وحده أكثر من 100 مليار دولار ، بينما

ينفقون أقل من خمسة مليارات لإعادة بناء الاقتصاد العراقي؛ أفلا يحق للمرء منا أن يتساءل بصدق على ضوء هذه الأرقام: ما البديل الناجح لسياسة «الحرب على الإرهاب» الحالية؟[140]

إن من واجبنا قلب هذه النسبة الرقمية، وعلينا أن نعامل العالم الإسلامي بالإنصاف والسخاء بنفسه الذي نعامل به إسرائيل .. يجب علينا أن نحرم الإرهاب الدولي من جميع ذرائعه.



الفرضيّة الثامنة

على المسلمين الاقتداء بنبيهم محمد في العمل لنشر الإسلام الداعي إلى التقدم والتسامح، وعليهم أيضًا حرمان الإرهابيين من استخدام قناع الدين.



ليس على الغرب فحسب، وإنما على العالم الإسلامي كذلك أن يغير من سلوكه تغييرًا جذريًّا ؛ فواجب المسلمين المعتدلين – مع الحفاظ على هويتهم الدينية – أن يتدخّلوا بشجاعة أكبر من أجل الحرية وسيادة القانون، ومن أجل نظام سياسي واقتصادي يطلق المواهب بدلاً من وأدها، ومن أجل نيل الرجل والمرأة حقوقهم الكاملة والمتساوية، ومن أجل حرية دينية حقيقية لليهود والمسيحيين، ويجب عليهم أن يتدخلوا كذلك من أجل إسلام التسامح والتقدم والرقي، ويمكن لملايين المسلمين في الغرب القيام بدور مهم في هذا السياق .

ويجب على المسلمين أن يترجموا رسالة نبيّهم محمد الرائعة إلى هذا العصر، وأن يواصلوا الإصلاحات الاجتماعية التي بدأ بها معرّضًا من أجلها حياته للخطر . على المسلمين أن يتخلصوا من رواسب جاهلية ما قبل الإسلام التي تعيق نهضة الحضارة الإسلامية، وعليهم أن يخلقوا ويربّوا نخبة تقود العالم الإسلامي بنجاح إلى الألفية الثالثة، فمن الممكن حقًّا أن ينسجم فكر محمد ويتلاءم واقتصاد السوق والحداثة فيما بينهم انسجامًا تامًّا.

لم يكن محمد رجعيًّا كما هو حال كثير من الساسة المسلمين في زماننا[141]، ولم يكن تواقًا مثلهم إلى الرجوع 1400 عام إلى الوراء، لقد كان ثائرًا جَسورًا وناظرًا إلى الأمام وداعيًا إلى المساواة، يمتلك الشجاعة على تحطيم قيود التقاليد؛ فالدين الإسلامي لم يكن دين الركود أو التراجع، بل دين التجديد والانبعاث . إن قليلاً من حَركيّة هذا المصلح الكبير ستعمل الكثير للعالم الإسلامي ، الغارق بعضه في الجبرية والتواكل وتقريع الذات.

لقد جاهد محمد بحماس من أجل التغيير الاجتماعي؛ ونهض من أجل الفقراء والضعفاء .ورغم امتعاض بعض أتباعه من الرجال.. إلا أنه جاهد كذلك من أجل تعزيز قوي لحقوق النساء ، اللاتي كن قبل الإسلام في معظم الحضارات تقريبًا بلا حقوق .إن الذين يضطهدون النساء لا يمكنهم الاستشهاد لا بمحمد ولا بالقرآن الكريم.

كان محمد متزوجًا بعدة نساء ، مثله مثل آبائنا اليهود الأوائل إبراهيم وموسى والملك سليمان ، الذي كانت له ألف زوجة وجارية حسبما يخبرنا الإنجيل [142]. ومن بين نساء محمد كانت هناك يهودية ونصرانية، . وقد حذّر محمد أتباعه قائلاً: «من ظلم ذميًّا، فأنا حجيجه يوم القيامة»[143]؛ وكم هو جميل لو أن بعض متطرفي المسلمين تدبروا هذه الكلمات الحكيمة للنبي محمد.

لم يكن محمد متعصبًا أو متطرفًا.. لقد أراد وقتها أن يعرّف الوثنيين العرب برب اليهود والنصارى ، وأن يهديهم إليه دونما إشراك أو تحريف؛ فالقرآن الكريم في بعض أجزائه إنما هو إعادة رواية مثيرة لأهم تعاليم الكتاب المقدس، ويذكر القرآن الكريم في هذا السياق:

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾

(سورة الأحقاف، آية 12)

إن القرآن الكريم يعتبر من وجهة النظر الإسلامية هو العهد الأخير وخاتم الرسلات السماوية.

لقد أعلن محمد مرارًا عن قيام عيسى قبل اليوم الآخر، حيث قال في حديث له: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا وَإِمَامًا عَدْلاً»[144]؛ فضلاً عن ذلك فإن عيسى ومريم يوصفان في القرآن الكريم بكل محبة على أنهما

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء، آية 91)[145]

ويقدم القرآن الكريم أنبياء اليهود الكبار وعلى رأسهم موسى، على أنهم أسوة، وكما يذكر محمود زقزوق فإن «المسلم الذي لا يؤمن بمن سبق محمدًا من الأنبياء موسى وعيسى، لا يكون مسلمًا» (انظر محمود زقزوق)[146].

إن الإرهاب الحالي هو تشويه عبثيّ لرسالة محمد، إنه جريمة بحق الإسلام ؛ فالإسلام يعني الخضوع الكامل لله كما يعني السلام، وعليه فيجب ألا يسمح العالم الإسلامي لإرهابيين متعصبين أن يلطخوا عظمة هذا الدين الذي هو مصدر فخر بقيمه الإنسانية وعدله، ولم يسىء أحدٌ إلى مكانة الإسلام خلال تاريخه الممتد على مدار 1400 عام ، أكثر مما أساء إليه الإرهاب المقنَّع بالإسلام؛ لذلك يجب على العالم الإسلامي أن ينـزع القناع الديني المزيف عن وجه الإرهاب وأن يحطم وثنيته، كما حطم محمد أوثان ما قبل الإسلام.[147]



الفرضيّة التاسعة

لا شيء يُغذّي الإرهاب أكثر من حرب الغرب على الإرهاب. الحروب العدوانية ليست أكثر الأعمال خسّة فحسب ، وإنما هي الطريقة الأقل ذكاء في مواجهة الإرهاب.

إنّ إدعاء الغرب أن على المسلمين أن يوضحوا موقفهم من العنف ، ينطبق على الغرب نفسه. علينا نحن أهل الغرب أن نزيل القناع عن رافعي لواء الحروب العدوانية . علينا أن نفضح الغباء المفرط لسياساتهم . إن الإرهاب المقنَّع بالإسلام هو عقيدة، ولا تهزم العقائد بالرصاص وإنما يجب على المرء أن يزعزع دعائم الإرهاب ويفند حججه.

في بداية عام 2001م ، أشرف الإسلام المتطرف على الانهيار، حيث تحول الحلم الذي أراد أن يحل مشكلات إيران وأفغانستان الداخلية عن طريق الإسلام المتطرف إلى كابوس مزعج ؛ فقد أدرك المسلمون بمرارة على أرض الواقع، أن الملالي المتشددين قد حولوا بلادهم إلى دول دينية بوليسية مقفرة [148]، ولهذا ترك الشعب الأفغاني -بشكل واضح - حركة طالبان بمفردها في الساحة خلال الحرب الأمريكية الخاطفة، وهذا الأمر لم يكن مألوفًا في تاريخ أفغانستان من قبل.[149]

وإزاء الإخفاق الواضح للإسلام المتطرف، لم يكن اعتداء القاعدة على نيويورك وواشنطن عملية ثأرية فقط، بل أيضًا محاولة للعودة الى الساحة بقوة .. لقد أرادوا من خلال شجاعة خبيثة وإخراج إعلامي غاية في الذكاء أن يعيدوا للمتطرفين الإسلاميين تعاطف الجماهير، وأرادوا أن يستفزوا الولايات المتحدة الأمريكية ويدفعوها إلى ردة فعل مبالغ فيها يمكنها أن تعطي متطرفي الدين الإسلامي دفعًا أكبر . ومما زاد في عبثية هذا المخطط أن صقور الإدارة الأمريكية كانوا ينتظرون بشعف مثل هذه الفرصة؛ فالقاعدة أرادت الاستفزاز، بينما كانت إدارة بوش تنتظر أن تُستفز.

ونجحت خطة القاعدة نجاحًا تامًّا؛ فالعدد الهائل من القنابل التي ألقيت على رؤوس المدنيين الأفغان المتعبين من طالبان مكّن متطرفي الدين الإسلامي الذين كانوا على أعتاب الهزيمة من الوقوف ثانية على أقدامهم .. لقد أراد الأفغان في الحقيقة التخلص من حركة طالبان والقاعدة، اللتين صنعتهما المخابرات الأمريكية والسعودية والباكستانية؛ ولكن أن يُقتل بالقصف من أجل ذلك آلاف المدنيين الأفغان، فهذا أمر يصعب عليهم فهمه.[150]

لم يكن أحد من الإرهابيين الذين هاجموا مركز التجارة العالمي من أفغانستان أو من العراق . لقد أتوا من ألمانيا والسعودية والإمارات ولبنان ومصر [151]. وكان بالإمكان التخلص من بن لادن – زعيمهم السعودي العقائدي المقيم داخل جبال الهندكوش – بأساليب أكثر ذكاء من قصف واحتلال كابول.

وهكذا استطاع متطرفو الدين الإسلامي – كما حدث تمامًا عند دخول السوڤييت أفغانستان عام 1979م – من الدعوة مجددًا على مستوى العالم للحرب ضد المحتلين الأجانب وللحرب ضد الحكومات المتسلطة ذات التوجه الغربي . إن صعود الإسلام المتطرف في العراق الذي كان دولة علمانية ، وعودة بروز قوة طالبان في أفغانستان له علاقة وثيقة بوحشية وغباء الحروب الغربية ضد الإرهاب؛ لقد حفّزت القوى المتطرفة في الغرب وفي العالم الإسلامي بعضها بعضًا ، حيث إن بن لادن وأحمدي نجاد هما أفضل من يقدم لجورج بوش الذرائع الأساسية في خطبه، والعكس بالعكس فالواجب علينا أن نضع نهاية سريعة لهذا اللعبة القاتلة.

ليس للغرب السلطة القانونية في الهجوم المسلّح على الحركات الإسلامية المتطرفة في جميع أنحاء العالم، أو على المنظمات المتطرفة اليمينية منها أو اليسارية .. إنه لا يملك الحق في تحويل العالم إلى ساحة حرب مليئة بالفوضى الدموية من أجل أن يفرض تصوراته الخاصة على العالم ، فالجيوش الغربية ليس لها ما يستوجب القتال من أجله في العراق أو أفغانستان أو إيران ، وبالمقابل .. على البلدان الإسلامية أن تحلّ مشكلاتها مع المتطرفين الإسلاميين بنفسها، حيث إن مواجهة الإرهاب في الأماكن التي نشأ بها هي المهمة الأولى للقوى الوطنية هناك، ويجب ألاَّ ندعمها بقوات دولية خاصة، إلا في الحالات الاستثنائية، وبموافقة مجلس الأمن فقط.

إن الأضرار الناتجة عن مثل هذه التدخلات العسكرية الأجنبية أكبر بكثير من نفعها، حتى ولو كانت دوافعها نزيهة وإنسانية ، فالنوايا لوحدها لا تكفي ، بل يجب أن يكون الفعل نفسه نزيهًا وإنسانيًّا.

الحرب على الإرهاب لا يمكن حسمها عسكريًّا، لا في جبال الهندكوش ولا في بغداد، وإنما يتحقق الحسم في عقول وقلوب 1.4 مليار مسلم يعيشون في أصقاع الأرض كافة ويراقبون سياسة الغرب بدقة بالغة . يزداد الإرهاب نموًّا مع موت كل طفل مسلم تقتله القنابل الغربية .. إننا نغرق كل يوم، بل نغوص بعمق في مستنقع سياساتنا.

لقد أخفقت الحرب الجوية إخفاقًا ذريعًا في مكافحة الإرهاب، فرغم القصف الجوي المستمر تمكن أسامة بن لادن من الهرب إلى جبال تورا بورا، والتي كان يوجد في محيط مغاراتها صحفيون أميريكيون أكثر من عدد الجنود الأمريكيين أنفسهم [152]، كما تمكن – في الوقت نفسه –

زعيم طالبان الملا عمر من اختراق صفوف القوات الأمريكية القليلة على متن دراجة نارية [153]. إن جبال تورا بورا هي الرمز الأكثر سخرية لغباء الحرب الصليبية على الإرهاب، حتى أن «سيرفانتس» Cervantes مبدع «دون كيشوت» Don Quijote ما كان ليجد نهاية هزلية أشد غرابة من هذا المشهد لينهي به روايته.

الفرضية العاشرة

المطلوب اليوم هو فن السياسة وليس فن الحرب، وبالذات في الصراع في إيران والعراق وفلسطين .



كان رفض الرئيس الأمريكي جورج بوش التحدث مباشرة إلى مَنْ لا يحب من الساسة كعرفات والأسد وصدام وأحمدي نجاد ، وكذلك قراره تطوير استراتيجيات ، بعد تشاوره مع الرب ، لإخراج هؤلاء من مناصبهم بالقنابل ، هي من أكثر القرارات الطفولية والعبثية ، والبعيدة عن المنطق في عصرنا الحالي .[154]

وكما يقول المستشار الألماني الأسبق «هيلموت شميت» Helmut Schmidt:«إن رجل الدولة الذي يريد أن يخدم السلام عليه الحديث مع رجل الدولة على الجانب الآخر» [155]. ولم يتم حل نزاع الشرق والغرب بعد الحرب العالمية الثانية ، إلا باتباع هذا السبيل ، وذلك عندما لم يبد «رونالد ريجان» أى نوع من أنواع التعالي ، ووافق على لقاء زعماء «إمبراطورية الشر» آنذاك [156].

ومن غير الصحيح القول ، على سبيل المثال ، أن النـزاع مع إيران ليس له من بدائل سوى استراتيجية تشديد العقوبات، أو «البديل الكارثي»، ألا وهو امتلاك إيران للقنبلة النووية أو قصف إيران» (انظر «نيكولاس ساركوزي» Nicolas Sarkozy) [157]. إن البديل الحاسم عن عزل شعوب ذات حضارة عريقة - كإيران - أو رميها بصفة الشرّ، هو فقط إعادة ربطها بدائرة الشعوب المساوية لها في كل ما لها من حقوق وما عليها من واجبات. إن السبب الرئيسي الذي يجعل إيران مشكلة بالنسبة للغرب ، هو أن الغرب يعمل على تهميشها ويقطع العلاقات معها ؛ عقوبةً لها على إسقاطها لنظام الشاه ذي التوجه الغربي ، ولكن ذلك جعل الغرب يفقد القدرة على التأثير على سياقات اتخاذ القرار في إيران. إن هذا الوضع يمكن تغييره ، وهناك حكمة تقول : «إذا لم يكن بوسعك الانتصار على عدوك فعانقه»، إن أكثرية الإيرانيين تؤيد الغرب، إنها

تنتظر الغرب وتضع في الغرب أملها وليس في قنابله، التي ستقتل مرة أخرى الأبرياء أولاً، وكذلك ليس في غزو جنوده، بل في «غزو» رجال أعماله وسياحه، حتى أن الناشطة المعارضة للنظام الإيراني والحائزة على جائزة نوبل للسلام «شيرين عبادي» تطالب ،بعاطفة جياشة، بمعارضة الأعمال العسكرية؛ لأنها – كما تقول – «ستجعل جميع ما قام به الإيرانيون أصحاب الفكر الديمقراطي خلال الأعوام المنصرمة عرضة للخطر» [158].

لا يمكن حل مشكلات الشرق الأوسط المعقدة إلا بالوسائل السياسية، وأفضل حلّ هو من خلال مؤتمر طويل الأمد شبيه بـ «منظمة الأمن والتعاون في أوروبا» والمعروفة باسم OSCE [159]، على أن يشمل المنطقة كلها، ويجب أن تشارك فيه إلى جانب مجلس الأمن جميع القوى المؤثرة في المنطقة، بما فيها سوريا وإيران وإسرائيل وكذلك جميع المنتخبين ديمقراطيًّا من الفلسطينيين وقيادة المقاومة العراقية الشرعية . ولن يكون هناك حل للنزاع في العراق إلا عندما تتفاوض الولايات المتحدة الأمريكية – كما فعلت في ڤيتنام – مع قيادة المقاومة ، وليس بالطبع مع القاعدة . إن جميع أفراد قيادة المقاومة الوطنية والمعتدلين من الإسلاميين مستعدون لمثل هذه المفاوضات.

إن مقاربة الحوار الحازم والمنصف في الوقت ذاته – كما هو الحال في صراع المعسكريين الشرقي والغربي في السبعينيات والثمانينيات – هو البديل الحقيقي للحروب غير المسؤولة وللسلبية غير المسؤولة أيضًا . وستستفيد كل الأطراف من هذه المقاربة كما حصل في مشروع «منظمة الأمن والتعاون في أوروبا» المسمى OSCE. لقد جلبت هذه المقاربة لأوروبا الشرقية - بعد سنتين من المفاوضات الشاقة - جلبت

لها الحرية وحقوق الإنسان والديمقراطية والرخاء المتنامي؛ وأهدت لكل أوروبا سلامًا مستقرًا ونزعًا للسلاح، فكما ذكر وزير خارجية ألمانيا الأسبق «هانس ديتريش جينشر» Hans Dietrich Genscher قائلا : «إن من كانوا ألد الأعداء تحولوا إلى أصدقاء، دون أن تُطلق رصاصة واحدة»[160]. وهكذا يجب أن يكون هدف مؤتمر الـ OSCE في الشرق الأوسط، وربما تنشأ في الشرق الأوسط سوق اقتصادية مشتركة أو حتى أكثر من ذلك .. من كان يعتقد قبل ستين عامًا أن تتوافر إمكانة لقيام أوروبا موحدة؟ إن السياسة تحتاج إلى رؤى مستقبلية؛ خاصة في منطقة الشرق الأوسط.

في ضوء التفوق العسكري الجبار الحالي للولايات المتحدة الأمريكية، كيف يمكن تشبيه سياسة التفاوض الحازم والمنصف بـ «سياسة الاسترضاء» الضعيفة التي اتبعتها الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية ؟ إن هذا يبقى سرًّا من أسرار المحافظين الجدد . عندما تتوقف القيادة الأمريكية الحالية عن ترويج خرافات مرعبة جديدة حول البلاد الإسلامية ، وعندما تتوقف عن شق طريقها إلى المواد الخام بالقصف فذلك ليس سياسة استرضاء ، كما أنه ليس من سياسة الاسترضاء عندما تتوقف القيادة الأمريكية عن تحطيم المثل العليا لأمريكا ، تلك التي من أجلها أحب كثير من الناس أمريكا فيما مضى، ومن أجلها يمكن لهم أن يحبوها ثانيةً[161] .

أي بلد إسلامي هذا الذي يمكنه - نظرًا للقدرة النووية والتقليدية الفائقة لأمريكا وإسرائيل على توجيه الضربة الثانية - أن ينجح ولو نجاحًا ضئيلاً في مهاجمة الغرب أو إسرائيل؟ حتى بالنسبة لإيران لو كانت مسلحة نوويًّا ، وهو ما لا يُحبذ في الواقع، فستنطبق عليها القاعدة

الصغيرة للاستراتيجية النووية: «من يطلقْ أولاً يمتْ ثانيًا» . من يُرِدْ مهاجمة أمريكا وإسرائيل نوويًّا، فالأفضل له أن ينتحر سلفًا، إن أمريكا قادرة بالحساب النظري على قتل 20 مليار إنسان بأسلحتها النووية [162]، وبإمكانها إحراق جميع الـ 70 مليون إيراني ، وتحويلهم إلى رماد ثلاثمائة مرة.

إن إيران تعرف هذا، وكذلك رئيسها المتبجح، فميزانيته الدفاعية تكاد تساوي واحدًا بالمائة من الميزانية الأمريكية [163]، وعلى عكس القوى الغربية الكبرى، فإيران تقول إنها لم تهاجم منذ 150 عامًا بلدًا آخر [164]، على الرغم من أنها هُوجمت مرات عديدة، بل وبمساعدة غربية، وأنها حتى اليوم يعيش فيها أكثر من 400.000 جريح ومعاق بسبب الحرب مع العراق، منهم 50000 من ضحايا الأسلحة الكيماوية.

إن مشكلة إيران قابلة للحل، وعلى القيادة الأمريكية أن تغير موقفها وتجلس مع إيران على طاولة المفاوضات الثنائية مع القيادة الإيرانية على أعلى مستوى، أو تتحدث معها في إطار مؤتمر السلم والتعاون للشرق الأوسط . ويجب عليها أن تعرض على إيران - كما فعلت تمامًا مع كوريا الشمالية وأخيرًا مع ليبيا – ضماناتٍ أمنية جوهرية في مقابل تنازل إيران عن برنامجها النووي، وضمانات ملزمة بعدم التدخل في شؤون العراق الداخليّة.

في الواقع ، ليست فقط خطط الأسلحة النووية الإيرانية المحتملة والموجودة في الأدراج، التي يجب إلقاؤها في مزبلة التاريخ، بل ينطبق ذلك أيضًا على تلك التي تملكها الدول النووية الكبرى، وكما صرّح «رونالد ريجان» في عام 1986م، فإن جميع الأسلحة النووية، بما فيها الأمريكية، هي أسلحة لا علاقة لها ألبتة لا بالعقل ولا بالإنسانية، بل

ولا يمكن استخدامها إلا للقتل ، إن جميع هذه الأسلحة تشكل خطرًا على حضارتنا» [165] ، حتى أن «هنري كيسنجر» انضم عام 2007م إلى «هذه الرؤيا الجسورة ، والتي يتخيل فيها عالمًا خاليًا من الأسلحة النووية» . كما أن معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية تطالب بوضوح ، لا لبس فيه، بإزالة كل هذه الأسلحة، إن جميع الدول النووية الحالية تخرق بصفة دائمة هذه المعاهدة.[166]

إن الخطر الرئيسي المحيق بنا اليوم لا يكمن في سياسة الاسترضاء، إنما يكمن في أن بعض القوميين الغربيين من أصحاب استراتيجيات المقاعد الوثيرة ، الذين لا يسمحون لأحد أن يسلبهم نظرتهم الضيقة للعالم وعنصريتهم غير المعلنة، يريدون أن يسوقوا العالم إلى تلقائية حمقاء من العنف والعنف المضاد بشكل يشبه أولئك الذين قادوا العالم إلى الحرب العالمية الأولى.

إن الاستراتيجية الصحيحة تجاه العالم الإسلامي تكمن في فن الدولة وليس في فن الحرب، تماما ، وتكمن كذلك في التفاوض اليقظ والصبر الدءوب ، مثلما حصل في حلّ صراع المعسكرين الغربي والشرقي . إن نظامًا عالميًّا عادلاً هو الوحيد القادر على حرمان الإرهابيين من أرضية خصبة ينمو فيها وعليها.

وباختصار .. فإن علينا إظهار الحزم والعدل . الحزم ضد الإرهابيين والعدل تجاه العالم الإسلامي .



ملحق

عن استخدام ريع هذا الكتاب والكتب السابقة
للأغراض الإنسانية



يسألني كثيرون عن أخبار الشخصيات التي وصفتها في كتابيّ «من يبكي على عبدول وتانيا؟» Wer weint um Abdul und Tanaya? و«آندي ومروة» Andy und Marwa، وعن مشروعاتي لإنشاء بيوت للأطفال في أفغانستان والعراق من ريع هذه الكتب، وأعرض هنا التقرير المؤقت حاليًا:

من ريع كتابي «من يبكي على عبدول وتانيا؟» شيدت «جمعية دعم أفغانستان» دارًا في العاصمة كابول لإيواء مئات من الشباب والفتيات المعاقين واليتامى، ولقد تمَّ الاحتفال بافتتاحه في شهر فبراير عام 2006م، ولكن المشروع تكلف أكثر من ريع الكتاب؛ وكل من أقام بيتًا أو شيّد بناءً يعلم ذلك علم اليقين.

ولحسن الحظ ، ساعدني بعض أهل الخير الأجلاء في التمويل، وأذكر هنا مثالاً واحدًا من أمثلة كثيرة، فقد قامت إحدى فصول مدرسة «لوزين لون» الثانوية الداخلية بمدينة إكرنفوردي Eckernförde ذات مرة بالدعوة إلى مزاد علني ، تباع فيه صور رسمها التلاميذ، فبلغت حصيلة المزاد 10 آلاف يورو ، فرأيتها فكرة مشجعة للغاية.

ولأسباب أَمْنية ، لم تتحقق أُمنيتي بتأسيس دار للأطفال المشرّدين في بغداد من ريع كتاب «آندي ومروة»، ونشرع الآن في أن نشيد بهذا المال مستشفى للأطفال المصابين بمرض الإيدز بمدينة «جوما» في الكونغو، والتي كانت مستعمرة سابقة لبلجيكا، حيث عانت الكونغو تحت وطأة الاستعمار الأوروبي معاناة شديدة.

وتشاركنا في هذا العمل منظمة الإغاثة الأفريقية المعروفة باسم هيل Heal ، التي أقامت مستشفى من قبل هناك، ويحمل هذا المستشفى اسم آندي ومروة، فهو مهدىً لهما، ولتبقى حاملة لذكراهما إلى الأبد.

وأتصل تليفونيًّا بشكل دوري بعائلة آندي في مدينة تامبا Tampa بولاية فلوريدا الأمريكية، وتبكي السيدة نروما، عندما تحكي لي عن ابنها «آندي» البالغ من العمر 18 عامًا ، الذي كان جنديًا في مشاة البحرية الأمريكية ، حيث فقد حياته في 7 أبريل 2003م ببغداد ، كما أنني لا أستطيع إلا أن أبكي لبكائها.

وفي هذه الأثناء انضم والدا آندي – وهما نورما وأوسكار – إلى حركة «المحاربين القدامى من أجل السلام»، فهما يقفان مع أصدقائهما مرة في الشهر بمدينة تامبا وقفة احتجاج.. إنهم يحتجون على «الحرب الخاسرة» و«الرئيس الكاذب» ، الذي يضحي بأولادهم وبناتهم في مطاردة شبح عدو أمريكا الوهمي.

ويردد بعض المحاربين القدامي – مثل العجوز «چي ألكسندر» Jay Alexander – عبارات بسيطة مثل: «إن المسلمين بشر مثلي ومثلك، فلم يهاجمنا العراقيون ، إنما نحن الذين هاجمناهم، إننا نحن الظالمون ، ويتحتم علينا أخيرًا أن نشرع في انتهاج السلوك الديمقراطي الذي يتوقعه منا العالم.

وبما أن آندى قد وُوري الثرى في مقبرة شرفيّة بمدينة إيرلنجArlington بولاية ڤرجينيا الأمريكية، فقد قام مجهولون بتشييد نصب تذكاري إضافي ، ووضعوه قبل 3 سنوات على الخطوط الخضراء للطريق المعروف باسم S Dale Mabry Highway ، بالقرب من المدخل المؤدي إلى القاعدة الجوية بمدينة تامبا.

والنصب التذكاري لجندي مشاة القوات البحرية الأمريكية الشاب آندي ، محاط بصورة له يبلغ ارتفاعها مترا ، وأصبح هذا النصب معروفًا للجميع سواء في مدينة تامبا أو في محيطها، حتى إن كثيرًا من جنود مشاة البحرية الأمريكية الذين يمرون بهذا المكان كانوا يحيون زميلهم المتوفي تحية عسكرية.

ويأتي نورما وأوسكار كل يوم أحد بالزهور لزيارة النصب التذكاري لآندي، فهما يقومان بتنظيف صورة آندي مما هال عليها من تراب الشارع ويقضيان بضعًا من الدقائق يتذكرون فيها ابنهما، حيث يضع الناس دائمًا بجوار هذا النصب الخطابات والبطاقات والزهور وأشياء أخرى ملفتة للنظر.

وجاء جورج بوش يوم 16 فبراير 2006م لزيارة مدينة تامبا، وقبل الزيارة بوقت قليل أزيل النصب التذكاري لآندي دون سابق إعلان، وعندما أراد أوسكار أن يزور ابنه في يوم عيد الحب ويضع إكليلاً من الورد ، وجد أن النصب التذكاري قد اختفى تمامًا، فعاد إلى المنزل، وهو حزين لا يدري ماذا يفعل.

وسأل نورما وأوسكار جميع السلطات المختصة – بداية من هيئة حركة المرور حتى المسؤولين في البيت الأبيض – عمَّن يقف وراء اختفاء النصب التذكاري، ولكن الجميع أجاب بعدم ضلوعه في هذا الأمر.

ثم أخبرت بعد ذلك هيئة حركة المرور لمدينة تامبا، بأنها أزالت النصب التذكاري مع بعض لوحات الدعاية جانبًا، وأعلن «كريس كارسون»

Chris Carson المتحدث باسم هيئة المواصلات بولاية فلوريدا، طبقًا لصحيفة Times St. Petersburg قائلاً: «لقد حدث سوء فهم، حيث إننا لم نقصد إزالة النصب التذكاري عن عمد، وإنما ظهر لنا فجأة على إحدى سيارات النقل»، وطبقًا لما قاله «كريس»، فإن النصب التذكاري لآندى كان يمثل خطورة على حركة المرور، فإزالة النصب لا علاقة لها بزيارة الرئيس الأمريكي لمدينة تامبا، ولن يتم السماح مستقبلاً بإعادة بناء النصب التذكاري في مكانه الأصلي.

ولم يفهم والدا آندي اللذان تساءلا: لماذا ؟! لم يشكل النصب التذكاري منذ ثلاث سنوات أية خطورة على حركة المرور، بل ظهرت هذه الخطورة فقط قبيل زيارة الرئيس الأمريكي للمدينة، إنهما لم يستوعبا سبب إزالة نصب تذكاري لجندي ، يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا ، ضحى من أجل بلده ، بل أُلقي بالنُّصب في سلة المهملات.

وبعد موت آندي بقرابة ثلاثة أعوام ونصف، وبالتحديد في أكتوبر 2006م تمالك والدا آندي أعصابهما لفتح صندوق أمتعته ، الذي أرسلته إليهما مشاة البحرية الأمريكية منذ فترة طويلة، فوجدا فيه خطاب الوداع التالي:

«عائلتي الحبيبة، عندما تقرأون هذا الخطاب، يكون المحظور قد وقع للأسف بالفعل، أود منكم أن تعرفوا أنني قدمت أفضل ما عندي، وأعلم أنني لا زلت صغيرًا على الموت، ولكن يتحتم على بعض الناس أن يرحلوا عن هذا العالم وهم صغار، فأنا أحيا الآن في عالم أفضل، لكنني سأكون معكم دائمًا بروحي، وسوف نلتقي يومًا ما مرة أخرى، إنني أحبكم، ابنكم آندي»

لقد أصيب «ألكس وذيربي» Alex Wetherbee - قائد آندي - إصابة بالغة، أثناء اشتباك وقع في 12 سبتمبر 2004م بمحافظة الأنبار العراقية، و«ألكس» هذا ، البالغ من العمر آنذاك 27 عامًا من ولاية شيكاغو، توفي بعد أيام قليلة متأثرًا بجراحه.

كنت قد حاولت في شتاء عام 2004م الاتصال هاتفيًّا بـ«ألكس» لمدة أسابيع طويلة ، أردت أن أتحدث معه عن «آندي»، ولكن كان جرس هاتفه يرن دون مجيب، وعلمت فيما بعد السبب ، لقد أصبح قبر «ألكس وذيربي» المتواضع والكائن في المقابر الشرفية بمدينة إيرلنجتن Arlington على بُعد خطوات قليلة من قبر آندي.

أما عن مروة – التي فقدت ساقها اليمنى يوم وفاة آندي أثناء غارة أمريكية ، وفقدت كذلك أختها إسراء التي كانت ترافقها في هذا اليوم– فقد اشتريت لها بيتًا صغيرًا بمدينة الصدر الواقعة شرق بغداد، وأردت بذلك أن أنتشلها هي وعائلتها من محيط حي «سبع قصور»، وهو من أشد الأحياء فقرًا فى بغداد.

وحال مروة كحال كثير من أطفال العراق الذين لم يلتحقوا بالمدرسة، حتى أن الأطفال الآخرين يسمونها بالعرجاء؛ لأن ساقها البديلة أصبحت صغيرة جدًّا عليها، وأرى لزامًا علينا أن نأتي بها إلى ألمانيا لنجهز لها ساقًا بديلة أخرى تناسبها، ثم تتمكن بعد ذلك من الالتحاق بالمدرسة.

وبتسهيل من منظمة الهجرة العالمية(IOM) ، فقد وضعت بعض المال تحت تصرف مروة لتتمكن من فتح محل لبيع المواد الغذائية، وكان علينا أن ننقل أثاث المحل في سيارة إسعاف سرًّا إلى بيت مروة؛ لأن

جيش المهدي بقيادة مقتدى الصدر يحكم قبضته في السيطرة على مدينة الصدر، حيث تسكن مروة؛ وكان سوء الحظ حليف أسرة مروة، فقد غرق الأخ الأكبر لمروة في نهر الفرات، وأصبحت الابتسامة، التي لم تكن تفارق محيّا والدة مروة السيدة فليحة، من الأشياء النادرة.

أما عن عبدول الذي وصفتُه في كتابي «من يبكي على عبدول وتانيا؟»، فهو على ما يرام. وبفعل عمليات جراحية ، لا حصر لها أنقذ أطباء مستشفى مدينة تبونجن Tübingen بألمانيا حياة الشاب عبدول، البالغ من العمر عشرين عاما، والذي كان راقدًا على سرير الموت في عام 1984م بمدينة بيشاور الباكستانية من جراء حروق بالغة أصابته، ويعيش عبدول الآن في مدينة «مهتار علم» الواقعة في جنوب شرق العاصمة كابول، ولعبدول ثلاثة أولاد من الذكور، وثلاث من الإناث يفخر بهم جميعًا كأب.

وفي الأعوام الأخيرة ، تقوم «جمعية دعم أفغانستان» بتحويل مبلغ قليل من المال لعبدول بشكل دوري، من فوائد حساب خاص به، أعددناه له دون علمه، ويقوم بذلك الأستاذ «برند دومرس» Bernd Domres، وهو أستاذ جراحة الحوادث بجامعة تبونج الألمانية. وقد أمر الأستاذ «دومرس» بنقل عبدول في عام 1984م بطائرة الإنقاذ الألمانية من طراز جيت ، في رحلة محفوفة بالمخاطر من مدينة بيشاور إلى ألمانيا.

ويكتسب عبدول اليوم رزقه من عائد محل صغير ، يمكن للإنسان أن يشترى منه كل ما يريد، ويكاد منزل عبدول الصغير أن تنهار أركانه بسبب كثرة أولاده، لذلك حولنا له المبلغ الأكبر من حسابه الخاص به، حتى يتمكن في النهاية من أن يتوسع في داره وفي تجارته.

وبعد ذلك بفترة قصيرة ، اتصل بي عبدول بسعادة غامرة لكي يشكرني ببعض الكلمات الألمانية الركيكة التي تعلمها أثناء تواجده في مستشفى تبونجن، وبعدما أمطرني بسيل من الكلمات الألمانية غير المترابطة، التي لم أفهم منها إلا كلمات مثل «شكرًا» و «تحياتي للأسرة»، انعقد لساني من شدة الفرح.

أما عن حال تانيا، التي كنت قد زرتها قبيل اندلاع الحرب في عام 2003م، فلا يسر كثيرًا، تبلغ تانيا من العمر حاليًا عشرين عامًا وتعيش مع عمتها في حي الكرخ ببغداد، وتوقفت تانيا عن الذهاب إلى المدرسة؛ لأن الطريق إليها غاية في الخطورة، ولقد وضعت تحت تصرفها كذلك مبلغًا من المال، لكي تتمكن من إقامة دكان لها.

في مطلع عام 2007م ، تمكنّا من تجديد منزل عمتها المتهدم في حى الفضل في جانب الرصافة ، إلا أن تانيا وعمتها كان عليهما أن يغادرا المنزل ، الذي أعيد تجديده حديثًا والانتقال إلى جانب الكرخ، بسبب معارك طاحنة كانت تدور حول حى الفضل؛ لذلك يبقى المنزل المجدد خاويًا على عروشه الآن . لقد باتت رؤى تانيا عن المستقبل مظلمة، فهي فقيرة ولا تحمل أيَّ مؤهل، وقضي إلى الأبد على حلمها في أن تصبح طبيبة.

لقد زرت الدكتورة عقيلة الهاشمي أثناء زيارتي للعراق في عام 2002م، بناءً على نصيحة ملحة من السيد «هانز جراف ڤون سپونيك» Hans Graf von Sponeck، المدير السابق لبرنامج الأمم المتحدة «النفط مقابل الغذاء»، وكانت الدكتورة عقيلة آنذاك رئيسة قسم في وزارة الخارجية العراقية، وبواسطتها استطعت - في أيام حكم صدام حسين - أن أزور المدارس والمستشفيات ودار رعاية الأطفال.

فضلاً عن ذلك ، أردت الحصول على إذن بزيارة أحد السجون العراقية والتحدث مع الطلاب، فطلبت مني الدكتورة عقيلة ورجتني أن أزور كذلك المقابر العراقية ومقابر الأطفال ، الذين تسبب الغرب في وفاتهم، لتطبيقه حصار الأمم المتحدة المفروض على العراق، وعلى الرغم من أن عقيلة الهاشمي امرأة حادة الطباع، إلا أنها كانت متعاونة دائمًا.

وصنعت عقيلة الهاشمي بعد الغزو الأمريكي في ربيع 2003م لنفسها نجاحًا رائعًا، فعلى الرغم من أنها تنتمي إلى حزب البعث، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية عينتها عضوًا في «مجلس الحكم»، ولكنها دفعت ثمن هذا النجاح غاليًا، فقد اغتالها ستة من الرجال المسلحين أمام المارَّة، بعد تعيينها بأسابيع قليلة، حيث تمكن القتلة من الفرار دون معرفة هويتهم.

وكانت عقيلة الهاشمي قد تحدثت هاتفيًّا قبل اغتيالها بيومين اثنين إلى أحد السفراء العراقيين السابقين في سوريا، وأخبرته أنها تنوي الاستقالة من منصبها الحكومي في الأسبوع التالي؛ فلم تقبل عائلتها أن تتعاون عقيلة مع الأمريكان، ولكن القرار جاء متأخرًا جدًّا.

لقد قضيت أنا وابنى «فريدريك» اليوم الأخير من زيارتنا للعراق عام 2002م مع السيدة مارجريت حسن، وكان فريدريك يبلغ من العمر آنذاك 19عامًا.. مارجريت حسن هي المسؤول الأيرلندي لمنظمة كير الدولية، حيث سافرنا في سيارتها VW-Kombi من العاصمة بغداد إلى مدينة خانقين بمحافظة ديالى.

وكانت مارجريت حسن تجلس على عجلة القيادة، فهي سيدة قصيرة القامة وجادة، ذات طبيعة وروح إنجليزية جافة، نام فريدريك في

الكرسي الخلفي للسيارة نومًا هادئًا مطمئنًا، فقد كان مجهدًا للغاية بعد نقاش طويل له مع أصدقائه الجدد من العراقيين ليلة أمس، وتمكنت مارجريت من أن تقدم لي بهدوء بعض النصائح القيمة لتربية الشباب، الذين لا يقبلون بشغف على الدراسة، حيث كان فريدرك قد أنهى لتوه شهادة الثانوية بعد مثابرة وصبر جميل معه.

كانت مارجريت متزوجة من عراقي ، وتحمل الجنسية الأيرلندية والبريطانية ، وكذلك الجنسية العراقية، فهي تعيش في العراق منذ 30 عامًا، ومارجريت من أشد المعارضين لحصار الأمم المتحدة على العراق، حيث كانت تنتقد بمرارة شديدة سياسة الحكومة البريطانية تجاه العراق ، والتي وسمتها بـ «غير الإنسانية»، حتى إنها كانت ترى أن مجرد التفكير في الحرب ضد العراق يعد جريمة.

وتحت قيادة مارجريت حسن شيدت منظمة كير الدولية في مدينة خانقين محطة لتصفية مياه الشرب، وكان عليها أن تناضل أسابيع طويلة للسماح بإدخال بعض مواسير البلاستيك التي تحتاجها محطة تصفية المياه، حيث زعمت لجنة العقوبات التابعة للأمم المتحدة بأنه يمكن استخدام هذه المواسير في بناء وتجهيز أسلحة الدمار الشامل.

وظلت مارجريت بعد اندلاع الحرب باقية في العراق، وقالت ما نصه: «سوف أبقى مع أهلي، فهم أبناء موطني»؛ وبالتحديد في يوم 19 أكتوبر عام 2004 اختطف مجهولون مارجريت، وهي في طريقها إلى العمل ببغداد، وعلى الرغم من أن القاعدة أيدت أكثر من مرة صراحةً إطلاق سراحها، إلا أن الخاطفين قتلوها يوم 16 نوفمبر 2004م، وبقي الخاطفون مجهولين إلى يومنا هذا.

لقد قدمت مارجريت للعراقيين كل شيء تملكه، حتى حياتها، وأعتقد أن مَنْ تعرَّف على هذه السيدة الرائعة، أصابه الحزن والأسى، عند سماعه نبأ قتلها.

لقد مات كذلك «كريس كلين بكمان» Chris Klein-Beekmann، الذي قام بإعداد زيارتي لبغداد في مطلع عام 2003م.. كان «كريس» يبلغ من العمر 31 عامًا ، ويعمل مديرًا لبرنامج اليونيسيف، وهذا الرجل السعيد الذي كنت قد أجريت معه محادثات هاتفية جريئة ورائعة في إجازة أعياد الميلاد عام 2002، قضى نحبه في 19 أغسطس عام 2003 أثناء الهجوم على المقر الرئيسي للأمم المتحدة في بغداد، ومات معه 21 آخرون.. لن أنسى طيلة حياتي هذا الشاب الكندي الظريف.

ولم يلق المصير السابق نفسه جميع من وصفت في كتابي هذا ، فالمسؤولون الفعليون عن حرب العراق، وهما جورج دبليو بوش وتوني بلير لا يزالان يسعدان بوافر الصحة ويستمتعان بحياتهما، وقد نقرأ قريبًا مذكراتهما عن الحرب، أو نشاهد هاتين الشخصيتين «المناضلتين من أجل الحضارة والمدنية الغربية»، نشاهدهما من حين لآخر في التلفاز، وهما يلعبان الجولف، وللأسف يدفع الآن ثمن حربهما الدامية آخرون غيرهما، وسوف يُذكر في يوم ما، بأنه لم يجرؤ رئيس دولة من دول الغرب أن يوجه هذا السؤال التالي إلى الرئيس الأمريكي أثناء فترة حكمه: «لماذا تقتل يا جورج بوش؟»

ثبت الهوامش والمراجع



أولاً : تمهيد

إن ثبت المراجع بمثل هذا الحجم الكبير من شأنه أن يوفر للقارئ إمكانية التأكد من أقوالي وشهادات من تحدثوا إليَّ في العراق، وتجعله قادراً على تكوين رأي ذاتي، ومن الممكن أن يصل القارئ في بعض الحالات عند قراءة بعض ما توصلت إليه إلى نتائج أخرى غير التي توصلت إليها، وهذا هو لب المناقشات الحرة، فقد وصلت إلى هدفي عندما فكرت قليلاً في براهين ورؤى العالم الإسلامي التي ترد في التقارير الإخبارية اليومية المفزعة ذات النظرة الأحادية.

وكان من الصعب على وجه الخصوص التأكد من الصور وخاصة فحص الصور التي تنتمي إلى عصر الاستعمار الأوروبي، وما زالت قوى استعمارية سابقة كفرنسا مثلاً ترفض حتى اليوم فتح أرشيفها للدول التي كانت محتلة في ذلك الوقت، كما تم أيضاً إساءة استخدام صور الاستعمار من الجانب الأوروبي والعربي كسلاح إعلامي.

ولهذا السبب عرضت الصور التي وجدتها للفحص على عديد من خبراء الاستعمار الألمان والفرنسيين والعرب، وعلى خبراء في التحقق من الصور- حيث كان هذا ممكناً في الجزائر - وعلى شهود كانوا معاصرين لأحداث الصور أيضاً، وقد قمت باستبعاد تلك الصور التي شكك الخبراء في مصداقيتها.

ولكن على الرغم من كل ذلك وبسبب قدم الصور والظروف السيئة التي تم التقاطها فيها، فإن أحداً لا يستطيع أن يضمن صحة كل صورة ضماناً مطلقاً، وهذا ينطبق على تلك الصور التي أخذت من المتاحف الرسمية أو استخدمت في كتب أخرى، وعلى كل من ينشر صوراً يصل عمرها إلى ثمانين سنة أن يضع في حسبانه وجود شك ولو كان بسيطاً.

ولكن ما أستطيع تأكيده هو أني بذلت جهداً كبيراً، لأفحص مادة هذه الصور الخاصة بذلك الوقت بكل عناية ممكنة، كما أنه تم التخلي عن تلك الصور الخاصة بالعراق، والتي لم يتضح مصدرها بشكل جلي، كما أني رفضت نشر صور من تحدثوا إليَّ وعائلاتهم لكي لا أعرضهم لأي خطر قد يلحق بهم.

كما أود أن أؤكد على حيادية اختياري للصور، فهناك مذابح فظيعة قام بها «مسلمون»، وهي بدورها ليست بأقل فظاعة مما ارتكبته البربرية «المسيحية»، ولأن الأخيرة يتم التكتم عليها في الغرب، فقد نشرت في كتابي بالدرجة الأولى صوراً لأعمال العنف الغربي ؛ لأني أودّ أن أظهر للغرب المتطاول ولو لمرة واحدة صورة العالم من وجهة نظر المسلمين.

ثانيًا : هوامش ومراجع مقدمة الكاتب

1- بورشارت، أولريكة؛ فيلدر، تيم: 57 تونس، (أزمة بنـزرت)، في: قسم العلوم الاجتماعية، جامعة هامبورج، مجلة رسمية، انظر:

uni-hamburg.de..www.sozialwiss

2- غادر الجيش السوفييتي أفغانستان في فبراير 1989م، وظلت حكومة أفغانستان الشيوعية المدعومة منه سياسيًّا وعسكريًّا موجودة حتى عام 1992م، وخاصة عندما أعلن الغرب تخليه تماماً عن دعم المجاهدين الأفغان.

انظر كذلك: كولبل، سوزانا؛ إلاو، أولاف: المحبوبة، البلد الكئيبة، ميونيخ، 2007م، صـ 24: «يبدو أن الأمريكان لم يأخذوا عبرة كافية من تاريخ أفغانستان ولا من فشل السوفييت هناك، فهم الآن واقعون في فخ الهندكوش ومعهم القوات متعددة الجنسيات من حلفائهم، وكما ينص قول مأثور في آسيا:« إن الله إذا أراد أن يعاقب أمة ما فإنه يجعلها تغزو أفغانستان».

3- بوشمان، جورج: الأقوال المأثورة. كنز الأقوال المأثورة للشعب الألماني. برلين، 1898م، حوله إلى عملٍ يقرأ على الحاسب الآلي «لارس أرونسون» و«لين كوبينج» 2005م:

An nescis, mi fili, quantilla prudentia mundus regatur?

4- أيلاند، إيفان؛ لي دانييل: The Rogue Island, Foreign Policy State Doctrine and National Defence.

www.cato.org/ ،2001 مارس 29 ،، Briefing 65, In: Cato Institute pubs/fpbriefs/fpb65.pdf .

5- تتم الإحالة هنا إلى الفيلم الوثائقي المؤثر والمنشور مؤخراً «مقابلة مع المقاومة»، فقد قام المؤلفان مولي بينجهام وستيف كونورس ومصوران صحفيان بعمل مقابلات في حي الأعظمية في عامي 2003م و2004م، ذلك الحي النموذجي في هدوئه وتوسطه لبغداد في ذلك الوقت، وقددحضوا تصورات غالبية الأمريكان الخاطئة عن المقاومة العراقية بالكلمات التالية، وهذا نص ماقالوه باللغة الانجليزية:

«The first [mistake is that,] the majority of violence is against civilians, and [that] they are on the brink of a huge civil war, and the Sunnis and Shias hate each other [...]. The next one is that the people fighting against us are some radical fringe group who can be isolated and killed.» [...] The insurgency is mostly

Iraq's Insurgents :انظر كذلك: ويلسون، إيميلي».ordinary Iraqis

www. ،2008م 13 يناير ،AlterNet في: ،.Are Ordinary People

The Myth of:وقارن ايضاً: جميل، دهر ، alternet.org/story/72984

International Socialist Review, :في ،Sectarian Violence in Iraq

57،، يناير/فيراير 2008م:

www.isreview.org/issues/57/rep-sectarianis m.shtml:

«Soon after arriving in Iraq in November 2003, I learned that it was considered rude and socially graceless to enquire after an individual's sect. If in ignorance or under compulsion I did pose the question the most common answer I would receive was, ›I am Muslim, and I am Iraqi.‹ On occasion there were more telling responses like the one I received from an older woman, ›My mother is a Shia and my father a Sunni, so can you tell which halfof me is which?»

The accompanying smile said it all. Large mixed neighborhoods were the norm in Baghdad. Sunni and Shia prayed in one another's mosques. Secular Iraqis could form lifelong associations with others without overt concern about their

«.chosen sect

6- إيبرهارت، فولفرام؛ طاهري، أمير: «عمل جبان»، الجزائر؛ القاعدة تفتح جبهة جديدة في شمال أفريقيا ولا تزال بذلك تقترب من أوروبا شيئاً فشيئاً، في: فوكس، 16 أبريل 2007م، صـ 200.

ثالثًا : هوامش ومراجع الفصل الأول

(الرحلة إلى الرمادي) :

1- لانجر، جاري، What They're Saying in Anbar Province.،

في: نيويورك تايمز، 16 سبتمبر، 2007م، http://www.nytimes.com/2007/09/16/opinion/16langer.html:

«In a survey conducted Aug. 17-24 for ABC News, the BBC and NHK, [...]. Seventy-six percent [in Anbar] said the United States should withdraw now [...] every Anbar respondent in our survey opposed the presence of American forces in Iraq – 69 percent ›strongly‹ so. Every Anbar respondent called attacks on coalition forces ›acceptable‹, far more than anywhere else in the country. All called the United States-led invasion wrong, including 68 percent who called it ›absolutely wrong‹. [...] respondents were deeply dissatisfied with the availability of electricity and fuel, jobs, medical care and a host of other elements of daily life.»

وكما يثور شك حول التقارير المعتادة هذه الأيام عن الحالة الأمنية في محافظة الأنبار التي يقال إنها مستقرة، توضح أرقام الضحايا: حسب بيانات جمعية الهلال الأحمر العراقية نجد أعداد الضحايا المدنيين من محافظة الأنبار في الفترة من أغسطس إلى سبتمبر 2007م كما يلي: (قنابل واعتقالات وإطلاق نار كثيف وسيارات مفخخة وقنابل في الطرق وغيرها): أغسطس 2007م: 190 قتيل مدني، سبتمبر 2007م: 240، أكتوبر 2007م: 245، نوفمبر 2007م: 230، ديسمبر 2007م: 250، وحسب بيانات جمعية الهلال الأحمر العراقية فلم يدرج هنا:

- الضحايا الذين قامت أسرهم بدفنهم دون إعلام الجهات الصحية بذلك.

• الضحايا الذين اختطفوا من الأنبار ووجدت جثثهم في محافظات أخرى، وخاصة في بغداد.

• الضحايا الذين أتوا من محافظات أخرى، الذين يسافرون على الطرق السريعة، والذين قتلوا في الأنبار.

• أعضاء القاعدة وغيرهم من الجماعات المسلحة، الذين قتلتهم القوات الأميركية في مناطق صحراوية نائية من الأنبار ودفنتهم هناك

• الضحايا داخل الجيش والشرطة العراقيين.

2- جميل، داهر، انظر في الموضع السابق:

If [the] U.S. leaves Iraq, the violent sectarianism between the Sunni and Shia will worsen. This is what Republicans and Democrats alike will have us believe. This key piece of rhetoric is used to justify the continuance of the occupation of Iraq.

3- وفي تعارض جزئي مع وجهة نظر محدثيّ: تقرير بيكر-هاميلتون 2006، صـ 18:

Leading Kurdish politicians [...] preferred to be within a democratic, federal Iraqi state because an independent Kurdistan would be surrounded by hostile neighbors. However, a majority of Kurds favor independence.

4- دون مؤلف: إعلان كابول للتنديد بالعمليات الانتحارية واعتبارها جريمة ضد الإنسانية والإسلام. في: الجمعية الخيرية «كونراد أديناور»، كابول، 12 مايو 2007م، انظر:

www.kas.de/proj/home/pub/80/1/year-2007/dokument_id-11110/index.html

يعرف القرآن الكريم الشهادة في سورة التوبة، آية 111، ونصها:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

وهذا يعني أن المقاتل الذي يهاجم عدوه في حالة الحرب فيقتله أو يجرح في هذه الحالة فيموت، فهذه هي الحالة الوحيدة التي تُفهم في الإسلام على أنها «شهادة»، وهذه الطريقة في الموت، أي الموت بيد العدو، لتختلف اختلافاً جليًّا عن قتل النفس أو تفجير الإنسان نفسه بالألغام أو المواد المتفجرة الأخرى، والقرآن الكريم يدين قتل النفس بهذه الطريقة، وذلك بنص الآية رقم 195 من سورة البقرة:

﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

وبهذا يمثل قتل النفس أو الانتحار جريمة ضد الإنسانية وضد الإسلام نفسه»...!!» انظر: ترجمة معاني القرآن الكريم، هيننج/هوفمان 2003: سورة البقرة آية 195، وسورة التوبة آية 111:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

وانظر أيضاً: جروسمان، داڤيد، 2006م، صـ 122:«اليوم وخاصة في هذا المكان لن ينسى أحد أن سامسون بكل تأكيد أول منتحر...، وعلى الرغم من أن ظروف جريمته كانت مختلفة عن الجرائم التي تحدث اليوم في إسرائيل، فإنه من المتصور أن هذا المبدأ - الانتقام من الأبرياء وقتلهم عن طريق الانتحار- أصبح متأصلاً في إدراك البشر، ذلك المبدأ الذي أصبح في السنوات الأخيرة مستقراً ومبرراً.

5- دون مؤلف، وانظر ما ورد في ذلك تفصيليًّا باللغة الإنجليزية ما نصه:

The Bombers: A Breakdown: Names and nationalities ofknown suicide bombers in Iraq. Newsweek online, www.wsnbc.msn.com/id/20094235/site/newsweek/: «This list contains the names and countries of 139 suicide bombers in Iraq.The bombers came from the following countries: Saudi Arabia (53), Iraq (18), Italy (8), Syria (8), Kuwait (7), Jordan (4), Libya (3), Egypt (3), Tunisia (3), Turkey (3), Belgium (2), France (2), Spain (2), Yemen (3), Lebanon (1), Morocco (1), Britain (1), Bengal (1), Sudan (1) and Unknown (18). (Source: Adapted from ›Suicide Bombers in Iraq‹ by Mohammed M. Hafez).

6- انظر Qassim, Abdul-Zahraim:

Famous Shiite Shrine in Samarra Attacked. In: Infowars.com,

2007, http://infowars.com//articles/ iraq/shrine_bombing_ يونيو shiite_shrine_in_samarra_attacked.htm.

انظر أيضاً: دون مؤلف:

Al-Maliki accuses security of involvement in mosque attack.

by DPA، في: Middle East News، 14 يونيو بدون صفحة.

7- تقرير بيكر-هاميلتون 2006، صفحة 10 وما بعدها:

«Shiite militias engaging in sectarian violence pose a substantial threat to immediate and long-term stability. These militias are diverse. Some are affiliated with the government, some are highly localized, and some are wholly outside the law. [...] The Mahdi Army, led by Moqtada al-Sadr, may number as many as 60,000 fighters. It has directly challenged U.S. and Iraqi government forces, and it is widely believed to engage in regular violence against Sunni Arab civilians. [...] As the Mahdi Army has grown in size and influence, some elements have moved beyond Sadr's control.»

انظر في هذا الموضوع أيضاً: جميل، دهر، انظر الموضع السابق:

«U.S.-backed sectarian death squads have become the foremost generator of death in Iraq, even surpassing the U.S. military machine, infamous for its capacity for industrial scale slaughter. It is no secret in Baghdad that the U.S. military would regularly cordon off pro-resistance areas like the al-Adhamiyah neighborhood of Baghdad and allow ›Iraqi police‹ and ›Iraqi checkpoints to carry out abductions and assassinations in the army‹ personnel, masked in black balaclavas, through their neighborhood.»

دون مؤلف: Press Conference with

Press Conference with Brigadier General Kevin Bergner, spokesman and deputy chief of staff for strategic effects, Multinational Force Iraq; Topic: Operational update; Location. In: The Combined Press Information Center, Baghdad, Iraq.

Federal News Service، 11 يوليو 2007، بدون صفحة «Al Qaeda :. in Iraq is a network led and fuelled by foreign extremists who envision a new caliphate [...] a Taliban-like state [...]. In recent months, more and more Iraqis have begun to reject its extremist ideology and take a stand against them. [...] Approximately 60 to 80 foreigners are lured to Iraq in any given month by al Qaeda. – Approximately 70 percent transit through Syria [...]. Between 80 and 90 percent of the suicide attacks in Iraq are being carried out by foreign-born al Qaeda terrorists [...].»

انظر أيضاً: روب، ماتياس، مجاهدو العراق السعوديون، في: مجلة فرانكفورتر ألجماينه، 23 نوفمبر 2007م، صـ 6.

8- دون مؤلف: :القاعدة تعترف بموت الزرقاوي، في: موقع مجلة شبيجل، انظر: www.spiegel.de/politik/ausland/0,1518,420188,00.html.

9- Rioux,. Jean-Pierre. (1992) صـ 95.

10- فيشتر، أولريش، صور من السلام الخفي. في: موقع مجلة شبيجل، :http://www.spiegel.de/politik/ausland/0,1518,498087,00.html

«استمرت المعركة المزعومة باسم «Donkey Island» (في الرمادي بمحافظة الأنبار) 23 ساعة، فقد أجبر الأمريكان العدو على حرب

الخنادق وحاصروه في وادي النهر، فسقط اثنان منهم وقُتل 35 من الإرهابيين».

11- دون مؤلف: تاريخ أبو غريب تاريخ للحرب. في: دي فيلت، 11 مايو 2004م، صـ 6: «نهاية مايو وبداية يونيه: اللواء رقم 800 في الشرطة العسكرية يقرر ضوابط جديدة، من شأنها أن تنظم التعامل مع المعتقلين العراقيين لتنفيذ عقوبة أو من أجل التحقيق معهم، وفي ذلك الوقت كان يوجد ما بين 7000 إلى 8000 معتقل في معسكر بوكا، وذكر تقرير عسكري أن أخلاق الفروسية أصبحت في تناقص مستمر».

12- دون مؤلف:

Turkey: Abu-Ghurayb torture victim tells reporters about his prison ordeal. In: BBC Monitoring Europe, supplied by BBC Worldwide Monitoring, NTV Television, Istanbul, Transcript,

25 مارس 2006 :

[...] Haj Ali al-Qaysi, one of the victims in the photographs that disclosed the scandal in Abu-Ghurayb prison and a person who has become the symbol of the torture in Iraq, has said that there are 300,000 prisoners in the US prisons in Iraq. [...] He said: «The conditions in the prisons in Al-Fallujah and Al-Aqr are far worse than the ones in Abu-Ghurayb. [...] The US Army has 26 prisons in the country [...]. We do not have official figures on the number of people in the other 150 prisons. [...] Our women are still being raped and our men are still being insulted. [...] When I told them that the treatment of my hand was not finished, the US soldiers crushed it with their boots and told me: This is a dose of US aspirin. [...] After so much torture, they simply said: It was a misunderstanding. [...] the United States wants to trigger a civil war in that country. It will never succeed‹, Qaysi stressed, ›because there is an all out resistance against the occupiers and the collaborators. There

وانظر بالتفصيل في هذا الخصوص أيضاً: are no ethnic clashes».

Report: War :(ناشر) Global Policy Forum and partners

2007 http:// يناير ،and Occupation, 4: Detention and Prisons globalpolicy.org/security/issues/iraq/occupation/report/detention.htm

وانظر كذلك دون مؤلف:

More Than 250 Iraqi Torture Victims come Forward to Sue CACI

for Participatingشركة أمريكية عسكرية خاصة

in Conspiracy to Torture, According to Legal Team. In: PR

www6.lexisnexis.com/publisher/End ،2007 ديسمبر Newswire, User?Action=UserDisplayFullDocument&orgId=574&topicId=100018896&docId=l:718080097&start=6

وانظر أيضاً:

Cole, Juan: Former US interrogator recounts torture cases

ديسمبر in Afghanistan and Iraq. In: Informed Comment, 10 2007,www.juancole.com/2007/12/former-us-interrogator-recountstorture.html

13- دون مؤلف:

Testimony from American jails in Iraq. The activity: women under occupation. In: Arab Women Network, World Social

I'm a young lady from Iraq ينايرForum 2007, Nairobi, 2007 [...]. My story starts in the night of 13/1/2004. [...] I heard screams and voices of planes and military vehicles [...] they opened the front door with bombs and entered. [...] they have taken us after putting our heads in black bags [...] they took

me to the investigation room. [...] The nights were even harder as the soldiers get drunk and start turning the lights on and off, and they put water over us and leave their dogs to scare us, in this night they bring men from their rooms and raped them in front of our eyes as if saying see what's happening to your men!

They took me to the interrogation room and separated me from my mother, who was also kept along with me in the same prison. We were kept apart for twenty days then we were allowed to meet but without physical contact. My mother was told that if she does not confess, they would rape her daughter. I was led out of the interrogation room with a black hood over my head and I was made to hear a gun shot. I was told that my mother was shot; they played the same game with my mother. There is a report by DAINI/DA،YNI, on the torture in US-prisons.

وانظر التقرير التالي لنفس المرأة الشابة ، الذي يحكي بكل دقة في حضرة المؤلف (مقتطفات):

The daughter of a well known Iraqi politician, her name is Zimam Istabrah, was with me in prison in a small cell, it was the airport prison. Music was kept at a loud level and water was regularly thrown into the cells. The Iraqi warden told me that the US troops take drugs and drink alcohol. They forced me to watch the rape of one young Iraqi prisoner who was in the company of an elder man. In the room, where the rape took place there was a dining table and a computer table. The prisoner was thrown and kept down by his arms on one of these tables by an American soldier, while the other penetrated him from behind. The men were both stripped naked. The group was led by a soldier of Egyptian origin. I was pulled by my hair and forced to watch this scene. Zimam saw another case of rape.

I was also threatened with rape. The Iraqi leadership was kept

in the same prison.« I represent the Iraqi women's prisoner association. I myself was in prison, therefore I missed my final exams at the university. The suffering in US prisons in Iraq is great. [...]« Manan, daughter of Abdul Rahim, born on 13.01.1984.

Chew, Huibin Amee: Women and War: Reclaiming a Feminist

2007, www.leftturn. يونيو .Perspective. In: Leftturn, 16 org/?q=node/699: »[...] according to Iraqi MP Mohamed al-Dainey, there were 65 documented cases of women's rape in

occupation detention centers during 2006.

14- دون مؤلف:

Shumway, Chris: Abu Ghraib General says she was told to

2004, يونيو .treat Iraqis like dogs. In: The New Standard, 15 http://209.85.129.104/search?q=cache:GS9UU57EaX0J:newstandardnews.net/content/%3Faction%3Dshow_item%26itemid%3D551+geoffrey+miller+treat&hl=de&ct=clnk&cd=1&gl

=de.

15- دون مؤلف: العراق بطل آسيا لأول مرة، 29 يوليو 2007م، انظر

تحت: http://fussball.sport.msn.de، وانظر أيضاً: دون مؤلف: العراق

يحتفل بنصر كرة القدم. في: أخبار شبكة بي بي سي، 29 يوليو2007 م،

www.bbc.co.uk ، وكذلك: لوتر، ماركوس: هدف يوحدهم لليلة واحدة.

دي فيلت، 31 يوليو 2007م، صـ 3.

16- Baker-Hamilton-Report، (2006م) صـ 20:

The Iraqi government is not effectively providing its people with basic services: electricity, drinking water, sewage, health care, and education. In many sectors, production is below or hovers around prewar levels. In Baghdad and other unstable areas, the situation is much worse. [...] One American official told us that Baghdad is run like a ›Shia dictatorship‹ because Sunnis boycotted provincial elections in 2005, and therefore are not represented in local government.

انظر أيضاً: علي، أحمد: العراق: سقوط بعقوبة. العنف يجعل الحياة مثل حلبة القمار الروسية. في: الجريدة الإسلامية، 1 أغسطس 2007، www.islamische-zeitung.de/?id=9141، وانظر أيضاً: دون مؤلف

Minister goes in Iraq oil crisis. In: BBC News, 30. December 2005,

http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/4569360.stm

17- محمد سعيد الصحاف، وزير الخارجية في عهد صدام، ثم تولى بعد ذلك وزارة الإعلام العراقية.

18- دون مؤلف:

Wojcik, John: Iraq inc. In: People's Weekly World, 27. July 2007, P. 10: »The States and Defense departments released figures July 4 that admit to more than 180,000 U.S. civilians working in Iraq under U.S. contracts. That figure, which exceeds by at least 20,000 the number of combat troops [...] does not include tens of thousands who have been hired by many of these as ›subcontractors‹ or tens of thousands who have been hired as ›private security‹. [...] Military experts say that the United States has never in its history relied so heavily on private corporations to fight its wars. The Pentagon [...] says that the independent contractors do construction work,

weapons systems maintenance and ›private security‹.»

انظر أيضاً: لادورنر، أولريش، العنف الدموي للمرتزقة. في: دي تسايت، 27سبتمبر 2007، صـ23.

19- انظر الكلمة الختامية هامش 79.

20- انظر على سبيل المثال بدون مؤلف:

Christians may take up arms. In: News24. com, 9. December 2004,www.news24.com/News24/World/Iraq/0,,2-10-1460_1631298,00.html: »More than 1,500 members of an Iraqi Christian group have gone to northern Iraq to try to protect Christians following attacks on churches in Baghdad and Mosul, the leader of the group said [...]. In an interview, Yonadem Kana, the leader of the Assyrian Democratic Movement in Iraq and a member of the Iraqi National Council, said the fighters have been deployed in Baghdida near the northern city of Mosul. ›We do not want to transform our movement into a militia‹, he said. ›But if needed, we can arm more than [10,000] people.

على كل حال فالمسيحيون في حال صعبة للغاية، انظر في هذا الموضوع: كيلر، جابريللا، 2006م:«من يبق يمت»، في: موقع مجلة شبيجل، 1 ديسمبر 2006م، www.spiegel.de: وبدخول الأمريكان بدأ الخروج الصامت من العراق في عام 2003م، إذ يقدر عدد الذين هربوا إلى سوريا حتى ذلك الحين وقبل الفوضى الدموية بحوالي 800000 نسمة، وعلى الرغم من أن المسيحيين يقدرون بحوالي 4% من السكان، لكنهم يمثلون أكثر من 30% من المهاجرين»، وانظر أيضاً: ثورمان، ميشيل: قوة حماية غاشمة، في: دي تسايت، 23 مارس 2006م، http://images.zeit.de/text/2006/13/Syrien:«ابتسام –مسيحية من

العراق- تحجبت بكل حرص حتى لا تهاجم في الطريق» (إنها صدمة لنا جميعاً؛ لأنه في عهد صدام لم يكن هناك فرق بين مسلم ومسيحي)».

21- جروبر، بيتر: «أسوأ حالاً من (أبو غريب)». تفاصيل جديدة من تهم القتل الموجهة إلى خمسة جنود أمريكيين في العراق تكشف الغطاء عن مدى فظاعة الجرم الذي ارتكب ضد فتاة في الرابعة عشر من عمرها وأسرتها. في: موقع فوكس، 11 يوليو 2006م، انظر تحت:
www.focus.de/politik/ausland/usa_ aid_ 111720.html.

22- دون مؤلف:

Zoroya, Gregg: If Ramadi falls, «province goes to hell». In: USA Today, 11. Juli 2004, www.usatoday.com/news/world/iraq/2004-07-11- ramadi-usat_x.htm

23- دون مؤلف: يقدم على الانتحار كل يوم سبعة عشر من الجنود السابقين. موقع فيلت، 15 نوفمبر 2007م، www.welt.de/politik/article1365389/Taeglich_verueben_17_Ex-Soldaten_Selbstmord.htm، وانظر أيضاً:دون مؤلف:

Suicide Epidemic Among Veterans. In: CBS News, 13. November 2007, www.cbsnews.com/stories/2007/11/13/cbsnews_investigates/main3496471.shtml

24- دون مؤلف:

A Dark Side to Iraq «Awakening» Groups. In: International Herald Tribune, 4. January 2008، بلا صفحة»: Colonel Martin Stanton, chief of reconciliation and engagement for the Multinational Corps-Iraq, said [...]: »These were people who

last year were being hammered from two different directions: by Al Qaeda and by us. It was probably a distasteful choice to make back then because, after all, they viewed us as invaders, and they probably still do, but it was a survival choice and they made it.‹« 33 Beeston, Rich.

25- دون مؤلف:

Beeston, Richard: Al-Qaeda targets tribes in Badhdad hotel. In: TimesOnline, 25. June 2007, www.timesonline.co.uk/tol/news/world/iraq/article1984885.ece.

26- دون مؤلف: الحرب الأمريكية تقتل 655000 عراقيًّا، انظر في: World Socialist Web Site, 21 أكتوبر 2006، www.wsws.org/de/2006/okt2006/irako21.shtml: «من ضمن من لقوا حتفهم بسبب الحرب هناك حوالي 600 ألف شخص ماتوا بسبب أعمال العنف، منها إطلاق الرصاص والسيارات المفخخة والأعمال التفجيرية الأخرى وكذلك الهجمات الجوية بالطائرات، ويقدر ما نسبته 31% أو 186 ألف قتيل حسب دراسة (لانسيت، المصدر سيأتي لاحقاً) يعزى قتلهم بطريق مباشر إلى قوات التحالف ؛ أي إن العراقيين قتلتهم القوات الأمريكية مباشرة أو حلفاؤها، وطبقاً لهذه الدراسة فقد مات % 56 من ضحايا العنف بسبب جراحاتهم الناجمة عن إطلاق الرصاص، وهو عدد ضخم بشكل غير معتاد، مما يشير بطبيعة الحال إلى مساهمة الجنود الأمريكيين في حدوثه بشكل مباشر، كما نسبت 24% من حالات الموت الناجمة عن الحرب إلى أسباب أخرى، مثل الحروب وعمليات الانتحار بسبب الصراعات العرقية والدينية، أما في % 45 من الحالات فلم يتم الكشف عن تفاصيل حول ظروف وملابسات الوفاة»

انظر بورنام، جيلبرت؛ وآخرين:

Burnham, Gilbert; u.a.: Mortality after the 2003 invasion of Iraq: a cross sectional cluster sample survey, In: The Lancet. com, 11. Oktober 2006, www.thelancet.com/webfiles/images/ journals/lancet/ s0140673606694919.pdf

27- سيفنسون، بيرجيت: لماذا يجمع الشيوخ التوقيعات. في: موقع فيلت، 3 ديسمبر 2007م، http://www.welt.de/welt_print/article1423396/ Warum_Scheichs_Unterschriften_sammeln.html.

28- دون مؤلف:

Lynch, Marc: What Iraqis Think, Again. In: Global Policy Forum, 12. September 2007, www.globalpolicy.org/security/ issues/iraq/poll/2007/0911iraqisthink.htm: »The BBC/ABC/ NHK survey, conducted in all 19 provinces during August [2007], finds that [...] 79% oppose the presence of Coalition forces in Iraq. 72% say that the presence of US forces is making security worse. When should US forces leave? 47% say ›leave immediately‹ – by far the highest support for immediate departure on record (it was 35% in February). 34% say stay until security is restored, 10% say stay until the Iraqi government is stronger. Only 2% say ›remain longer but leave eventually‹. Only 1% of Sunnis say they have confidence in American forces. [...] Only 1% of Sunnis support the American presence in Iraq. Only 1% of Sunnis say that security has improved in Iraq as a whole in the last 6 months. 72% of Sunnis say that the US forces should leave immediately. 95% of Sunnis say that the presence of US troops makes security worse. 93% still see attacks on coalition forces as acceptable.« www. globalpolicy. org/security/issues/iraq/resist/2007/09bbciraqipoll.pdf.

أضف إلى ذلك ما حدث في يناير 2008: جميل، دهر، انظر الموضع السابق:

«Will Iraq descend further into a sectarian nightmare if the occupation ends? An indicator [...] may be drawn from the southern city of Basra. In early September, 500 British troops left one of Saddam Hussein's palaces in the heart of the city and ceased to conduct regular foot patrols. According to the British military, the overall level of violence in the city has decreased 90 percent since then.»

29- حروب الخليج: من عام 1980م إلى 1988م بين العراق وإيران؛ ومن 17/1/1991م حتى 28/2/1991م بين العراق وقوات التحالف تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

رابعا : هوامش ومصادر الفصل الثاني (الفرضيات العشرة) :

1- لبيانات كل الكتب ، انظر فهرس المراجع.

2- أوليڤييه لو كور جراندميزون، مؤرخ فرنسي. ركز في أبحاثه على تاريخ الاستعمار الفرنسي وسياسة التهجير الفرنسية.

3- فرانسوا ماسپيرو، كاتب وناشر فرنسي.

4- ريدل، جاربيللا: الدعاة إلى الله. في: Geo، 1 فبراير 2007م، صـ 82.

5- شالر، كريستيان: الأطر المحددة للقانون الدولي ودور الأمم المتحدة في محاربة الإرهاب. في: شنيكينر، أولريش (ناشر): فرص وحدود الوسائل المتعددة لمحاربة الإرهاب. دراسة شاملة: أطروحة نقاشية FG 8، رقم 7، 2007. في: جمعية العلم والسياسة، برلين، انظر هذا الموقع

www.swp-berlin.org/de/common/get_document.php?asset_id=4129&PHPSESSID=2e7c 242ee1e349d 9ae5be63aeb8cea0:

الجدل المستمر حول تعريف الإرهاب... أول اختلاف في الرأي يدور بشكل أساسي حول الفصل بين الأعمال الإرهابية من جانب وأعمال العنف المشروعة لممارسة حق الشعوب في تقرير مصيرها من جانب آخر، أما الخلاف الآخر فكان يدور حول ما إذا كان من الممكن إطلاق لفظ العمل الإرهابي على بعض إجراءات القوى العسكرية الحكومية

أم أن مثل هذه الممارسات ينبغي أن تستثنى مما يصدق عليه تعريف الإرهاب... أصدرت الجمعية العامة إعلاناً في عام 1994 حول إجراءات القضاء على الإرهاب الدولي، كان يحتوى في داخله لأول مرة بعض عناصر تعريف الإرهاب... وخرج الإعلان بأن «أي عمل إجرامي يهدف إلى نشر حالة من الرعب بين العامة أو بين مجموعة معينة من الناس من أجل أهداف سياسية ليس له أي مبرر سياسي أو فلسفي أو إيديولوجي أو عرقي أو وطني أو ديني أو أي سبب آخر، وتوضح هذه العبارة أن النضال من أجل تحقيق حق تقرير المصير هو الآخر أصبح له حدوداً واضحة».

شيرمر، جريجور: حرب تحرير أم إرهاب؟ في: AG، قسم أبحاث السلام بجامعة كاسل، 16 مارس 2005، www.uni-kassel.de : «حتى الآن توجد مجرد بدايات لصياغة تعريف للإرهاب الدُّولي يقر به الجميع ويلزم به القانون الدولي، وقد فشل حتى الآن تنفيذ الاقتراح الذي تمت مناقشته في الأمم المتحدة عام 1994 بشأن إجماع شامل على تعريف الإرهاب الدُّولي، لأن الدول لم يستطيعوا أن يتفقوا على تعريف للإرهاب، وكانت نقطة الخلاف الأساسية من أول الأمر -ولا زالت حتى الآن- هي التمييز الواضح بين «حرب التحرير» و «الإرهاب» وعدم استثناء إرهاب الدولة الذي تمارسه الجهات العسكرية في الدولة من التعريف، بل إدراجه في التعريف... وكان المعيار الحاسم في التفريق بين المقاومة المشروعة والإرهاب يتلخص في أن يوجه المقاومون هجماتهم المسلحة إلى القوات المسلحة للمحتل أو من يساعدهم من المسلحين من أهل البلد، ولا يوجهونها إلى المدنيين سواء كانوا عراقيين أو أجانب»

Payne, Caroll: Understanding Terrorism – Definition of Terrorism. In: World Conflict Quarterly, Mai 2007, http://www.globalterrorism101.com/UTDefinition.html:«The United States has defined terrorism under the Federal Criminal Code. Chapter 113B of Part I of Title18 of the United States Code defines terrorism and lists the crimes associated with terrorism. In Section 2331 of Chapter 113b, terrorism is defined as: ›... activities that involve violent ... ‚or life-threatening acts' ... that are a violation of the criminal laws of the United States or of any State and ... appear to be intended (i) to intimidate or coerce a civilian population; (ii) to influence the policy of a government by intimidation or coercion; or (iii) to affect the conduct of a government by mass destruction, assassination, or kidnapping; and ... ‚if do mestic' ... (C) occur primarily within the territorial jurisdiction of the United States ... ‚if international' ... (C) occur primarily outside the territorial jurisdiction of the United States ...»

6- دون مؤلف:

NO.V.: NATIONAL EXCLUSIVE: Hezbollah Leader Hassan Nasrallah Talks With Former US Diplomats on Israel, Prisoners and Hezbollah's Founding. In: Democracy Now, 28. Juli 2006, http://www.democracynow.org/article.pl?sid=06/07/28/1440244 #transcript: «In 1985, when I [Edward Peck] was the Deputy Director of the Reagan White House Task Force on Terrorism, [...] they asked us to come up with a definition of terrorism [...]. We produced about six, and each and every case, they were rejected, because careful reading would indicate that our own country had been involved in some of those activities. [...] you can read the U.S. definition of terrorism. And [...] one of the terms, ›international terrorism,‹ means ›activities that,‹ I quote, ›appear to be intended to affect the conduct of a government by mass destruction, assassination or kidnapping‹. [...] you can think of a number of countries that have been involved in such activities. Ours is one of them. Israel is another. And so, the terrorist, of course, is in the eye of the beholder. [...] it's useful

for people who discuss that phrase to remember that Israel was founded by terrorist organizations and terrorist leaders, Menachem Begin, who became statesmen and went on to win the Nobel Peace Prize».

7- ريدل، جابريللا، 2007م، انظر الموضع الأسبق، صـ 82.

8- أليكس دي توكڤيل، مؤرخ وسياسي فرنسي، كان توكڤيل يصنف كنائب من المعارضة المعتدلة بين عامي1839م و1848م ، وقام برحلتين طويلتين إلى الجزائر بصفته نائباً عن الشعب، كتب بعض تقارير اللجان الموجهة للبرلمان وألقى بعض المحاضرات يعبر فيها عن قناعته بأن الجزائر مستعمرة فرنسية فيها طبقة الملاك البيض وطبقة الخدم من السكان الأصليين الذين لا ينبغي أن تكون لهم الحقوق نفسها.

لمزيد من كتابات توكڤيل عن موضوع الجزائر انظر: بيتس، جينيفر (ناشر):

Pitts, Jennifer (ed.): Alexis de Tocqueville. Writings on Empire and Slavery. Baltimore 2001.

9- أليكس دي توكڤيل، اقتباس من: www.mehr-freiheit.de/idee/tocqueville.html.

10- توكڤيل، أليكس دي: عن الديمقراطية في أمريكا 1 (1835م)، 10، زيورخ 1987م، صـ481.

وانظر فيه أيضاً، صـ 480:« ومن بين هؤلاء البشر المختلفون تجد الأول الذي يجذب الأنظار إليه، الأول في التعليم والقوة والحظوظ هو الرجل الأبيض، الأوروبي، هو الإنسان بالمعنى الأحق، أما الزنوج والهنود فيأتون في منزلة أقل منه»

11-دون مؤلف:

Tocqueville, Alexis de: Rapport sur le projet de loi relatif aux crédits extraordinaires demandés pour l'Algérie. In: OEvres. Paris 1991, S. 814, zitiert nach Le Cour Grandmaison (2005), S. 238: »Iln'y a ni utilité ni devoir à laisser à nos sujets musulmans des idées exagérées de leur propre importance, ni à leur persuader que nous sommes obligés de les traiter en toutes circonstances […] comme s'ils étaient nos égaux.«

12- قارن: لوكور جراندميزون، (2005م)، صـ 90.

13- قارن: ماسپيرو، (1993م)، صـ 319.

14- قارن: لوكور جراندميزون، (2005م)، صـ 146-152.

15- قارن: ماسپيرو، (1993)، صـ243، وانظر أيضاً: لوكور جراندميزون، (2005)، صـ 141.

16- 1803-1845 . Lucien François de Montagnac، ضابط فرنسي أثناء غزو الجزائر.

17-دون مؤلف:

مقتبس من Colonel de Montagnac: Lettres d'un soldat. 1885.

ماسپيرو (1993)، صـ 193: «›On tue, on égorge; les cris des épouvantés, des mourants se mêlent au bruit des bestiaux qui mugissent […].‹ ›Vous me demandez ce que nous faisons des femmes que nous prenons. On en garde quelquesunes comme otages, les autres sont échangées contre des chevaux, et le reste est vendu, à l'enchère, comme bêtes de somme … Parmi ces femmes, il y en a souvent de très jolies.‹

وانظر في الموضوع نفسه:

Zerrouky, Hassane: France-Algérie. Le crime avait un nom: le colonialisme. In: L'Humanité, 17. Juni 2000, www.survivreausida.net/a3175

18-دون مؤلف:

Kelkel, Abdelkadar: Si c'est pour le rôle positif, nous avions déjà

payé juillet 1830. Le Quotidien d'Oran, 3. Januar 2006، مقتبس

من : www.algeria-watch.de/fr/article/pol/france/juillet_1830.htm: »Dans ses ›Lettres d'un soldat‹, Montagnac, inhumain, relatant ses faits de guerre, avouait: ›Pour chasser les idées noires qui m'assiègent quel quefois,je fais couper des têtes. Non pas des têtes d'artichauts, mais des têtes d'hommes.‹«

19-دون مؤلف:

Louis de Baudicour, 1815–1883

20-دون مؤلف:

de Baudicour, Louis (1860): Histoire de la colonisation de l'Algérie. 1860, o.S., zitiert nach Maspero (1993), S. 312: »Ici un soldat amputait, en plaisantant, le sein d'une pauvre femme [...]; là un autre soldat prenait par les jambes un petit enfant et lui brisait la cervelle contre la muraille.«

21-دون مؤلف:

Hugo, Victor: Choses vues 1830–1848. Paris 1997, صـ168 مقتبس

من لو كور جراندميزون، (2005)، صـ 98، هامش 1: »Hugo connaît les atrocités commises par l'armée d'Afrique. ›Algérie, notet-il le 15 octobre 1852, le général Le Flô me disait hier soir que, dans les razzias, il n'était pas rare de voir des soldats jeter à

leurs camarades des enfants qu'ils recevaient sur la pointe de leurs baïonnettes.

22- لو كور جراندميزون، (2005)، صـ 169، هامش 2:

»Le Sémaphore marseillais, 2 mars 1833, cité par Bannister, Appel en faveur d'Alger et de l'Afrique du Nord par un Anglais, Paris, Dondey-Dupré, 1833, p. 26. ›Le noir animal‹, appelé aussi ›charbon animal, est un charbon d'os que l'on obtient en calcinant les os en vase clos‹. Utilisé dans l'industrie, ›pour la décoloration des liquides organiques et la réduction de certains oxydes‹, il fut aussi employé pour la ›fabrication de sucre.

وانظر أيضاً:

D'Hérisson, Maurice: La Chasse à l'homme – Guerres d'Algérie, 1891: »›Nous rapportons un plein baril d'oreilles récoltées paire à paire sur les prisonniers, amis ou ennemis. [...] Deux pieces de cent sous ne sont pas à dédaigner.‹ Journal d'un officier du corps expéditionnaire.«

مقتبس من: دون مؤلف:

Colonialisme. Le fardeau de l'homme blanc. In: L'Humanité, 10. November 2001, www.humanite.

fr/Colonialisme-Le-fardeau-de-l-homme-blanc

وانظر ايضاً ماسپيرو، (1993م)، صـ 186:

«[...] il institue une prime à la tête coupée. Rapporter une tête c'est encombrant, mais il est quand meme plus facile d'en vérifier la provenance que lorsqu'il s'agit simplement de paires d'oreilles, dont un Yûsuf et un Montagnac se flattaient d'avoir rempli de pleins tonneaux. (Des oreilles, on peut en couper sur n'importe qui: la légende, rapportée par le comte d'Hérisson, veutque parmi les huit cents paires d'oreilles dûment salées – à

cent sous chacune – que contenait l'un de ces tonneaux, on ait glissé celle d'un gendarme mort de la dysenterie.)»

23- قارن: ماسپيرو، (1993م)، صـ 400:

«[Napoléon III:] Or, si la France est maîtresse de L'Algérie, c'est que Dieu l'a voulu, et la nation ne

renoncera jamais à cette conquête.

24-دون مؤلف:

Ruscio, Alain; McGiffen, Steve (Transl.): A colonialist offensive and the »benefits« of colonialism. In: L'Humanité in English, 16. December 2005, www.humaniteinenglish.com/article17.html.

25-دون مؤلف:

Chelala, César: MEANWHILE : The French Connection in the Export of Torture. In: The International Herald Tribune, 22. June 2001, www.iht.com/articles/2001/06/22/edchel_ed3_.php.

26-دون مؤلف:

Rioux, Jean-Pierre (1992), S. 99: «›Comment condamner les excès de la répression si l'on ignore ou l'on tait les débordements de la rébellion? [...] écrivait Albert Camus le 10 janvier 1956.»

27- يبلغ تعداد الضحايا طبقاً للتقديرات الفرنسية ما بين مليون ومليون ونصف نسمة، أما حسب التقديرات الجزائرية فيبلغون حوالي 2.200.000جزائري وأقل من 100.000 فرنسي، وقد تم كشف التعداد من المصادر التالية:

دون مؤلف: فرنسا تكشف للجزائر عن الألغام. في:

Dimadima.de . www.dimadima.de/modules.php
?name=News&file=article&thold=-
1&mode=flat&order=0&sid=574, 22.10.2007 ؛ كاتب، كامل:

Européen, Indigènes et Juifs en Algérie (1830–1962), Paris, Editions de l'Institut National d'Etudes Démographiques,

In: La Revue .بدون عنوان : 386; Girardet, Raoulصـ2001, L'Histoire, Paris, 140, January

1991، صـ 107

28- هايدون، توم: دقت الأجراس؛ اقتلوا صدام- هل هي مفاجأة الصيف؟ في: زيددويتشه تسايتونج، 7 أغسطس 2003م، صـ 13.

29-دون مؤلف:

Rogers, K.: We can't disregard the facts of history. In: Hull Daily Mail, 23. April 2003, S. 8, Letters Macintyre, Ben: Invasion, bombs, gas – we've been here before. In: The Times (London), 15. February 2003. P. 20

Omissi, David: British bombing when the natives were restless. In: Manchester Guardian Weekly, 3. February 1991, P. 21

30- Macintyre, Ben ، انظر في موضعه، صـ 20 يكتب هاريس مقتبساً:

«The Arab and Kurd now know what real bombing means, in casualties and damage: they know that within 45 minutes a fullsized village can be practically wiped out and a third of its inhabitants killed or injured», he bragged.

Cockburn, Alexander: -31

The press and the ›just war‹. Persian Gulf War; Beat the

Devil. In: The Nation, 18. February 1991, صـ 6

انظر أيضاً: أوميسي، داڤيد، في موضع سابق، صـ21.

32- ليونيل إيفيلين أوزوالد تشارلتون، 1879-1958 ، ضابط في قيادة قوات سلاح الجو الملكي RAF فصائل العراق 1923.

33- أوميسي، داڤيد، في موضع سابق، صـ21، وانظر أيضاً: ماكنتير، بين، في موضع سابق، صـ20.

34- قارن في هذا الموضوع مثلاً: ليبيا:

The Italian Occupation and the Libyan Resistance, http://ourworld.compuserve.com/hompages/dr_i brahim_ighneiwa/re

35- إيكارت، أندرياس: النظام عن طريق الإرهاب. في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 27 يوليو 2007م، صـ 8.

36- چوستاڤ لوبون 1848-1931، طبيب وعالم اجتماع فرنسي. انظر في هذا الموضوع:

http://www.philos-website.de/indexßg.htm?autoren/le%20bonßg.htm~main2

37-دون مؤلف:

Le Bon, Gustave (1889): Lois psychologiques de l'évolution des peuples. Paris 1978, S. 28, zitiert nach Le Cour Grandmaison(2005), S. 81: «Dans la taxinomie raciale établie par Le Bon, par exemple, on découvre quatre races: les ›primitives‹, où se trouvent ›les Fuégiens et les Australiens‹;

les ›inférieures‹, représentées par les ›nègres‹; les ›moyennes‹, qui ont été capables de bâtir des civilizations importantes – les Chinois, les Mongols et les Arabes en font partie; et les supérieures, incarnées par les ›peuples indo-européens [...].»

38- فانون، فرانز، (1981م)، صـ 14.

39- دون مؤلف:

Iraq embargo scored, papal visit suggested. In: Catholic World News, 15. Juni 1998, www.cwnews.com/news/viewstory.cfm?recnum=7860

وانظر أيضاً: دون مؤلف:

Pope denounces sanctions on Iraq. Iraq-Vatican. In: Politics, 20. March 2000, www.arabicnews.com /ansub/Daily/Day/000320/2000032036.html

40- نقاشات حول إحصائيات الضحايا، انظر:

We think the price is worth it«. Media uncurious about Iraq policy's effects – there or here. In: Fairness & Accuracy In Reporting (FAIR), November/December 2001, www.fair.org

وانظر أيضاً:

Welch, Matt: The Politics of Dead Children. Have sanctions against Iraq murdered millions? In: Reason Magazine, March 2002, www.reason.com

وانظر أيضاً: أمّان، كارل: الحرب الخفية. في: جريدة فرانكفورتر روندشاو، 15 مارس 2004م، صـ 7، وأيضاً: دون مؤلف:

Human costs of the 1991 Gulf war and sanctions on Iraq. In: No War on Iraq, Fact sheet 3, www.

womenforpeace.org.au/FactSheet3vpn.pdf

41- شرورن-بورش، باربرا، العراق. احتجاز شعب بأكمله كرهائن، 6 مارس 2001: انظر تحت

www.netzwerk-regenbogen.de/irak060301.html .

وانظر أيضاً: سمولمان، لاورنس:

Iraq's real WMD crime. In: Aljazeera. net, 9. January 2005, www.aljazeera.net

42- انظر الفصل الرئيسي، هامش: 33.

43- أدت الاختلافات في وسائل التصعيد وبعض المصالح السياسية إلى موجة واسعة من سقوط للضحايا في أماكن مختلفة من العراق، وبالإضافة إلى ذلك يلعب اختيار المناطق الأشد أو الأقل ضرراً ومدى حرية أو تبعية المؤسسات الفاعلة دوراً مهمًّا في الاستعداد لذكر الأرقام الفعلية والاحتفاظ بها، فالإحصاء الذي قامت به وزارة الصحة العراقية، والتي هي تحت سيطرة قوات مقتدى الصدر، يختلف في نتائجه عن ذلك الذي تقوم به مؤسسة مستقلة.

الأرقام والمصادر:

وزارة الصحة العراقية، نشرته منظمة الصحة العالمية، 2007م، http:// content.nejm.org/cgi/content/full/ NEJMsa0707782 : 151000 قتيل بطريقة بشعة، حتى يونيو 2006م.

جريدة لانسيت، 2006م، مستقلة، www.thelancet.com/webfiles/ images/journals/lancet/s01406736066 94919.pdf: 655000 قتيل منهم 601000 قتيل بطريقة بشعة، حتى يونيو 2006م.

Opinion Research Business, 2007م. http://www.opinion.co.uk/

Newsroom_details.aspx?New sId=78: مليون ومائتي ألف قتيل بطريقة بشعة، حتى خريف 2007م.

ولم يحص المركز العراقي لإحصاء القتلى، Iraq Body Count

www.iraqbodycount.org/ إلا 47668 قتيلاً قتلوا بطريقة بشعة، وعلى أقل تقدير تم إثبات طريقتين لقتلهم.

44- دون مؤلف: جرائم صدام. في: دي فيلت، 20 يونيو 2006م، http://www.welt.de/print-welt/article224143/Saddams_Verbrechen.html: «قدرت منظمة مراقبة حقوق الإنسان أن صدام حسين أمر بإعدام 290000 نسمة منذ بداية حياته السياسية، وبعد انتصار قوات التحالف اكتشف الأمريكان عديداً من المقابر الجماعية، ومن بينهم المقبرتان المشهورتان في الحلة والمحاويل».

45- وقد عبر كوفي عنان عن ذلك بقوله (طبقاً لـ :دون مؤلف: : مقابلة كوفي عنان، نصها مايلي:

In: BBC News, Special Reports, 31. December 2006, http://newsvote.bbc.co.uk/): «BBC: ›Was it a mistake? Some Iraqis say that life is worse than it was under a dictator.‹ Kofi Annan: ›I think they are right in the sense of the average Iraqi's life. If I were an average Iraqi obviously I would make the same comparison, that they had a dictator who was brutal but they had their streets, they could go out, their kids could go to school and come back home without a mother or father worrying, Am I going to see my child again?»

وانظر أيضاً ما كتب مؤخراً: دون مؤلف:

Students, teachers, schools face deliberate attacks in conflict areas – UNESCO. In: UN Newscenter, 8. November 2007, www.

un.org/apps/news/story.asp?NewsID=24596&Cr=education& Cr1=unesco: «The study by the United Nations Educational, Scientific and Cultural Organisation [...] catalogues a range of assaults on education. [...] Principal author Brendan O'Malley [...] offered stark statistics on the problem, saying that 280 academics have been killed in Iraq between the fall of Saddam Hussein in 2003 and April this year ›in a campaign of liquidation‹. Iraq finds its education system ›virtually on the point of collapse‹ with only 30 percent of pupils attending school last year compared with 75 percent the previous academic year.»

وانظر ايضاً: تقرير بيكر-هاميلتون (2006م)، صـ 21:

Despite the positive signs, many leading economic indicators are negative. [...]. Inflation is above 50 percent. Unemployment estimates range widely from 20 to 60 percent.

46- روب، ماتياس: أسوار جيدة تخلق جيراناً جيدين. في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 2 يناير 2008م، صـ 4.

47- يذكر البعض احتلال تركيا لشمال قبرص عام 1974م كاستثناء، لتفاصيل عن هذه المشكلة ، انظر هيللين براند، كلاوس: يونانيون وأتراك، ولكن قبارصة قبل كل شيء، في: موقع مجلة شبيجل،4 مايو 2005م، مقتبس من مجلة ميريان قبرص، http://www.spiegel.de/ reise/europa/0,1518,350883,00. html،

انظر أيضاً:

www.frieden-und-sicherheit.de/webcom/show_article.php/_c-166/_nr-43/_lkm-12/i. html. ومما لا ينبغي إغفاله هو ذلك الجدل الحاد حول جزر أبو موسى وطنب الصغرى وطنب الكبرى التي احتلتها

إيران، انظر أيضاً: إبراهيم، فيرديناند: إيران والعالم العربي. في: المركز الاتحادي للتثقيف السياسي، B 9 ، 2004

.www.bpb.de/publikationen/WRMCK2,4,0,Iran_und_die_arabische _Welt.html.

48- قارن: إنتسنبيرجر ماجنوس، (2006)، صـ 31 وما بعدها.

49-دون مؤلف:

The Library of Congress. Country Studies, http://memory.loc.gov/ammem/index.html: Algeria. Arabization, Dezember 1993.

50- روسيو، ألين؛ ماك جيفين، ستيف (مترجَم)، انظر في موضع سابق، دون صفحة.

51- قارن ماسبيرو، (1993م)، صـ 438:

«Tocqueville [...]: ›Autour de nous, écrivait-il alors, les lumières se sont éteintes. Nous avons rendu lasociété musulmane beaucoup plus misérable, plus désordonnée, plus ignorante et

connaître.plus barbare qu'elle n'était avant de nous

Perliger, Arie; Weinberg, Leonhard: وانظر أيضاً بتفصيل أكثر: » Jewish Self-Defense and Terrorist Groups Prior to the Establishment of the State of Israel: Roots and Traditions. http://terrorismexperts. دون سنة، ،In: Terrorismexperts.org org/index.html.: «Despite the broad-based terrorist activities carried out by the ›Etzel‹ against the British authorities in Palestine of the 1940's, the ›Etzel‹ was neither the most violent nor the most extreme Jewish nationalist group struggling for sovereignty. Moreover, it was not this group that laid the foundations for Jewish terrorism following statehood. This role is reserved for the Lehi organization.»

وانظر أيضاً:

Nicholas, Bethell: The Palestine Triangle: The Struggle between British, Jews, and the Arabs, 1935–48 (1979), P. 278: [Yitzhak Shamir] »There are those who say that to kill Martin (a British sergeant) is terrorism, but to attack an army camp is guerrilla warfare and to bomb civilians is professional warfare. But I think it is the same from the moral point of view. Is it better to drop an atomic bomb on a city than to kill a handful of persons? I don't think so. But nobody says that President Truman was a terrorist.

52- قارن أيضاً: إدوارد، بيك، هامش 6، الكلمة الختامية.

53- دون مؤلف:

كتيب A View of History. In: The King David Shopping Arcade

فندق الملك داود، القدس، دون سنة، صـ 22: »In 1936 the British Army leased this south wing that was targeted by the Jewish underground movement, ETZEL, headed by Menachem Begin, in their campaign to drive the British out of Palestine. The bomb planted in the basement kitchen of the La Regence restaurant, in July 1946, tore the British Headquarters apart and killed 91 people.»

54- دانييل، هانس: هل كان هناك ذات مرة ثائر مزيف...، في: يونجي فيلت، 17 أغسطس 2007م، صـ 12.

55-دون مؤلف:

Waldman, Amy: Masters of Suicide Bombing: Tamil Guerrillas of Sri Lanka. In: New York Times, 14. January 2003, http://query.nytimes.com/gst/fullpage.html?res=9E06E1DB1231F937A25752C0A965 9C8B63.

جوفرنير، سيدريك: نمور التاميل أنجح حركات المقاومة في العالم. في: لوموند ديبلوماتيك، 13 فبراير 2004م تحت: www.monde-diplomatique.de.

56- انظر تحت:

www.consilium.europa.eu/ueDocs/cms_Data/docs/pressdata/en/misc/95034.pdf

57- محمد مصدق، 1881-1967، رئيس الوزراء الإيراني 1951-1953.

58- ريشتر، هورست إيبرهارد: الصورة العدائية للصحوة الإسلامية. الصورة السيئة كحجة لعسكرة السياسة. في: AG لأبحاث السلام بجامعة كاسل، 13 فبراير 2005م، تحت .www.uni-kassel.de

وانظر أيضاً: هيرمان، راينر: رسالة إلى البيت الأبيض. في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 15 مايو 2006م، صـ 12:« في عام 1952م اختارت مجلة «التايم» مصدق ليكون «رجل العام»... ومن الظريف أن يشير أحمدي نجاد في خطابه إلى الرئيس الأمريكي إلى عام 1953م كبداية للتباعد بين طهران وواشنطن».

59- دون مؤلف: مذبحة الدجيل، في: موقع نويه تسورشر تسايتونج، 18 أكتوبر 2005م، www.nzz.ch/2005/ 10/18/al/newzzEEXYHBCL-12.htm .

وانظر أيضاً: روج، إنجا: الحكم سينطق به التاريخ. في: موقع نويه تسورشر تسايتونج، 13 نوفمبر 2005م، www.nzz.ch/2005/11/13/al/articleDBIPK.html .

60- إيلسمان، سيجسموند فون، مبعوث الرئيس. في مجلة شبيجل، 17

نوفمبر 2003م، صـ 138.

وانظر أيضاً: فيسك، روبرت: الموت حياة، الهزيمة نصر. في: مجلة أورورا،

www.aurora-magazin.at/ges ellschaft/fisk_niederl_frm.htm.

61- كريش، هانس؛ شفيلك، هايمو: حق النقض (فيتو) من أجل النفط والسلاح. في: فيلت أم سونتاج.9 مارس 2003م، صـ 10.

وانظر أيضاً: جول، أرمين: الموت يأتي بلا صوت - أسلحة صدام حسين السامة السرية، فيلت فوخه، 5 فبراير 1998م، صـ 6، وكذلك روتسر، فلوريان: العراق وأمريكا وأسلحة الإبادة الشاملة. في: تيليبوليس، 16 أكتوبر 2002م، . www.heise.de

وانظر أيضاً: دون مؤلف: : : قرار 612 (1988م)، مجلس أمن الأمم المتحدة، 9مايو 1988م، www.un.org/D epts/dpa/repertoire/85-88_05.pdf:

«Condemns vigorously the continued use of chemical weapons in the conflict between the Islamic Republic of Iran and Iraq contrary to the obligations under the Geneva Protocol; [...] Expects both sides to refrain from the future use of chemical weapons in accordance with their obligations under the Geneva protocol [...].»

62-دون مؤلف:

Huntington, Samuel P.: The Clash of Civilization and the Remaking of World Order. 1996, S. 51: «The West won the world not by the superiority of its ideas or values or religion (to which few members of other civilizations were converted) but rather by its superiority in applying organized violence.

Westerners often forget this fact, non-Westerners never do.»

63- فاتسل، لودفيج: من يفرح هنا وبماذا؟ في: فرايتاج، 41، 5 أكتوبر 2001م،

www.freitag.de/2001 /41/01411202.php.

64- قارن فانون (1981م)، صـ 17 وما بعدها مقدمة لچان پول سارتر.

65- دون مؤلف: Transcript: Ahmadinejad Interview, Part 1, CBS,

20. September 2007. قبل زيارته للأمم المتحدة في نيويورك:

«Many innocent people were killed there [World Trade Center]. [...] We obviously are very much against any terrorist action and any killing. [...] Usually you go to these sites to pay your respects. And also to perhaps air your views about the root causes of such incidents. I think that when I do that, I will be paying, as I said earlier, my respect to the American nation. [60 Minutes correspondent Scott Pelley interviewed Iranian president Mahmoud Ahmadinejad in Tehran.»

66-دون مؤلف:

Encyclopaedia of the Orient, http://lexicorient.com/e.o/hamas. htm, Art. Hizbullah: «Lebanese Shi'i Muslim political group, often involved in military actions. [...]» www.hagalil.com/ (arab) :.israel/kibbutz/lexikon.htm, Art. Hisbollah: »

حزب الله: المنظمة الإرهابية الموالية لإيران في لبنان.

67-دون مؤلف:

Encyclopaedia of the Orient, http://lexicorient.com/e.o/hamas. htm, Art. Hamas: «Palestinian Islamist political group founded in 1987, involved in both social programs in the Palestinian territories, as well as military actions against Israel. [...]« www.

«:.hagalil.com/israel/kibbutz/lexikon.htm, Art. Hamas: (arab
حركة المقاومة الإسلامية، اسم الجماعة الإسلامية المتطرفة الإرهابية الفلسطينية...»

68-دون مؤلف:

Halaby, Jamal: Jordanians, others in Mideast, mourn U.S. Terrorist attack victims. In: BC Cycle, 15. September 2001، دون صفحة.

انظر أيضاً: دون مؤلف:....... 15 سبتمبر 2001م:

World unites in sympathy with grieving Americans. In: The Record (Kitchener-Waterloos, Ontario), 15. September 2001,P. A03

69- دون مؤلف:

Iraq war illegal, says Annan. In: BBC News Online, 16. April 2004, http://news.bbc.co.uk/go/pr/fr/-/2/hi/middle_east/3661134.stm:»TheUnited Nations Secretary-General Kofi Annan has told the BBC the US-led invasion of Iraq was an illegal act that contravened the UN charter.

انظر أيضاً: زوماخ، أندرياس: دعماً للقانون الدولي والشجاعة الحضارية. منح جائزة عاموس لفلوريان بفاف، رائد بالجيش الألماني. لاودياتو فون أندرياس زوماخ في الرابع من مارس 2007م. في: تسايت فراجن، 26 مارس 2007م

www.zeit-fragen.ch/index.php?id=1671: «تم تكريم فلوريان بفاف، الرائد بالجيش الألماني بمنحه الجائزة هذه المرة، وهو الذي

رفض طاعة الأوامر في حرب العراق، وتم في البداية تجريده من رتبته، ولكن بعد ذلك قامت المحكمة الإدارية الألمانية بإعادته إلى رتبته كما كان،... إذ لم يتبع الرائد بفاف أوامر قادته العسكريين الصريحة وغير القانونية في الوقت نفسه بشكل صارخ، بأن يشترك في الجريمة الدولية في حرب العراق 2003م،... وجاء في الحكم ما نصه:(إن دولة -مهما كانت الأسباب- تغض النظر عن القانون الدولي لمنع الاعتداء الذي أقرته وثيقة الأمم المتحدة دون مبرر يذكر وتلجأ إلى استخدام القوة العسكرية، هي دولة خارجة على القانون الدولي، وتعتبر معتدية عسكريًّا)، وبهذا صنفت الحرب الأنجلو أمريكية على العراق في 2003م بأنها حرب عدوانية مخالفة للقانون الدولي."

انظر الحكم:

www.bundesverwaltungsgericht.de/enid/daa0c45757482e98c9e4ab54ac54dc3,faf283736561726368f646973706c6179436f6e7461696e6572092d0935363933/Entscheidungssuche/Entscheidungssuche_8o.html

70- روس، يان: من يكذب مرة لا يصدقه أحد أبداً. النجاح فقط هو الذي مازال يعطي بوش/بلير الحق في العراق. في: دي تسايت، 14 يوليو 2003م،

leit_2_01/31/http://images.zeit.de/text/2003

انظر أيضاً: شتروتينسكي، بيتر: عن الكذب وأمور أخرى مؤلمة. في: AG لأبحاث السلام بجامعة كاسل، 14 يونيو 2003م، -http://www.uni kassel.de/fb5/frieden/

regionen/Irak/stru-kommentar.html .

71-دون مؤلف:

Harris, Whitney R.: The Crime Of Waging Aggressive War. An Address by Whitney R. Harris. Prosecutor at the Trial of the Major German War Criminals at Nuremberg and the Author of TYRANNY ON TRIAL. In: The Robert H. Jackson Center, 1. October 2004, www.roberthjackson.org/Man/SpeechesßAboutßWhitneyHarrisßTyranny: »On the issue of aggressive war, the Tribunal declared: […] ›To initiate a war of aggression, therefore, is not only an international crime; it is the supreme international crime, differing only from other crimes in that it contains within itself the accumulated evil of the whole.

وإنظر أيضًا روبرت هوجوات چاكسون، 1892-1954، وانظر أيضاً:

http://www.roberthjackson.org/Man.

72- دون مؤلف:

Pursuing Human Dignity: The Legacies of Nuremberg for International Law, Human Rights, and Education. In: Harvard Law School, 3.–4. November 2005, www.law.harvard.edu/conferences/ nurembergßegacies/: »We must never forget that the record on which we judge these defendants today is the record on which history will judge us tomorrow.

73- ريشتر، هورست إيبرهارد، المرجع السابق، www.uni-kassel.de/fb5/frieden/themen/Sicherheitskon ferenz/2005-richter.html.

74- http://web2.justiz.hessen.de/migration/rechtsp.nsf/4dd04a17de79c763c1257249004a7703/db89ffcf48f74356c12570c30053cd0e?OpenDocument&Click= معنى «العمد»: وطبقاً للمعايير السائدة وخاصة في قانون العقوبات والفارقة بين القصد الاحتمالي والخطأ الواعي (انظر: دريهر-ترondل، قانون العقوبات، مادة 15، تصنيف 84؛ شونكه-شرودر، قانون العقوبات، مادة 15 تصنيف 72 وما

بعده، وخاصة تصنيف 84) يتلخص الفرق في أن الجاني في القصد الاحتمالي يقبل النتيجة الإجرامية لفعله ويرضى بالمخاطرة في أن يؤدي إلى ما هو أخطر مما يتوقع، وبالتالي فإنه قد قبل النتيجة ورضي بالمخاطرة، بينما هو في الخطأ الواعي معتقد لإمكانية تفاديه للنتيجة الإجرامية وقدرته على تجنبها...

المحكمة الدستورية الاتحادية، 18/9/2003م، 1 - 03 .3 WD 2. القصد الاحتمالي لا يحصل فقط بمجرد أن يعترف الجاني بصريح الكلام أو عن طريق الاستنتاج من أقواله بتوقعه لنتائج فعله، بل بأن يسلم بالنتائج الحتمية القبيحة في ذاتها والتي لم تكن لتحدث إلا بسبب قصده."

75- انظر الفصل الرئيسي، هامش: 14.

76- انظر الفصل الرئيسي، هامش: 28.

77- هيردينج، ريتشارد: «تقوية المجتمع المدني». في: TAZ, 28 يوليو 2003م، صـ 24، وأيضاً: شلوتسر، كريستيان: «التعاون طبقاً للظروف». في: سوددويتشه تسايتونج، 11 سبتمبر 2002م، صـ 10.

78- ماير، J.؛ فيليفالد، H.-J.: هل كان العراقيون تحت حكم صدام أفضل حالاً؟ في: موقع صحيفة بيلد، 5 ديسمبر 2006م، www.bild.t-online.de/BTO/news/aktuell/2006/12/05/irak-annan-saddam/irak-a

:nnan-saddam.html:

«كل يوم يقوم الإرهابيون بمائة وثمانين هجمة، وفي 2003م كانوا ثمان هجمات فقط».

دون مؤلف:

US Eyes Iraq Oil: Blix. In: Islamonline and Agencies, 8. November 2007, http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=Article_C&cid=1193049522210&pagename=ZoneEnglish-News/NWELayout: «[Hans] Blix, who led UN weapons inspection in Iraq before the 2003 invasion, described the Iraq war as a disaster. ›What it goes to show is that although tyranny is horrible, anarchy can be even worse than tyranny.»

79-دون مؤلف:

Dobrow, Robert: U.S. escalation arouses greater popular resistance in Iraq. In: Workers, 22. April 2007, www.workers.org/2007/world/iraq-0426: «According to the Brookings Institution [Washington D.C], 75 percent of all the recorded attacks in Iraq are directed at occupation forces, and a further 17 percent at Iraqi government forces. [...] A poll conducted last month for the BBC, ABC News, ARD German TV and USA Today, which got scant attention in the U.S. press, showed that the percentage of Iraqis who opposed the pre sence of U.S.-led forces in their country increased [...] to 78 percent in 2007.»

وانظر مؤخراً:

Childs, Nick: Iraq poll makes for grim reading. In: BBC News,10.September 2007, http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/6986993.stm:«The poll, conducted in August, also indicates that Iraqi opinion is at its gloomiest since the BBC/ABC News polls began in February 2004. According to this latest poll, in key areas – security and the conditions for political dialogue, reconstruction and economic development – between 67 and 70% of Iraqis, or more than two-thirds, say the surge has made things worse. [...] 85% of Iraqis say they have little or no confidence in US and UK forces. [...] In terms of quality of life, 80% of Iraqis say the availability of jobs is bad or very bad, 93% say the same about electricity supplies, 75% for clean water, 92% for fuel. And 77% of Iraqis say the ability to live where they want, without persecution, is bad or very bad.»

80- Wilson, Emily: المرجع السابق:

«What Connors and Bingham discovered has been corroborated by Department of Defense reports, which found that over 70 percent of the attacks in Iraq from 2004 to 2007 targeted U.S.-led coalition forces, and by BBC/ABC polls, which said all the Iraqis polled disapprove of attacks on civilians, but the majority approve of attacks on the U.S. troops.»

81- تسينس، هيلموت: حياة محمد. 2002م. www.helmutzenz.de/hzisla10.html .

82- أوربان الثاني، البابا 1088-99، نادى في المسيحية الغربية في عام 1095م إلى أول حرب صليبية. وجاءت عبارة «مشيئة الله» في كرد فعل على خطبته في المجمع الكنسي التي ألقاها على جموع من المستمعين.

83- فولاث، إيريش، وآخرون: «مشيئة الله». انظر مجلة: دير شبيجل، 8 أكتوبر، 2001م، صـ 160.

84- بناود، ريجين: الحروب الصليبية في تقارير شهود العيان، دوسلدورف 1965م، صـ 102-97،

www.stabi.hs-bremerhaven.de/gbs2/welt-jahrtausend/zeugen.htm .

85- كونج، هانس (2005م)، صـ 168.

86- الكتاب المقدس نسخة بيت المقدس الجديد 1985م، إرميا 51، 27 وما بعدها، وانظر سرد المراجع.

وانظر أيضاً: ألسان، ريزا (2006م)، صـ 102.

88 Rummel, Rudy: Maybe 50 Million Murdered in Colonial Democide. In: H-Net Discussion Networks, 2. November 2001, http:// h-net.msu.edu/cgi-bin/logbrowse.pl?trx=vx&list=h genocide&month=0111& week=a&msg=Wb7FMT0fVR%2b RyAIUchE2DA&user=&pw=

87- هال، رود: الحرب العالمية التالية قادمة بلا شك. في: جوته ناخريشتين، مارس 1999م، www.gu tenachrichten.org.

وانظر أيضاً: www.volksbund-hamburg.de/wir/zahlen.htm،

وكذلك رومل، رودلف J، "ديموزيد" الموت المفروض: القتل الجماعي في القرن العشرين. مونستر وأخرى 2006م.

وانظر أيضاً: . www.shoa.de/content/section/2/46/

88- قارن: ترجمة معاني القرآن الكريم هيننج/هوفمان (2003م): سورة البقرة آية 256، هامش (لا إكراه في الدين):«وهذا كما أنه تحريم استخدام العنف في قضايا الدين فهو أيضاً إثبات أن هذا العنف سيصبح محاولة فاشلة.»

وانظر أيضاً: كيسل، هاينر (2006م): أهو يوم للغضب السلمي؟ في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 19 سبتمبر 2006، صـ 42:[يوسف القرضاوي، داعية إسلامي في قناة الجزيرة:« الجهاد، الحرب المقدسة، يشرع الدفاع عن النفس وليس لإجبار الآخرين على الدخول في الإسلام لأن الله تعالى يقول في كتابه:(لا إكراه في الدين).»

وانظر أيضاً أمير زيدان في خطاب شخصي إلى المؤلف: « وفي الواقع فإنه لم يرد في التاريخ الإسلامي أن المسلمين أجبروا غيرهم على

الإسلام، وأقوال بعض المستشرقين عن أن العثمانيين اختطفوا أبناء النصارى ليتم تدريبهم ليصبحوا من الانكشاريين هي أفكار لا توجد إلا في كتب المستشرقين الغربيين، فالانكشاريون بدأوا وهم أطفال وكانوا ينتمون لأسر مسلمة وغير مسلمة كانت ضحايا للحروب، فتم تعليمهم وتربيتهم تربية إسلامية ولم يعرفوا إلا الحياة الإسلامية، وكانوا دائمي الإخلاص للسلطان، وحتى في هذه النقطة لا يستطيع أحد أن يتحدث عن الإكراه؛ لأن هؤلاء لم يتم إجبارهم على شيء جديد، بل وعلى العكس من ذلك يقرأ المرء في كثير من المؤلفات الإسلامية، أن بعض الخلفاء والسلاطين لم يرغبوا في إدخال أعداد كثيرة من الناس إلى الإسلام، لأن الجزية (وأترجمها بضريبة الدفاع بينما يترجمها المستشرقون بضريبة الأفراد (الرؤوس)) أهم عندهم من ذلك.

ولم تكن الجزية أيضاً وسيلة إجبار على الإسلام، كما يدعي بعض المستشرقين، لأنها لا تؤخذ من النساء ولا الأطفال ولا رجال الدين بل من الرجال الذين يستطيعون القتال، ولأن الإسلام يعفيهم من الاشتراك في القتال، فإنه ينبغي عليهم أن يدفعوا هذه الجزية أو الضريبة كمقابل لحمايتهم، وفي بعض الأوقات قاتل غير المسلمين مع المسلمين ضد العدو وتم إعفاؤهم من هذه الجزية، وكانت هذه الجزية تراعي أحوال الناس، فكان الفقراء يدفعون 12 درهماً من الفضة والأغنياء 48 درهماً.»

89- هيرمان، راينر: لا طريق للحوار. قرر الأتراك الشبان اللجوء إلى الثورة ورفض الإصلاح ضد الأرمينيين. في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 21 مارس 2001م، صـ 16.

90- شميتس، تورستن: «إسرائيل تجني قوة من كل جرح.» مقابلة مع الرئيس شمعون بيريز . في: sueddeutsche.de ، 1 يناير 2008م، www.sueddeutsche.de/ausland/artikel/703/150332/: «الفلسطينيون ليسوا بأعداء لنا ولا الإسلام أيضاً، فنحن لا نحارب الفلسطينيين ولا دينهم، فنحن نشترك في الآباء إبراهيم وموسى.»

وانظر ايضاً: بارتيسكو، ديتر: نحن أبناء المشرق. سر هومر. في: FAZ.NET

29 . ديسمبر 2007م. ww w.faz.net/s/Rub117C535CDF414415BB243B181B8B60AE/Doc~E9C44A2B51D6C47F18BAAC295393CF8B1~ATpl~Ecommon~Scontent.html?rss_feuilleton: والآن فقط تبرز «الإلياذة» كعمل يحتمل أن يكون مشتركاً للحضارات المختلفة جوهريًّا، ومع راؤول شروتس هومر... هي حقائق أعطيت الجذور نفسها، وإذا انطلقت قدماً من نطاق العلم إلى نطاق السياسة وإلى الوعي العام بلاد الغرب وبلاد المشرق، فإن لها أن تطالب بالاحترام المتبادل بين الطرفين.»

91- الكتاب المقدس نسخة بيت المقدس الجديد 1985م، العدد 31. 7. 15. 17: «فَحَارَبُوا الْمِدْيَانِيِّينَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ وَقَتَلُوا كُلَّ ذَكَرٍ» (آيات 15 و 17، وانظر سرد المراجع)

92- الكتاب المقدس نسخة بيت المقدس الجديد 1985م، متى 34 .10، وانظر سرد المراجع.

93- لوثر، مارتن: أحاديث المائدة. مقتبس عن: فيناي، جيرهارد: عيسى وأوديب. فرانكفورت أم ماين 1999م، صـ 175، وهنا يقتبس عن ديشنر، كارلهاينز: ومرة أخرى أذّن الديك. شتوتجارت، 1971م، صـ 484.

94- ترجمة معاني القرآن هيننج/هوفمان (2003م)، سورة 4 (النساء) آية 89، انظر سرد المراجع.

95- الكتاب المقدس نسخة بيت المقدس الجديد 1985م، اللاويين 19، 18، انظر سرد المراجع.

96- الكتاب المقدس نسخة بيت المقدس الجديد 1985، متى 5، 6. 10 و22، 39، انظر سرد المراجع.

97- ترجمة معاني القرآن هيننج/هوفمان (2003م)، سورة 4 (النساء) آية 36، انظر سرد المراجع.

كلمة سواء بيننا وبينكم، خطاب علني ودعوة من 138 قائدًا دينيًّا مسلمًا إلى قداسة البابا بنيديكت السادس عشر وغيره 13 أكتوبر 2007م،

www.acommonword.com/lib/downloads/gemeinsames_wort.pdf، ترجمة M.M. Hanel : حب الآخرين جزء أساسي لا يتجزأ من الإيمان بالله ومن حب الله، لأن الإيمان الحقيقي والصلاح لا يتحققان في الإسلام بدون حب الآخرين، فنبينا محمد يقول:«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه...».

98- قارن http://dreifaltigkeit-altdorf.de/zehn_gebote.htm

كراوزين، هيلما: ماذا يقول القرآن عن اليهودية. في: Talmud.de، 20 ديسمبر 2007م، www.talmud. de/cms/Was_sagt_der_Koran_zum_Ju.39.0.html: نجد في السور المكية من القرآن مبادئ عامة للإيمان والأخلاق مع التأكيد على المسئولية الفردية، ومن ذلك فقرة مهمة من سورة 17 (الإسراء) آيات 38-22، والتي تكاد تكون موازية للوصايا العشر في الكتاب المقدس.»

99- ترجمة معاني القرآن هيننج/هوفمان (2003م)، سورة 50 آية 38:
وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ.

شيرواخر، كريستينه (لا بيانات): صفات الله في القرآن وفي الإسلام. في: أرشيف الانترنت لجمعية لوثر في راين لاند،
www.ekir.de/lutherkonvent/archiv/schirrm1.html

100- كونج (2005م)، صـ 161.

101- مقتبس وتم الاتفاق عليه طبقاً لمحادثة شخصية مع المؤلف. زقزوق هو وزير الأوقاف منذ عام 1996م وكذلك هو رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في مصر.

102- ترجمة معاني القرآن هيننج/هوفمان (2003م)، سورة العنكبوت آية 46، انظر مجموعة الاستشهادات.

انظر ماذكر مؤخراً: كلمة سواء بيننا وبينكم، خطاب علني ودعوة، في الموضع السابق، بلا بيانات الصفحة: «وهكذا يؤكد الله في القرآن الكريم أن النبي محمد لا يقول شيئاً جديداً ذا خطر كبير من نفسه: «مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ» سورة فصلت آية 43، «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ»...، ... وبصفتنا مسلمين ينبغي علينا أن نقول للمسيحيين إننا لسنا ضدكم وليس الإسلام ضدكم في شيء...»

103- دون مؤلف: التعايش مع المسلمين في ألمانيا. في: مساهمات مجلس الكنائس الإنجيلية في ألمانيا، 2000م،

http://www.ekd.de/glauben/islamß2000ßislam2.html.

انظر ما ذكر مؤخراً: كلمة سواء بيننا وبينكم، الموضع السابق، لا بيانات للصفحة: «يمثل المسلمون والمسيحيون مع بعضهما أكثر من نصف سكان العالم، وبدون سلام وعدالة سائدان بين هذين المجتمعين الدينيين لا يمكن أن يكون هناك سلام ذو شأن في العالم... وأساس هذا السلام... هو محتوى المبادئ العامة الأساسية في كلتا الديانتين: حب الله، وحب الجار...، يقول النبي محمد:» :«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه...».

104-دون مؤلف:

Rummel, Rudolph J.: Death by Government. New Brunswick, 1994, Table 1.4: This Century's Bloodiest Dictators. www.hawaii.edu/ powerkills/NOTE1.HTM

105- نائباً عن كثيرين: مولر، رالف: عودة مؤذن بايرن. في: شتوتجارت ناخريشتين، 2 مارس 2006م، ص3ـ.

طاهري، أحمد: مجلس وزراء فظيع وغير لافت للانتباه. في:فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 23 أغسطس 2006م، صـ 3.

106-دون مؤلف:

Harrison, Frances: Iran's proud but discreet Jews. In: BBC News, 22. September 2006, http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/5367892.stm

(...) برجمان، كريستينا: المأزق الحرج بين الاندماج والهجرة. الأقلية اليهودية في إيران. في: نيو تسورشر تسايتونج، 2 فبراير 2007م، تحت: www.qantara.de.

107- دون مؤلف:

Wright, Robin: The Last Great Revolution: Turmoil and Transformation in Iran, New York 2001, P. 207

انظر أيضاً: طاهري، أحمد، في الموضع السابق، صـ3.

108- كورش الثاني، 529-559 قبل الميلاد، مؤسس المملكة الفارسية، فتح بابل في عام 539، وسمح كورش بعودة اليهود الذين أسروا وبقوا على قيد الحياة إلى بيت المقدس، وقد أصبح كورش الثاني عند هيرودوت المؤرخ اليوناني مثالاً للحاكم الذكي بسبب تسامحه الديني والحضاري تجاه الشعوب التي غزاها، وأصبح خطابه الذي ألقاه في بابل عام 539 قبل الميلاد يعتبر أول ميثاق لحقوق الإنسان؛ وقد قامت الأمم المتحدة في عام 1971م بنشره بكل اللغات المعترف لديها.

وفي هذا الخصوص: الكتاب المقدس نسخة بيت المقدس الجديد 1985، كتاب الملوك الأول (الثاني) 36، 22 وما بعدها:« وَفي السَّنَة الأُولَى لِحُكْم كُورَش مَلك فَارِسَ، وَتَتْميماً لِكَلاَم الرَّبِّ بفَم إِرْميَا، حَرَّكَ الرَّبُّ قَلْبَ كُورَش مَلك فَارِسَ، فَأَطْلَقَ نِدَاءً في كُلِّ أَنْحَاء مَمْلَكَته قَائلاً: 23...: "الرَّبُّ إِلَهُ السَّمَاء وَهَبَني جَميعَ مَمَالك الأَرْض، وَأَمَرَني أَنْ أَبْنيَ لَهُ هَيْكَلاً في أُورُشَليمَ الَّتي في يَهُوذَا. وَعَلَى كُلِّ وَاحد منْ شَعْب الرَّبِّ أَنْ يَرْجعَ إِلَى هُنَاكَ، وَلْيَكُن الرَّبُّ مَعَكُمْ.»

109- الكتاب المقدس نسخة بيت المقدس الجديد 1985م، إشعياء 45، 1، 13:

« هَذَا مَا يَقُولُهُ الرَّبُّ لِكُورُش مُخْتَاره، الَّذي أَخَذْتُ بيَمينه...13 نَا أَقَمْتُ كُورُشَ ليُجْريَ الْعَدْلَ، وَأَنَا أُمَهِّدُ طُرُقَهُ كُلَّهَا، فَيَبْني مَدينَتي وَيُطْلقُ سَرَاحَ أَسْرَاي...»

إشعياء 48، 14 والتي بعدها: «إنَّ الرَّبَّ أَحَبَّ كُورُش، وَهُوَ يُنَفِّذُ قَضَاءَهُ عَلَى بَابِلَ وَيَكُونُ ذِرَاعُهُ عَلَى الْكَلْدَانِيِّينَ. 51 لَقَدْ دَعَوْتُ أَنَا بِذَاتِي (كُورُش) وَعَهِدْتُ إِلَيْهِ بِمَا أُرِيدُ، وَسَأُكَلِّلُ أَعْمَالَهُ بِالنَّجَاحِ.»

110- فتحي، زازيلا (مترجَم):

Text of Mahmoud Ahmadinejad's Speech.In: The New York Times, 30. Oktober 2005.

ألقى أحمدي نجاد هذا الخطاب أمام الطلاب في مؤتمر «العالم بلا صهيونية»

Our dear Imam said that the occupying regime must be wiped off the map and this was a very wise statement.

انظر أيضاً: أوست، شتيفان؛ بيدناردز، ديتر؛ شبورل، جيرهارد: «قد أخذنا قرارنا». في: دير شبيجل، 29 مايو 2006م، صـ 22 مقابلة شبيجل مع محمود أحمدي نجاد.

وفي هذا الخصوص أيضاً: بيدناردز، ديتر وآخرون: التحدي الإيراني. في: دير شبيجل، 29 مايو 2006م، صـ 106، وكذلك أيضاً دون مؤلف: منكرو الهولوكوست جنباً إلى جنب. مؤتمر في طهران. في: دير شتيرن، 11 ديسمبر 2006م،

www.stern.de/politik/ausland/:Konferenz-Teheran-Holocaust-Leu gner/578286.html .

111- دون مؤلف: النواب الإيرانيون يستنكرون دبلوماسية الخطاب. في: Netzeitung.de، 28 يوليو 2006م، www.netzeitung.de/ausland/428185.html.

112- بورجستيده، ميشيل: المسيح أولاً ثم الدولة، في: FAZ:NET، 12 ديسمبر 2006م، تحت:

www.faz.net/s/RubB30ABD11B91F41C0BF2722C308D40318/Doc~EA8ED0E2055A64BD7AC9F51EA546075DD~ATpl~Ecommon~Scontent.html.

أفنري، أوري: حرب بين الأديان؟ بالله عليكم لا! في: Znet، 18 فبراير 2006م، تحت:

http://zmag.de/artiel/Ein-Kriegzwischen-Religionen-Um-Himmels-willen-nein.

113- هاريسون، فرانسيس، في الموضع السابق:"

«Anti-Semitism is not [...] an Islamic or Iranian phenomenon – anti-semitism is a European phenomenon, he says, arguing that Jews in Iran even in their worst days never suffered as much as they did in Europe.»

114- هوفمان، أندريا كلاوديا: الرأي العام المتفجر. في: فوكس، 8 مايو 2006م، صـ 206.

موتادل، دافيد: مدى ارتباط سعر الخبز في إيران بالبرنامج النووي. في: Le Monde Diplomatique، 9 فبراير 2007م، تحت:

www.mondediplomatique.de/pm/2007/02/09.mondeText.artikel,a0034.idx,5. .

انظر ايضاً: دون مؤلف: : إيران: إيفاء كل المتطلبات. في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 23 نوفمبر 2007م، صـ 8.

انظر ايضاً: طاهري، أحمد: ضربات تحت الحزام. في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 28 نوفمبر 2007م، صـ3.

115- ريبرت، أولريش: إيران: ماذا يعني انتصار محمود أحمدي نجاد في الانتخابات؟ World Socialist Web Site. 29 يونيو 2005، www.wsws.org/de/2005/jun2005/iran-j29.shtml .

انظر أيضاً:

Cappell, Elliott: Ahmadinejad's popularity crumbling says Israeli expert. In: The Jerusalem Post, 22. Dezember 2006, P. 7

116- إيرك، كريتسينا: قليل من الحرية. في: فوكس، 18 يونيو 2001م، صـ 260.

انظر أيضاً: هوفمان، أندريا كلاوديا: الرياح المضادة في دولة الرب. في: فوكس، 22 ديسمبر 2006م، صـ 140.

117- لايكسنيرنج، أندرياس: مرتبطان بالكراهية: أمريكا وإيران. في: Welle Deutsche، 23 يوليو 2007م، تحت:

www.dw-world.de/dw/article/0,2144,2703867,00.html.

118- دون مؤلف: أنا مندهش. في: دير شبيجل،10 يوليو 2006م، صـ17.

أنيته شافان في مقابلة مع شبيجل عن هزيمتها القانونية في معركة الحجاب.

119- جيلينسكي، كاتيا: حماية للصالحين. حكومة بوش وسياستها الأحادية تجاه حقوق المواطنين. في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 20 يوليو 2007م، صـ30.

وانظر إيضًا: سيزكين، هلال: شافان وعظمة الكلب. في: دي تسايت، 13 يوليو 2006م، صـ 35.

120- جمع لنصوص من أقوال محمد (تمت في القرنين التاسع والعاشر)، تمثل بجانب القرآن الكريم المصدر المهم لأحكام الدين.

121- دون مؤلف:

On Their Honor. In: The New York Times, 31. Mrz 1991, http://query.nytimes.com/gst/fullpage .html?res=9D0CEFDF123EF932A05750C0A967958260

انظر أيضاً:

United Nations, General Assembly, Report of the Secretary-General, 2. Juli 2002, http://www.unhchr. ch/huridocda/huridoca.nsf/AllSymbols/985168F508EE799FC1256C52002AE5A9/$File/ N0246790.pdf

-122

Metzke, Robert: Boosting the Female Side of Science: Germany Wants to Double the Number of Women Professors. In: Science Magazine, 21. Januar 2000, http://sciencecareers.sciencemag.org/career_development/previous_issues/articles/0280/boosting_the_female_side_of_science_germany_wants_to_double_the_number_of_ women_professors

انظر أيضاً شميت، ماريون: قضية نسبة إشغال النساء. في: Süddeutsche Zeitung ، 12 يونيو 2006م، صـ 18.

123- دون مؤلف:

More women pursuing university degrees in Iran. In: Taipei Times, 5. November 2006, P. 9, www.taipeitimes.com/News/editorials/archives/2006/11/05/2003334951

124- كوهلر-جيريج، إليونورا: تاريخ المرأة في القانون. في: وثائق كلية لودفيجسبورج على الانترنت: النساء في التاريخ، أغسطس 2003م، تحت:

www.fh-ludwigsburg.de/service/skripte/kohlergehrig/fra
uenimrecht.pdf

«لم يدخل قانون المساواة في الحقوق حيز التنفيذ إلا في 18 يونيو 1957م ... وتم إلغاء سلطة الرجل ليضع حدًّا لعلاقته بالمرأة على أنها خادمة!!!»

انظر أيضاً

http://www.frauenportal.essen.de/index.htm?3gesedat.
htm?3gesetz1.htm: تغييرات مهمة في القانون الخاص في عام 1957م.

125- الكتاب المقدس نسخة بيت المقدس الجديد 1985م، التكوين 3، 16، وكورنثوس الأولى 14، 34 وما بعدها: انظر جمع الاقتباسات.

126-دون مؤلف:

Ninth United Nations survey of crime trends and operations of criminal justice systems [...] 1–9. United Nations Office on drugs and crime: http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_countries_by_murder_ rate#2000s

127- قارن ليسنج، جوتهولد إفرايم: ناثان الحكيم (الفصل الثالث المشهد السابع)، رمز الخاتم (1779م). في:

Lessing-Akademie.de. www.lessingakademie.de/ringparabel/
ringparabel.html .

128- ميركل، أنجيلا: خطاب المستشارة الألمانية في البرلمان الأوروبي في ستراسبورج في السابع عشر من يناير 2007م. في:

Die Bundeskanzlerin Online، www.bundeskanzlerin.de/nn_5296/Content/DE/Re de/2007/01/2007-01-17-bkin-rede-ep.html.

129- دون مؤلف:

[Frank] Graham clarifies comments on Islam. From Journal Sentinel wire reports. In: The Milwaukee Journal Sentinel. 5. December 2001، بدون صفحة.: «Graham, the son of evangelist Billy Graham, was criticized by several groups for saying earlier that Islam ›is a very evil and wicked religion».

130- مقتبس من:

Karim, Altaf: Kansas State University: Column: Death of objectivity in the news media. In: U-Wire, 24. August 2004 دون صفحة : «But on a June 17 broadcast [Fox News], O'Reilly said, ... And I don't have any respect, by and large, for the Iraqi people at all. I have no respect for them. I think that they're a prehistoric group that is – yeah, ... we cannot intervene in the Muslim world ever again. What we can do is bomb the living daylights out of them, just like we did in the Balkans.»

131- دون مؤلف:

Coulter, Ann: Muhammad Cartoons: Muslim Bites Dog. In: Human Events Online, 15. February 2006، دون صفحة : «...] Perhaps we could put aside our national, ongoing, post-9/11 Muslim butt-kissing contest and get on with the business at hand: Bombing Syria back to the stone age and then permanently disarming Iran».

انظر أيضاً بدون مؤلف:

You may love her, you may hate her, but you won't ignore her. In: Grand Rapid Press (Michigan), 17. February 2006, P. A1: «Among the statements by political commentator Ann Coulter that have sparked controversy: [...] We should invade their countries, kill their leaders and convert them to Christianity.‹ – speaking of Arab terrorists, Sept. 2001.»

132- توماس، جينا: قانون إنجلترا البيضاء في معركة العنصرية: تيري إيجلتون يهاجم مارتن وكينجسلي أميس. في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 24 نوفمبر 2007م، صـ 37.

انظر أيضاً: شتاين، هانيس: اليهود كأهم الشهود على اليهودية. في: Welt Online، 23 أكتوبر 2007م، تحت: www.welt.de.

انظر أيضاً جون، روبرت: إسرائيل- الوصف بقوة الشيطان كطريقة أدبية جديدة. في: Pickings.de، بدون سنة، www.pickings.de/ tiki-view_blog_post.php?find=&blogId=11&offset=0&sort_ mode= created_desc& postId=2528&show_comments=1, 23. 23 أكتوبر 2007م.

انظر أيضاً: يورجيس، هانس-أولريش: محمد (....) في: دير شتيرن، 9 فبراير 2006م، صـ 60.

133- أمير، علي: خوف الغازي من المغزو. يمكن للمرء أن يتعلم من أوروبا أن الحدود ليست مقدسة: ملاحظات على الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني وإمكانية التغلب عليه. في: فرانكفورتر روندشاو، 22 نوفمبر 2000م، بلا رقم للصفحة.

الأرقام الحديثة عن السكان المسلمين في الشرق الأدنى والأوسط انظر مثلاً:

CIA World Factbook.

134- دون مؤلف: هجمات الصواريخ على إسرائيل. في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 29 ديسمبر 2006م، دون صفحة.

أرقام حديثة بهذا الخصوص لدى:

B'TSELEM. Statistics., 2008, www.btselem.org/english/ Statistics/Casualties.asp، تحت:

B'TSELEM. Statistics. 2008, www.btselem.org/english/ Statistics/Casualties.asp: Fatalities 29.9.2000 –

31.12.2007

135- انظر الكلمة الختامية هامش 92.

136- لو كور جراندميزون (2005م)، صـ 21، 211.

137- مقتبس من فايكمان، دوريون: أخلاق التاريخ à la Grosser في: سود دويتشه تسايتونج، 30 أغسطس 2006م، صـ 12.

138- يوحناس جروس: «وكلما طال عهد الرايخ الثالث، ازدادت الثورة على هتلر وأتباعه» مقتبس عن بوردر، هينريك M (2007م): الحادث المدبر. في: دير شبيجل، 12 أكتوبر 2007م، تحت: www.spiegel.de.

139- عن حجم تكاليف الحرب توجد بجانب الأرقام الرسمية تقديرات وحسابات عديدة مثل:

Glantz, Aaron: Iraq, Afghanistan War costs Top Vietnam. In: Antiwar.com, 21. December 2007, www.antiwar.com/glantz/?a

rticleid=12090:«According to a study by the Washington-based Center for Arms Control and Non-Proliferation, Congress has now approved nearly $700 billion for the wars in Iraq and Afghanistan. ›Using inflation adjusted dollars, the total cost of those wars has now surpassed the total cost of the Vietnam war (which ran to $670 billion)‹, the group's Travis Sharp told One World. ›It's also more than seven times larger than the Persian Gulf War ($94 billion) and more than twice the cost of the Korean war ($295 billion). »

وانظر أيضاً تقرير بيكر-هاميلتون (2006م)، صـ 27:

«[...] the United States must expect significant ›tail costs‹ to come. Caring for veterans and replacing lost equipment will run into the hundreds of billions of dollars. Estimates run as high as $2 trillion for the final cost of the U.S. Involvement in Iraq.»

140-دون مؤلف:

Glanz, James (2007): In Report to Congress, Oversight Officials Say Iraqi Rebuilding Falls Short of Goals. In: The New York Times, 31. Oktober 2007, www.nytimes.com/2007/10/31/world/middleeast/ 31reconstruct.html?ref=worldspecial&pagewanted=all

وانظر أيضاً تقرير بيكر-هاميلتون (2006م، صـ 23 و57:

«[...] about $34 billion to support the reconstruction of Iraq, of which about $21 billion has been appropriated for the ›Iraq Relief and Reconstruction Fund‹. Nearly $16 billion has been spent [...], Congress has little appetite for appropriating more funds for reconstruction. There is a substantial need for continued reconstruction in Iraq [...].« »Recommendation [...]: U.S. economic assistance should be increased to a level of $5 bil lion per year rather than being permitted to decline.»

141- أصلان (2006م)، صـ 78 وما بعدها.

142- أصلان (2006م)، صـ84.

143- جولدتسيهر، إجناس، محاضرات عن الإسلام، 1963م، صـ 34، 309، مقتبس عن www.geistigenahrung.org/ftopic28531.html: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة... عندما يضطهد إنسان معاهداً تتحول السلطة إلى الأعداء ... من اضطهد معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة ... ومن ظلم يهوديًّا او نصرانيًّا فأنا حجيجه.»

144- www.focus.de/wissen/bildung/Islamlexikon، مقال «الكعبة»

وانظر أيضاً أصلان (2006م)، صـ 127: «فذهب محمد إلى الكعبة... وجمع الأصنام من أماكنها شيئاً فشيئاً ورماها على الأرض ولم يكف يده احتراماً إلا عن صورة لعيسى وأمه مريم وقال:«أزيلوها إلا ما كان تحت يدي... وأصبح الحرم، منذ ذلك الوقت «بيت الله»، نقطة انطلاق الدين العالمي، الإسلام.»

انظر أيضًا: أحاديث الإمام مسلم.

صديقي، عبد الحميد: الإمام مسلم (202-261 هـ). في:

Sunna.org. www.sunnah.org/history/Sc holars/Imam_muslim.htm .

145- ترجمة معاني القرآن هيننج/هوفمان (2003م)، سورة 21 آية 91، انظر جمع الاقتباسات.

146- الاقتباس وجمع الآراء طبقاً لمحادثة مع المؤلف.

147- موسوعة الإسلام، www.eslam.de، المقال «الإسلام»: «...

والأصل العربي لكلمة «إسلام» هو نفس أصل كلمة «سلام» «وتسليم»، وبالتالي فإن الوصف التالي هو أول خطوة لفهم الإسلام: يصل المرء إلى السلام في القلب بالتسليم بالإسلام (دين الله الحق)...»

148- صدر زاده، علي: الثورة المكشوفة. في:

Qantara.de. www.qantara.de/webcom/show_article.p hp/_c-468/_nr-79/i.html.

149- تودينهوفر، يورجن: حمار محمل بالدولار يستطيع بلوغ مالا يستطيعه أي جيش. في: سوددويتشه تسايتونج، 29 ديسمبر 2001م، صـ 14.

150- هاوبولد، إيرهارد: آسيا المسلمة تصبح متطرفة. في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 13 أكتوبر 2001م، صـ 2.

151- خمسة عشر إرهابيًّا سعوديًّا من مجموع تسعة عشر ارتكبوا جريمة الحادي عشر من سبتمبر، والباقون كانوا من مصر، ولبنان والإمارات العربية المتحدة.

انظر أيضاً: دون مؤلف:

The hijack suspects. In: BBC News online, 28. September 2001, http://news.bbc.co.uk/2/hi/americas /1567815.stm: »Mohamed Atta, 33, possibly an Egyptian national, has emerged as a key link among the 19 men. He is believed to have been at the controls of Flight 11 when it hit the World Trade Center and has been linked to hijackers on two of the three other planes. Investigators say Atta was part of a terrorist cell in Hamburg, Germany, and received flight training in Florida.

152-دون مؤلف:

Gellman, Barton; Ricks, Thomas E.: U.S. Concludes Bin Laden Escaped at Tora Bora Fight. In: Washington Post, 17. April 2002, P. A01

153- بيركينج، سابينه: الملا بموتوسيكل. في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 10 يوليو 2002م، صـ 15.

154- شلاي، نيكوله: مذهب بوش. تنبؤات جديدة للسياسة الخارجية الأمريكية. في: C.A.P. Europäische Zeitung. 1 سبتمبر 2002م، www.cap-lmu.de.

وبهذا الخصوص ، انظر:

MacLeod, Scott: A Date With a Dangerous Mind. In: Time Magazine, 25. September 2006, P. 32: »[...] Ahmadinejad has also made rhetorical gestures of conciliation, sending an open letter to George W. Bush and inviting the U.S. President to a televised discussion about ›the ways of solving the problems of the international community‹. (Bush ruled it out last week. ›I'm not going to meet with him‹, he said at a White House news conference.)

وانظر أيضاً تقرير بيكر-هاميلتون (2006م)، صـ46:

«Violence cannot end unless dialogue begins, and the dialogue must involve those who wield power, not simply those who hold political office. The United States must try to talk directly to Grand Ayatolah Sistani and must consider appointing a high-level American Shia Muslim to serve as an emissary to him. The United States must also try to talk directly to Moqtada al-Sadr, to militia leaders, and to insurgent leaders. The United States can help facilitate contacts.»

155- شميت، هيلموت: أخلاق السياسي. الخطاب الأخلاقي العالمي السابع للمستشار السابق هيلموت شميت، توبينجن 8 مارس 2007م. في:

Stiftung Weltethos. www.weltethos.org/00 --home/helmut-:schmidt-rede.htm

«والذي يريد أن يخدم السلام بصفته رجل دولة، فينبغي عليه أن يتحدث مع رجل الدولة في الجهة الأخرى، أي أنه ينبغي أن يتحدث مع عدو الأمس وعدو الغد المحتمل،كما ينبغي عليه أن يسمع له ويجيب عليه، يتحدث ويسمع ويجد حلاً وسطاً إذا كان ذلك ممكناً!»

156- يصدق المصطلح في الأساس على الاتحاد السوفييتي.

Halsall, Paul: Ronald Reagan: Evil Empire Speech, June 8, 1982. President Reagan: Speech to the House of Commons [London], 8. Juni 1982. In: Modern History Sourcebook. www.fordham.edu/halsall/

mod/1982reagan1.html: «Must freedom wither in a quiet, deadening accommodation with totalitarian evil?»

ترى مصادر جامعة فوردهام في مدينة نيويورك أن أصل هذا المصطلح هو «مملكة الشر»، مع أنه لم يذكر بهذ الاسم من قبل، ولم يشر ريجان في خطابه في لندن إلا إلى شر السلطة المهيمنة.

157- ساركوزي، نيكولاس: خطاب افتتاح مؤتمر السفراء الخامس عشر، باريس، 27 أغسطس 2007م في: .Botschaft-Frankreich.de www.botschaft-frankreich.de، المبررات معروفة، ولن أخوض فيها

مرة أخرى، ولكني أريد أن أؤكد أن وجود دولة مثل إيران تملك سلاحاً نوويًّا تحت تصرفها هو أمر غير مقبول بالنسبة لي، والقرار الذي تؤكد عليه فرنسا في الموقف الحالي هو تشديد العقوبات، ولكن قد يلوح حل في الأفق، إذا ما قررت إيران الالتزام بواجباتها، وبهذه الطريقة فقط يمكن لنا أن نريح أنفسنا من البديل الخطير وهو قصف إيران، هذه الأزمة الرابعة بلا شك هي أخطر ما يهدد النظام العالمي اليوم.»

وقد تم التأكيد على وجهة النظر هذه مرة أخرى: دون مؤلف: ساركوزي يحس بخطر الحرب. في: فوكس، 12 ديسمبر 2007م:

:politik/ausland/iran_aid_229168.html /www.focus.de

«بغض النظر عن التقرير الأمريكي الأخير عن السياسة النووية لطهران تحدث الرئيس الفرنسي نيكولاس ساركوزي علانية عن خطورة الحرب ضد إيران، فأمن إسرائيل يقلقه بصفة خاصة... وقد خلصت المخابرات الأمريكية في تقريرها المنشور في 2 ديسمبر 2007م إلى أن إيران جمدت برنامجها لصنع السلاح النووي في آخر عام 2003م.»

158- عبادي، شيرين (2007م)، صـ 340 وما بعدها.

159- قارن MTL ، مقال KSZE:« ... في المؤتمر المنعقد في هيلسنكي في 3/7/1973 عن الأمن والتعاون في أوروبا واشتركت فيه 33 دولة أوروبية (كلهم ما عدا ألبانيا) وكندا والولايات المتحدة، وكانت المرحلة الثانية لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا في جينف (من 18/9/1973 إلى 21/7/1975) تهدف إلى نشر الوثائق النهائية المتوصل إليها، أما مؤتمر القمة في هيلسنكي (من 30/7 إلى 1975/8/ 1)فقد كان يمثل المرحلة

الثالثة لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا، وانتهى بتوقيع ما اتفق عليه في مؤتمر هيلسنكي.

وطبقاً لذلك.. فإن هناك عشر مبادئ تحكم الدول المشاركة في علاقاتها مع بعضها: 1. المساواة المطلقة والاحترام الكامل لسيادة القوانين الداخلية 2. عدم التهديد أو استخدام القوة 3. الحفاظ على حرمة الحدود 4. الاندماج الإقليمي بين الدول 5. التعامل السلمي مع النزاعات 6. عدم التدخل في الشؤون الداخلية 7. احترام حقوق الإنسان والحريات 8. المساواة في الحقوق وحق الشعوب في تقرير المصير 9. التعاون بين الدول 10. الإيفاء بالتزامات القانون الدولي.

وبالإضافة إلى ذلك فقد لجأ التصريح الختامي - من ضمن ما لجأ إليه – إلى بعض إجراءات بناء الثقة في المجال العسكري، والتعاون في مجال الاقتصاد، والعلوم، والتكنولوجيا، والبيئة وغيرها...

160- مقتبس من محادثة شخصية مع المؤلف.

Church, Forrest: The American Creed. In: The Nation, 29. August 2002, www.thenation.com/doc /200209 16/church

161- تودينهوفر، يورجن: اللعبة المجنونة. في: دي تسايت، 4 أغسطس 2005م، صـ 9.

162- nbu (اختصار المؤلفين): الأمة الأقوى عسكريًّا. في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 30 مارس 2006م، صـ 7: «الولايات المتحدة هي القوة العسكرية الأقوى بفارق كبير، في عام 2005م بلغت ميزانية

الدفاع 423 مليار دولار، وكان هذا يمثل ضعف ما تنفقه كل دول الاتحاد الأوروبي على جيوشها.»

مقارنة بإيران: nbu (اختصار المؤلفين): أماكن الأزمات في العالم. في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 30 مارس 2006م، صـ7:« مصاريف الدفاع إيران 4 مليار و41 مليون دولار و420000 جندي...»

Shah, Anup:

World Military Spending. 25. Februar 2007, www.globalissues.org/Geopolitics/ArmsTrade/Spending.asp.

الأرقام المقارنة بدول عديدة، على أساس عام 2005م وعلى أعلى التقديرات.

انظر أيضاً:

Iran's defense spending ›a fraction of Persian Gulf neighbors‹. In: GlobalSecurity.org, 31. Mai 2006, www.globalsecurity.org/wmd/library/news/iran/2006/iran-060531-irna03.htm: »Military Balance, published by the International Institute for Strategic Studies in London, puts Iran's defense budget for 2005 at dlrs 6.2 billion.»

163- انظر الكلمة الختامية هامش 47.

164- هوفمان، كريستيان: لم يصلوا حتى كربلاء، في: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 21 أكتوبر 2006م، صـ3.

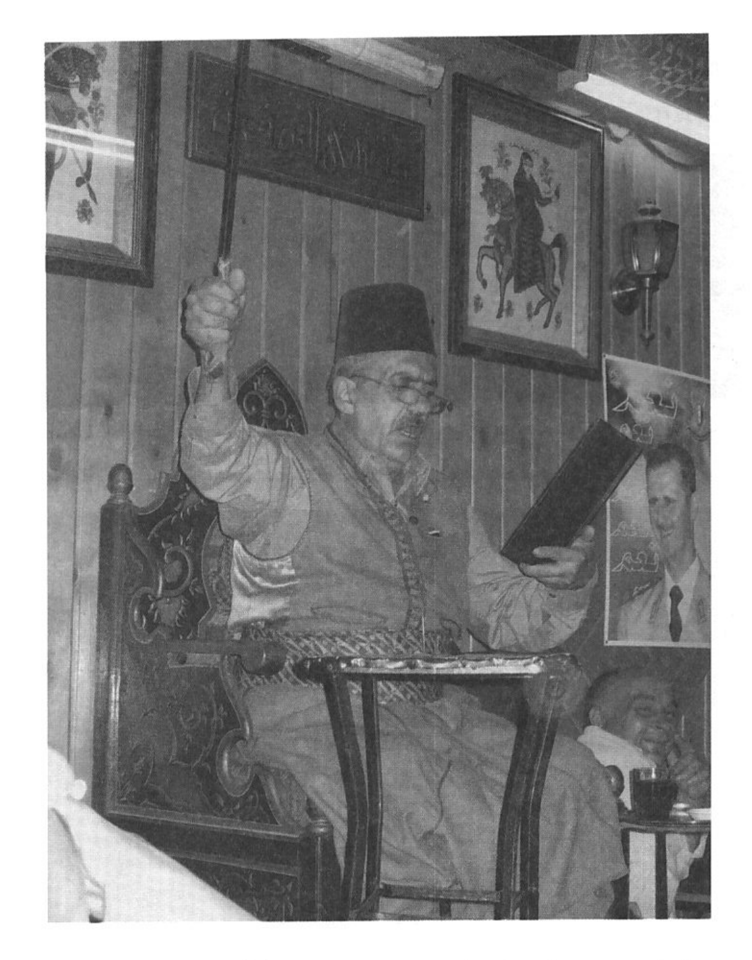
165 -دون مؤلف:

Shultz, George P.; Perry, William J.; Kissinger, Henry A.; Nunn, Sam: A World Free of Nuclear Weapons. Wall Street Journal Op-Ed. In: The Wall Street Journal, 4. Januar 2007, P. A15: «Nuclear weapons today present tremendous dangers, but

also an historic opportunity. [...] reliance on nuclear weapons [...] is becoming increasingly hazardous and decreasingly effective. [...] John F. Kennedy, seeking to break the logjam on nuclear disarmament, said, ›The world was not meant to be a prison in which man awaits his execution.‹ [...] Ronald Reagan called for the abolishment of ›all nuclear weapons‹, which he considered to be ›totally irrational, totally inhumane, good for nothing but killing, possibly destructive of life on earth and civilization.‹ Mikhail Gorbachev shared this vision [...]. The Non-Proliferation Treaty (NPT) envisioned the end of all nuclear weapons. It provides [...] that states that do possess them agree to divest themselves of these weapons over time. [...] Reagan and General Secretary Gorbachev aspired to accomplish more at the meeting in Reykjavik 20 years ago – the elimination of nuclear weapons altogether. [...] First and foremost is intensive work with leaders of the countries in possession of nuclear weapons to turn the goal of a world without nuclear weapons into a joint enterprise».

166- مقتبس من محادثة مع الأستاذ الدكتور فالتر شتوتسله، عالم سياسي وصحفي والسكرتير العام السابق لوزارة الدفاع الألمانية.

ملحق الصور



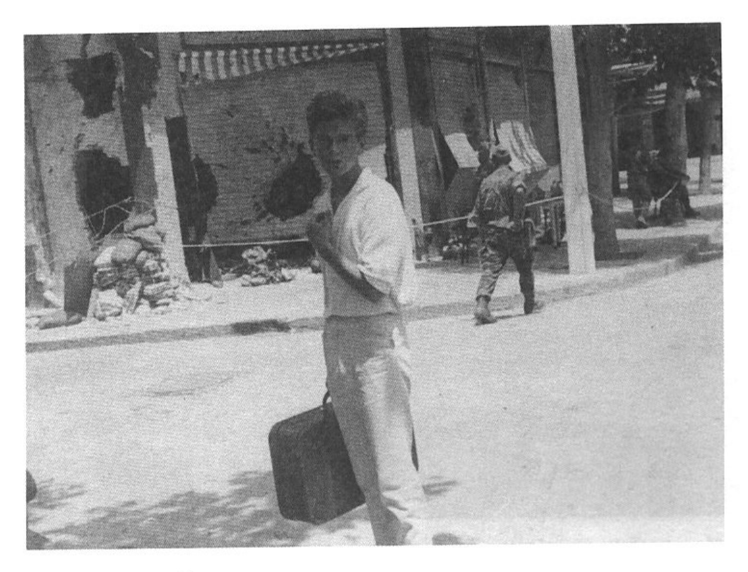
حكواتي مقهى النوفرة في دمشق يروي بطولات عنتر بن شداد.



الطفلة العراقية مروة في محلها التجاري الصغير ، الذي أقيم بمساعدة الدكتور تودنهوفر.



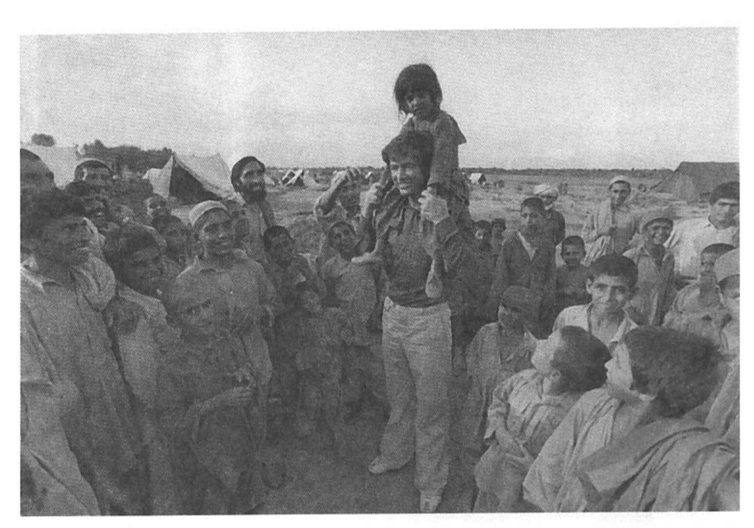
الدكتور تودنهوفر راكبًا القطار في الجزائر ، وحوله بعض جنود الفرقة الأجنبية ، أيام الاحتلال الفرنسي للجزائر.



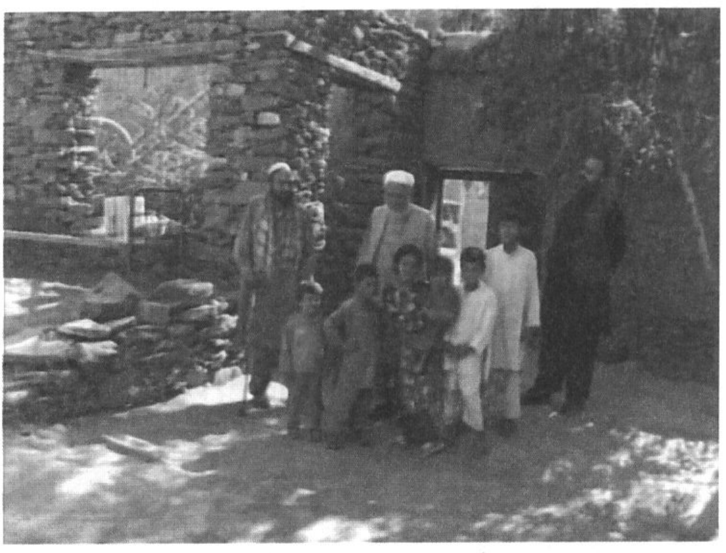
الدكتور تودنهوفر في مدينة بنزرت التونسية المدَّمرة عام1961.



الدكتور تودنهوفر مع مجموعة من المجاهدين الأفغان ، وتبدو خلفهم مدرعة سوفيتية محترقة.



الدكتور تودنهوفر وسط مجموعة من اللاجئين الأفغان.



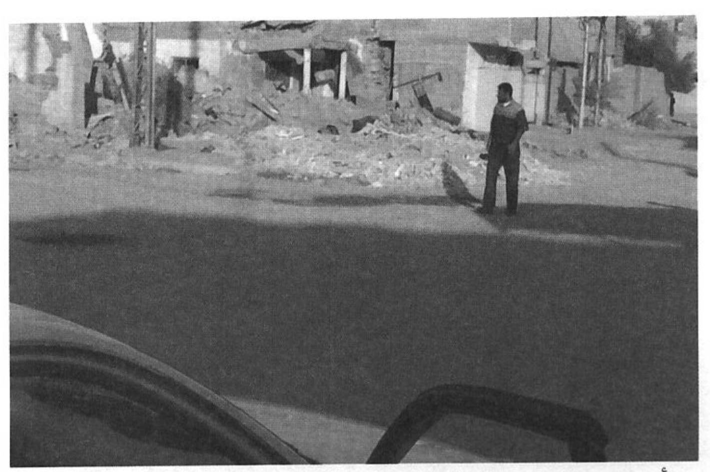
المواطن الأفغاني عبدول مع أطفاله ووالده.



النصب التذكاري الذي أقامه والدا الجندي الأمريكي(آندي)، قرب قاعدة تامبا في ولاية فلوريدا ، والذي أزالته الحكومة الأمريكية بمناسبة زيارة الرئيس بوش للقاعدة.



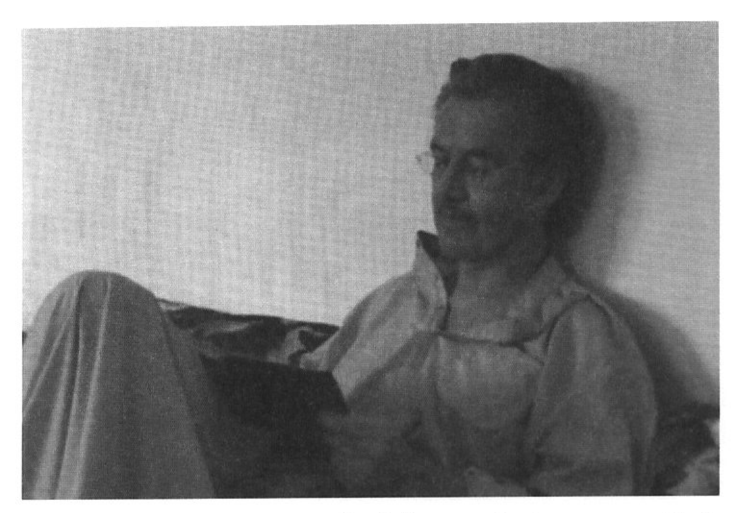
الدكتور تودنهوفر يتابع علاج المواطن الأفغاني(عبدول) من الحروق التي أصابته.



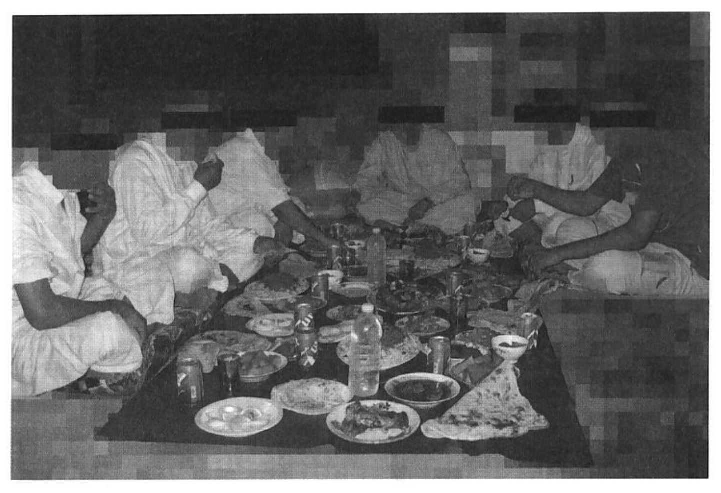
أحد بيوت مدينة الرمادي/ شارع العشرين ، التي دمرها القصف الجوي الأمريكي.



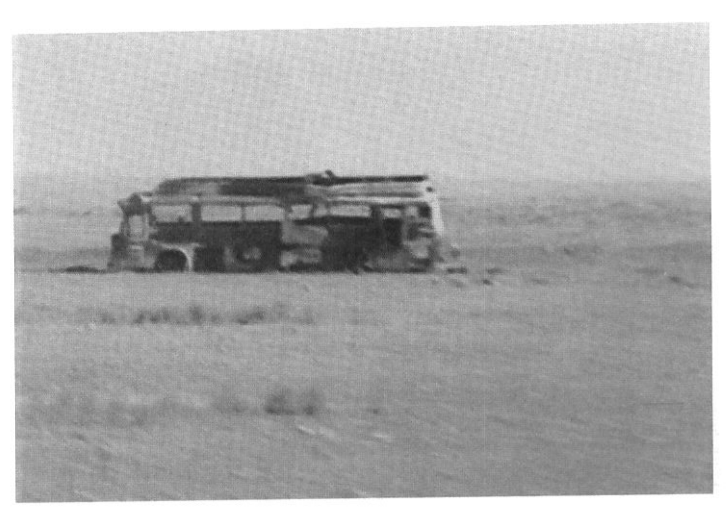
ناقلة أشخاص أمريكية مدرعة تمر بجوار سيارة الدكتور تودنهوفر ، في الطريق السريع ، بين الحدود العراقية-السورية ومدينة الرمادي.



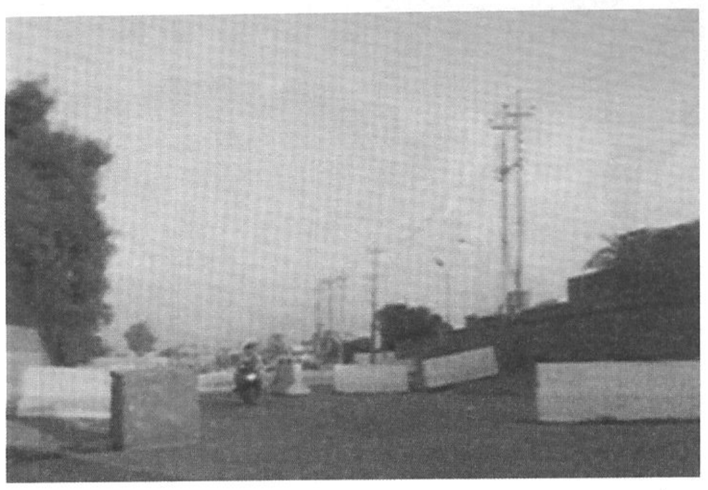
الدكتور تودنهوفر في مدينة الرمادي ، يدون في دفتره بعض الملاحظات.



الدكتور تودنهوفر يتناول العشاء مع قادة المقاومة في مدينة الرمادي.



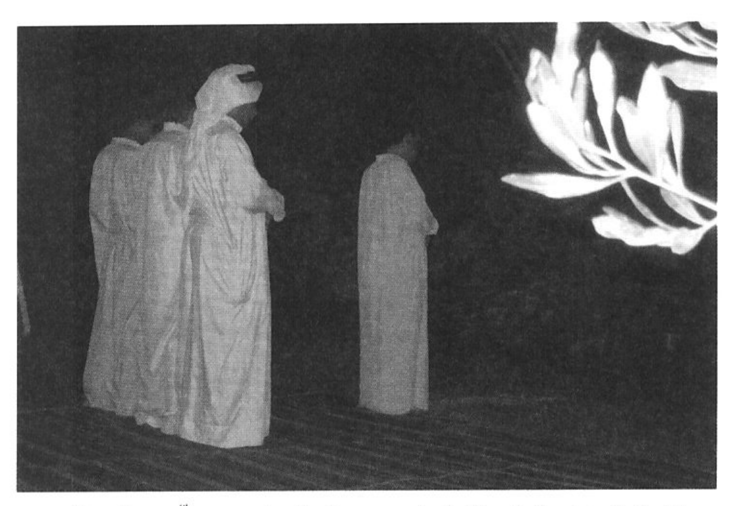
حافلة مدنيّة مدمرة على الطريق السريع ، بين الحدود العراقية-السورية ومدينة الرمادي.



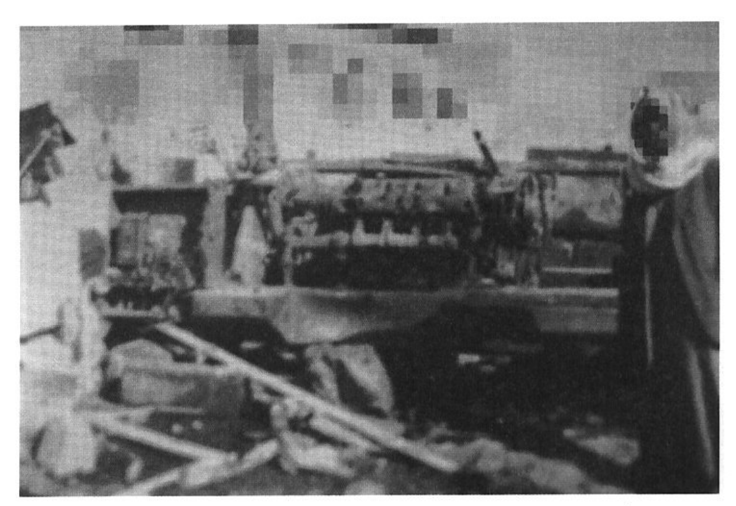
أحد شوارع مدينة الرمادي المليئة بالحواجز الإسمنتية.



حديقة مسكن أبي سعيد في منطقة الجزيرة في الرمادي ،
حيث قضى الدكتور تودنهوفر لياليه.



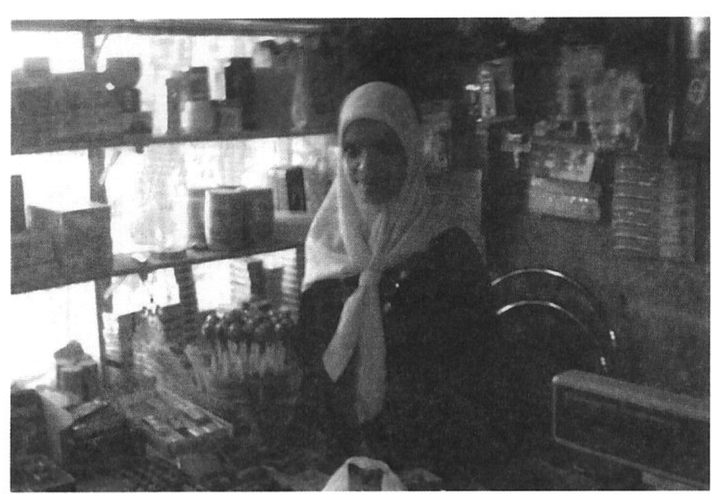
قادة المقاومة العراقية في مدينة الرمادي يؤدّون الصلاة.



مولدة الكهرباء المجاورة لبيت زيد ، بعد قصفها من المدفعية الأمريكية.



رتل من سيارات الشرطة العراقية ، على طريق المرور السريع، أجبر سيارة الدكتور تودنهوفر على الوقوف.



الطفلة العراقية تانيا في محلها التجاري الصغير ، الذي أقيم بمساعدة الدكتور تودنهوفر.



طائرة هليوكوبتر أمريكية تحلق فوق مسكن أبي سعيد، في الجزيرة في مدينة الرمادي ، خلال وجود الدكتور تودنهوفر.

لماذا تقتل يا زَيْد؟

هذا الكتاب هو الأكثر جرأة وموضوعية وحيادًا مما نشر في السنين الأخيرة حول علاقة الغرب بالعالم الإسلامي، وهذا يفسر انتشاره الواسع وبقاءه على قائمة االكتب الأكثر مبيعًا في ألمانيا، عند صدوره في مارس / آذار 2008؛ مما دفع أغلب المحطات التليفزيونية إلى دعوة المؤلف للحديث معه عما أورده في كتابه من وقائع وأحداث وفرضيات تتعلق بهذه العلاقة، وكيف توصل إليها من قلب الأحداث..

إن يورجن تودينهوفر عضو بالبرلمان الألمانى الاتحادى، والناطق باسم الحزب الديمقراطي المسيحي لشئون التنمية ومراقبة التسلح، على مدار 18 عامًا.. وواحد من أبرز الكتاب الغربيين المنصفين؛ إذ إنه لم يتحدث عن مضمون كتابه، وهو بمنأى عن مسرح أحداث الكتاب، وإنما أراد أن يعطي المصداقية لطروحاته، فبدأ بمعالجة القضية الأكثر سخونة في العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي، وهى الاحتلال الأمريكي للعراق، مخاطرًا بحياته حين انتقل إلى مناطق الصراع ذاتها ليكتب عنها، وحين ذهب إلى مدينة الرمادي نفسها - دون علم القوات الأمريكية أو مخابراتها - لينقل الواقع دون تزييف أو خداع..

" لماذا تقتل يازيد ؟ " كتاب يتسم بسياق اجتماعي إنساني ثري، تتمركز أحداثه حول "زيد" باعتباره الشخصية الرئيسية للأحداث .. ذلك الفتى العربي الوسيم الخجول المقاوم، نموذج للصمود العراقي والإيمان بحتمية حقه في أرضه ووطنه وسيادته .. فدائي من بين آلاف غيره، آلوا على أنفسهم رفض ممارسات الغرب ضد بلادهم .. يحكى تلك القصة الحقيقية لهذه المقاومة الباسلة بلا رتوش أو أقنعة.

الدار المصرية اللبنانية


6222006 319366